الجمهورية العراقية
وزارة الثقافة والفنون

# المتنبي

## شاعر ألفاظه تتوهج فرسانا تأسر الزمان

د. علي شلق

منشورات وزارة الثقافة والفنون ـ الجمهورية العراقية

صدر بمناسبة مهرجان المتنبي ببغداد
تشرين الثاني ١٩٧٧

د. علي شلق

# المتنبي

## شاعر ألفاظه تتوهج فرسانا تأسر الزمان

« الطبعة الاولــى »

# المتنبي

## مدخل

**المتنبي كلمة في بال الارض ترسم صورة .**

من وحيها استشراف المغيّب ، والمكـوث في رؤيـا كونيّة ، إذ هي حالة الّذي يتخطّى مسافاته الذاتيّة ، إلى عالم الناس الشموليّ ، ساعة عبر من رؤيـة الواقـع المتّهم ، سجيـن العنـاء والحزن ، إلى سرابات أحلامـه . مادّة نبوّة تفيـد الظهـور باحتدام ، يتجاوز ، على بعد .

جِدها في الفـاظ : نبا ، بَنَـى ، نبـأ ، نبـوّ ، نبـه ، هبـا ، بهـا ، أهب ، أبـه ، فقانون فقـه اللغة أنّ الكلمات المتّفقة ، في اكثـر الحروف تتّفق في اكثر المعنى .

ثمة . لماذا ألغى العرب تسمية شاعرنا الكوفيّ بأحمد ، وكنيته بأبي الطيّـب ، وأشاعوا لقـب المتنبي ؟ ربّتمـا كـان ذلـك عائـداً إلـى فرادته العبقريّـة !!! إلى شعر رؤيـويّ .

العبقريّ أسيـر الاسف لشقاء العالم ، للخلل فيـه ، مهووس بتفجير واقعـه . ورفض وجـوده ، راسمـاً جـوّاً سـواه . أبـداً هـو في صراعٍ لاهب بيـن مكانـه وزمانه ، متفـوق عى ذاتـه والعالم ، كقوس قـزح لا يسطع الا فوق سطح مظلم ، أو كمحنة « هيكتور » طـروادة لا تندلع مشعّة إلا في دخان الفاجـع الملتهـب .

العبقريّ هو ذلك الفنـان ساعة يتخذ من وسائله المحدودة سبـلاً إلـى كينونـة لا حدود لها ، اذ هـو بتعبيره يأسر المسافات بلفظة ، بلون ، بحركـة ، بتجسيـد ، بنغمة ، بشكل ، وقـدرته أنـه يبدع للمكـان

قـوالب ، تخـزي الزمـان فلا يستطيـع تحطيمها ، لانـه مسؤول عـن تغيير العالم ، قوالبـه وطـن يسكنـه بجسمه ، بكلمته ، وصـوره • إنـه يحمـي وطنـه •

من هنـا نسـب العـرب كـلّ متفـوّق الـى وادي عبقـر ، والغربيـون قـالـوا genie من كلمة جـنّ العربيّة ، والكلمتـان ترسمان التّخطّي والتّمايز ، بمعنى يصـل بـين الواقـع والأسطورة ، أو يُؤسْطِرَ المألوف ، ليصبح غـريباً ، مفاجئاً ، إلهيّاً ، والا لمـا كانـت اولمبيّات اليونان الراعبـة الجمال ، ويبرين ، ووبار ، وعبقـر في بـلاد العـرب •

العـرب تسمّي فنـاناً كـل مـن لـه امتـداد ونشـاط للتعبير ، كالافنون ، والفَنَن ، والمفنّ ، والفنـواء ، وهـذا لا يتـمّ إلا بحالـةٍ تتشكل فـي الداخل ، وتزأر أو تهبّ لتظهر الى الوجود في شـكل مـن الاشكـال الجميلة ، او الجليلة مثل الـ MAGMA « المجما » الملتهبة فـي أعمـاق الارض ، تنفجـر ساعـة تجـد قشـرة رقيقة ، فتعطـي هـذه الجبال ، والسفوح والوديان ، وتنْجلي عن ملامح الطبيعة المتفاوتة لطفاً ، وحسناً ، وبهـاءً ، وروعـة •

كمـا في السماء كذلك على الارض ، وفـي الانسان صِنْوُ ما فـي الطبيعة ، لغاية هـي الجمال : وهـذا الجمال يفيـد الجمع ، والانسجام ، إذن هو أحدّيـة تهدف الى المصدر الواحد الشمولي •

فكـل مبدع يضّج ، وينسعر ليصنـع هـذه الأحدّيـة ، الجزئيّة المتصلة بالأحـد المطلـق ، ومـا ذلـك إلاّ لأن الأشيـاء انبثقت مـن الواحد ، ثـم تناسلت ، وتكاثـرت ، وبعـدت ممالكها فـي الجمـاد ، والنبات ، والانسان ، والافـلاك ، والغيوب ، وهـي دائما مشوقـة في أن تعود الى منبعها الذي منـه انطلقت ، بحنيـن موصول ، وشوق ساعرا التّخطّى ، مثل ناي جـلال الدين الروميّ فى مثنويّـه : « أنا يا حبيبي أحنّ إليـك ، حنيـن عود النـاي الى شجرته التي منها اقتطع • »

هذا الدوران الأزليّ الابديّ خلق الاسطورة عند الشعوب القديمة، وخصّ العرب بالمبالغة ، وتفرد صاحبنا المتنبي بالإثنتين معاً ، وإن كانت المبالغة أقصى مدى من الاسطورة •

الأسطورة التاريخية مضت بلمعانها البديع ، صوراً تحتضن سوراً كموج البحر ، وبقيت الاسطورة الفنيّة الأدبيّة ، فكل أدب يؤسطر على درجات ، ومسافات ، وابعاد ، وله وسائل بالتشبيه ، والاستعارة وما هذا التشبيه الا وسيلة لصنع المثال الحلو ، الجميل ، السامي ، من الواقع ، ساعة يسرّنا ، أو يضعنا في وفاق متناغم مع العالم ، أو يرعبنا • وسترون كيف يصل بنا المتنبي الى جمالية الجلال المخيف !!! سترون كيف ينقلنا اليه ، يأخذ منّا هُوِيّاتنا ، لنصبح ما شاء لنا ، فهو شاعر ، والشاعر فنان رسالته أن يُكمّل العالم ، أو يضعه كما يشاء •

فَلْيَقُلْنا هذا المتنبي شعراً ، ليَصْنَعْنا من جديد خلقا آخر ، ليلهُ بنا على هواه ، فاللهو من الفن نتيجة الفائض من الطاقات الحيوية ، إذ لديه الجواز الالهيّ ليبدل الاشياء ، فيزيد فيها ، أو يسخر منها ، أو يُصعّدها •

شِعْرٌ ، والعرب تسمي هذا الفن الذي هو قمة الفنون قاطبة ، فوق الرسم ، والنحت ، والموسيقى ، والرقص ، والمدمكة ، نظراً لدلالته على الدقّة ، والرقّة ، ومنه الشعور ، والشعيرة ، والشيوع • وسيلته اللفظة ، واللفظة من الحروف ، والحروف أصوات ، والاصوات جوهر كل شيء ، يبقى بعد ان تفنى الأشكال أو تتبدل • سل عن الحرف والصّوت سيمائيّي العرب ، والسّورياليةّ البروتونية •

لا حادثة بدون صوت ، لذا عدّ جابر بن حيّان الصّوت او الإسم عين المسمى ، فماذا أحببت أن تعرف الشعر قلت : « إنه بضع من ألفاظ موحية » وإيحاؤها بما فيها من نغم ، يدور في فلك الكلمة ، القمقم ، العالم المستقل ، فتندغم الكلمة مع اخواتها لتشكل عمارة القصيدة التي هي أعظم معبّر عن حضارة البشر كما يقول « اشپنچلر » • لماذا الصوت ؟ لانه كينونة ولأنه تعبير عن

وجع الارض في دورانها حول نفسها ، وحول الشمس ، إلى غاية هي الحياة ، والدائرة هي اكمل الاشياء الهندسية في الكون ، لذا فالحالة في نفس الفنان تجيء دائرية ، وذات صوت يئن ، ويحن ليَنْوَجِد ، ويتوحّد ، ولكنّه هل يصل ؟

ـ كلاّ فالوصول موت ، ولذا فنحن ابداً في هذا الشوق اللولبي المتواجد الى الغاية التي تندغم فيها الموجودات في سببها الأول ، ومصيرها المنتظر •

بعد ذا نجد أنّ المتنبي صانع شعر ، ليصل الى ان يصنعه الشعر ، فيصبح كلمة من كلماته ، وبلا مرية فإن هذا الشعر المتنبّوي صنع من جسد المتنبي وأعضائه ، ورؤيويّاته ، فوصل الى نقطة اجتاز بها عالمه الى الجمال ، والجلال ، باحتدام قلّما وصل به شاعر عربي ، أو عالميّ •

واذا كان الفرد المتماز بذاته ، المعبر عن تصاعد جنسه بإبداعه ، البوّاح بأشواق الماضي ، وفاعلية الآن ، المطلّ على غده بأفياء الغار ، وبريق الصيالجة لا بد وأن ينتهي بالموت إلى حدّ ، ليترك المدى لآثاره أن تتخطّى الموت ، وتحكم العقول البشرية في مختلف عصورها وأجناسها بقوانين السّحر التي لا ترسم ، ولا توصف ، فما هو بصدد ذلك ؟ ومن هو ؟ كل ذلك لنربط بين الشخص والامة ، والعصر ، والانسانية ، وبينه وبين عطائه وسائر المتمازين مثله في مضمار الفن الشعريّ •

* * *

ـ المتنبي شاعر فريد في فنه ، وفكره ، وصراعه ، وقبل وبعد برؤيته ورؤياه •

ـ هومير ، غنى ، وفيرجيل رسم ، وفالميكي وفياسّا قصّا ، والفردوسي مجّد •

— غوته تأمّل ، ريلكه شطح ، هوچو أشرف ، شكسبير صنع حياة ثانية للحياة •

— طاغور مدّ يده الى قمقم الكلمة فادخل فيه الاحلام ، والافكار ، والحكم •

— ڤاليري مَوْسَقَ الوجود بالحرف ، بودلير أطفأ التهمة بالنسيان ، باللذة ، بالإنكار •

— هؤلاء وسواهم سكنوا الكلمة المارِدة ، الحالمة ، الموحية ، المصوّرة ، الضائعة ، العاقلة •

بيد انّ المتنبي — ولا أغالي — لَمّ في شعره شتيت مميزاتهم ، وانفرد بشخصه المارد يصارع المقادير •

كان شعره شعراً •

كان شخصه شعراً من نوع منماز في سكان التاريخ ، والقاحمين في غضب الشمس ، وجنون الرياح ، وعصفه الغبار •

بعد ، من هو في لغة الناس ؟ الى أن نصل الى ما هو في حجم القدر ؟

اسمه ، أبوه ، امه ، اسرته ، مجتمعه ، عصره ، مجرى حياته ، نهاية مطافه كائناً حيّاً ، لنصل الى آفاق خلوده شعراً لا تجف ينابيعه بحال ، او تنطفيء مجامر هيكله على زمان ؟

هو أحمد بن الحسين ، الجعفيّ ، الكوفيّ ، وقيل أبوه « عبدان السقاء » على رواية صاحب « الوساطة » •

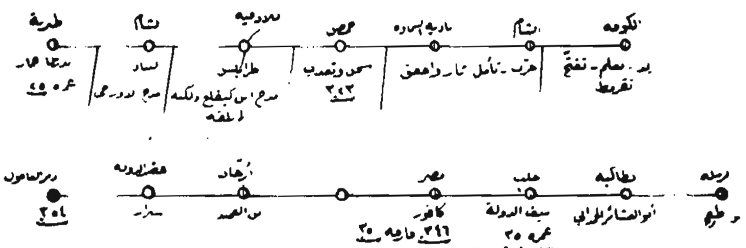
ولد سنة ٣٠٣ هـ في محلة كندة من الكوفة ، ولكنه ليس من كندة القبيلة بل من جُعفى بن سعد العشيرة الكثير الاولاد ، بن مذجح ، بن كهلان • ونسبه لجهة أمّه من همدان ، وكلتاهما جُعفي ، وهمدان من اليمن •

لا يذكر التاريخ شيئاً هاماً عن أبيـه ، إلاّ انه صحبه الى الشام ، اما والدته فمنسيّة ، بيـد أنّ جدّته لأمّه كانـت صالحة ، ذات رجاحـة ، مجّدها المتنبي ، وبكاها ، وكانت مولعـةً بـه •

سكت المتنبي عن نسبه ، فسكت التاريخ ، الا همساً عن هذه الجدة ، حتى زواجه لا يُعلم عنه أكثر من أنّ له ولداً اسمه محسّد قتل معه فـي دير العاقول قرب محلة الصّافية من النعمانية وهو عائد من شيراز عضـد الدولة ماراً بالكوفة وبغداد الى حلب ، او إلى مصير آخر ، وقـع ذلـك في ٤٢ رمضان سنة ٣٥٤ ، وهكذا باحت به الحيـاة في جـوّ مكفهـرّ ، مصبوغ بالـدم ، وختمت عمـره الزاخـم بتفجير دمه ، فأسكتت نَبْضَ قلبـه ، وبقـي شعره ليدوّي عبر الأداهير[1] •

**مجرى حياته :**

هنا ، لا بأس برسم خطّ لحياته ، ممهور بالمواطن التي حـلّ بهـا ، والنابهين الذين لقيهم :




(٢)

---

١ ــ يعادل زمن مولده ، ومصرعه بالتاريخ الميلادي ٩١٥ ــ ٩٦٥ فيكون قد عمـر « ٥٠ » عامـا .

٢ ــ زار حمص ، بعلبك،طرابلس فطبرية ثم عاد الى التنوخيين في اللاذقية.

# أخلاقه وملامحه

كثر القول في أخلاق المتنبي ، منذ أن لمع نجمه في بادية السماوة ، الى أن تألق في بلاط سيف الدولة ، فانكسف عند كافور ، وانتهى بعد شيراز .

قال معاصروه ، ومن داروا في فلك القرن الرابع أشياء لامست جوانب شخصه ولكنها لم تنفذ الى الصميم ، أو تحط بأقداره ، وربما كنا نحن اليوم أوفر حظّا في تبيان مقدار صلاته حيث درج ، وثار ، واستلان ، واطمأن ، وتفجّع ، لما لنا من استطالة في حقل البحث ، وبُعدٍ اكسبنا الرويّة ، وينابيع أمدّتنا باسباب المحاكمة .

**فمما قالوه فيه :**

١ً ــ روى ابن خَلّكان أن رجلا اسمه « حمزة بن عليّ » عايش الشاعر فقال عنه : « بلوت من ابي الطيب ثلاث خلال محمودة ، وذلك أنه ما كذب ، ولا زنا ، ولا لاط ، وبلوت منه ثلاث خلال مذمومة ، وذلك أنه ما صام ، ولا صلّى ، ولا قرأ القرآن . »

٢ً ــ قال عنه ابن فورجة : « كان المتنبي رجلاً داهية ، مرّ اللسان ، شجاعا ، حافظا للآداب ، عارفا بأخلاق الملوك ، ولم يكن فيه ما يشينه إلا بُخْله وشرهه على المال . »

٣ً ــ في الديوان اشارات الى أنه كان يحب مجالسة حسان الوجوه ، ولكنه ما كان يرغب في الخمر ، ولا يتوقف عند النساء ، أو يأخذ في بعض ما يلهو به معاصروه ، وانه كان فارساً ، متكبّراً ، يحتقر الآخرين .

٤ً ــ زعم النَّهْشَلِيّ أن ادّعاءه النبوّة كان تلفيْقاً وإنما سمي مُتَنَبّياً لفطنته .

هذه أهمّ الصفات التي الحقت بـه وإن كان القول في أخلاقه تشعّب، وتعـدّد، وتلوّن، وجاوز المقدار .

مما سبق، ترتسم لنا صورته، أنـه لم يكن بَدِيْناً، بل ربعـةً، وأنه محكـم البنيان، قـويّ التكوين، الى جانب مُلايَنَتِهِ علية القوم، وتأبّيه عمن قلّوا عن مراتبهم، وأن الرجل كـان يشـق بنفسه، وشعره، فترفّـع عن كـل ما يشيـن، أو يخفض، وانـه كـان ثقِفاً، خبيـراً بالنفوس، وبمجرى التاريخ، وأوضاع زمانـه، الى جانب كونـه مغمور النسب، بعيد مطارح الآمال، يتعبّد لذاته موهبةً وتجربةً، ويأْسى لسوء موضعـه من العالم، كما يتشكّى من وصول المغلقين الى مراكز السيادة، فيقتحم لكنـه لا يجـد غيـر الهباء، فيتحول الى شعره، يـزرع فيـه لهـبَ شؤونه، وشجونه، وعزمه، تعويضـاً عـن خسرانه العالـم رســم لــه « جبـران »، « والشـهّال »، « وحـامـد » صـوراً ما أظنّهـا معبّرة عـن شخصه المنسول الاشعة والخيـوط مـن شـعره .

يتحدث نقاد العصر، عن النّرجسيّات، وجنون العظمة، والمرضيّات، ويمزجون علم الطب، بعلم البسيكوجيا، باللفتات الى اساطير اليـونان، ويعقـدون بيـن المتنبي ونيتشـه مقارنات، كمـا يلتفتـون الى وضـع الاسكندر مع ديوجين، ونيتشه مع شوبينهور، والمتنبي مع ابي العلاء، ثم يسلون الخيوط، وينسجون .

خلا أن الدكتور طـه حسين فـي كتابه مع المتنبي لم يعر كل هـذا لفتة واحدة، بل جـرى بـذكاء وعمـق، وشمولية، يسجل، ويحلـل، ويحكم، منطلقا من شعر الرجل، محاكماً بعض مواقف التاريخ .

بايجاز، لـم يكن المتنبـي مريضـاً، ولا مهووساً الا اذا سميـت العبقرية هوسـاً، ولا معقداً، بـل كان رجـلا طمّاحاً مؤمنـاً بحقّه، وبمذهبه القرمطـي الباطني الثائر، ذكيـا، مثقفـاً، لم يسعفه نسبه، بل دار بـه في الآفـاق ادبه، فرغـب في الاجمل والافضـل، وعـاش

عمره بيـن الناس في غربـة ، يسكن الريـح ، والجراح ، والغبار ، وليس له من وطـن الا هـذه الكلمة التـي ضجت بشعر هـز" الدنيـا ، ومـا زال .

وجد المتنبّي أن الحيـاة لا تستحق أن تعاش ، فاختار ما يسمونـه المجـد فيها ، واقتحم ، مثلمـا وجـد الاسكندر وديوجين أن تفاهـة الوجود لا تجعـل له اهميـة فـي نظر الحكيـم ، فزهد ديوجيـن فيهـا جملة وقنـع منها ببرميـل يسكنه ، وطمع فيها الاسكندر فاستولى علـى الدنيا . وكذلك رأى فيلسوفا المانيا ، نيتشـه السوپرماني" ، وشوپنهور العدمي" ، فالأول قبر الإلـه ، واقام مكانه الانسان المتفوق ، والثاني قبر الحيـاة كلها ودعا الى العدم والانتحار ، مثلما فعل المعرّي" قبله .

ثم ان المتنبي كفنان ، يحيا بين الناس فيخفق لانـه يتّهم واقعهـم ، ويرفض سلوكهم ، وينظر نحو الافـق فيجـد الاكمل والاجمل ، فيسير متعثراً في دروبـه ، لكـن" عينيه مسمرتان في مهارج ، وفراديس الافق ، حيث عالم الغبطـة ، والخلاص ، ذلك العالم الذي ارتسـم في اعمـاق ذاته ، وطفا على مشارف أهدابه .

# ديـــوانه

للمتنبي قصائد ضاعت ، لكنّ ما بقي منها ، ورضي عنـه الشاعـر ، لا يتجاوز المائـة والسبعيـن قصيـدة أو مقطوعة ، معظـم موضوعاتها المدح ، فالفخر ، فالهجاء ، والرثاء ، تشيع فيهـا الحكمة ، وترتسم فـي سطورها صور الوصـف •

من هذه القصائد المدحية مقدار نصف الديوان قال في سيف الدولة الحمدانيّ ، أمير حلب ، زهاء ثمانين قصيدة ، وفي كافور ثماني وفي بـدر عمار اثنتين وعشرين قصيدة • وكان المتنبي يواصل تنقيح شعره ، ويحكك معدنه ، لذلك نفـى منـه الكثيـر •

**قوافيـه :**

غلب فيها رويّ الباء ، والدال ، والراء ، واللام ، والميم ، والنون ، وقـلّ رويّ الذّال ، والزاي ، والشين ، والضاد ، قلة تناولت واحدةً ذاليّـة قالها في مساور بن محمد الروميّ ، وزائيّة في ابي بكر ، علـيّ ابن صالح الرّوذباريّ ، وشينيّه في ابـي العشائر الأنطاكي الحمداني ، وثلاث ضاديّات مقطوعات : ثلاثة أبيات في سيف الدولة وثلاثة أخـرى فيـه ، وثلاثة في بدر بن عمّار •

**ما ألحق بديوانه :**

ختم الاستاذ عبد الرحمن البرقوقي ديوان المتنبي الذي شرحه وحققه بمجموعة من القصائـد والمقطعات لم يذكرها اقدم شارحيه ، الواحـدي والعكبريّ ، لكن البرقوقيّ عثر عليها في ذيـل شرح الواحديّ المطبوع في أوروبة • وفي رسالة أحصى فيها الشيخ عبد العزيز الميمنيّ الراجكوتي الاثـريّ الهندي[1] . جميـع اشعار المتنبي التـي لا توجد في ديوانه .

---

١ ــ ذكره « بروكلمن » في كتابه تاريخ الادب العربي ، عنـد الحديث عـن المتنبـي •

جمعها من اربع نسخ خطية من الديوان ، أهمّها نسخة الشيخ حبيب الرحمن خان الشرواتيّ ، ومن طبعتين قديمتين من الديوان سنة ١٢٥٧ هـ وسنة ١٢٦١ هـ ومن سواهما .

ثم يعلق البرقوقيّ على هذه المجموعة قائلا : إنّها تبوح بروح المتنبي ، لكنني بعد الاطلاع عليها ، لم استطع الى الاطمئنان بصددها سبيلاً ، فما دام الاستاذ البرقوقي لم يذكر مصدراً أصيلاً من مصادر القدماء كالواحدي ، والعكبري ، وابن فورّجه ، وابن جنيّ ، والجرجاني فانني اشك الشكّ كلّه في تلك المجموعة للاسباب التالية :

١ً ــ لما فيها من الركّة ، مع انّ بعض قصائد تلك المجموعة يزعم الزّاعم أنها وجدت في رَحْلِه بعد موته ، فكان لزاماً أن تجيء غايةً في الفصاحة ومتانة التركيب نظراً لبلوغ المتنبي بعد الخمسين ذروة مجده الشعري شكلا ومحتوىً .

٢ً ــ للمفردات المبتذلة .

٣ً ــ لخطأ في التاريخ .

٤ً ــ لمجافاة بعضها روح الشاعر .

ولم أجد فيها ما يشبه قول الشاعر ابي الطيب الا هذا البيت بصدد كافور :

وقد أُري الخنزير أنـي مدحته ولوعلموا قدكان يُهجى بمايُطرى(٢)

شراح ديوانه :

| من اشهر شارحيه | السنة |
| --- | --- |
| الحاتميّ | ٣٨٣ هـ في الرسالة الحاتميّة |
| ابن جنّيّ | ٣٩٢ |
| ابن الإقليليّ | ٤٤١ |

٢ ــ الديوان جـ٢ ص ٥٣٩

| | |
|---|---|
| عبدالقاهر الجرجانيّ | ٤٧١ |
| محمد الهرويّ | ٤١٤ |
| المعرّيّ | ٤٤٩ |
| الواحديّ | ٤٨١ |
| التبريزي | ٥٠٢ |
| العكبريّ | ٦١٦ |

وفي العصر الحديث عني بشرح ديوانه اليازجيّ ، والبرقوقيّ ، وفي نظرنا أنّ عبد الرحمن البرقوقيّ المصريّ أوفى شارحي شعر المتنبي ، لكنّ الذي يغوص الى أعماق شاعرية المتنبي ، ويتقصّى أبعادها لمّا يكتب في سجلّ شراحه •

# ثقافة المتنبي

كلمة ثقافة العربية تفيد التقويم ، أصلها للرمح الذي يسدّد ، ليقطع ، لكنها في لغة الفرنجة تفيد الحراثة CULTURE وكلتاهما تختلفان في المنطلق ، وتتفقان في الغاية الا وهي المحصول المعيشي •

تطورت هذه الكلمة في الاتجاهين واللّغتين فاصبحت تعني الاطلاع الرحب ، والموقف المتأمل ، والخطّ الملتزم ، وسيلتها القراءة ، والتأمل والموقف • وغايتها الحضارة ، للحياة • وفي عصر المتنبي ــ الدويلات ــ كانت أمور الوحدة الخلافية قد تدهورت ، لكن شؤون العقل ، والمعرفة كانت غاباتها لفاء ، وحدائقها متهدلة الغصون ، بوّاحة الزهر ، يانعة القطوف •

لا ريب في أن شاعرنا أخذ من كل علم بطرف حسب وصية الجاحظ ، لكن موهبته الاصيلة ، واداته اللاقطة ، ومرايا نفسه الشفيفة دفعته الى التلفّت ، وخزن صور الحوادث ، والموجودات في حناياه ، فجاءت تجربته تكملةً لموهبته ، وزاد عليهما ثالث الاقانيم : التأمّل •

كتبٌ ثلاثة : قراءة الحبر ، قراءة الكون ، قراءة الذات تساوي ثقافة ، وقد توفر للمتنبي شيء عظيم من كل هذا ، أفصح شعره عنه •

في ديوانه اشارات ، « والشعر لمحٌ تكفي إشارته » الى الفلسفة اليونانية من ارسطو إلى السفسطة ، فالأرستبيّة ، والافلاطونية ، والفيثاغوريّة •

وفيه لمعات من الثنوية الفارسية ( زردشت ، ماني ، مزدك ) الى الحلول الهنديّ ، كذلك بصر شامل نافذ بالشعر العربي ، وامثاله وحكمه، ومميّزات نثره ، الى علم العلماء ، وفقه المشترعين ، وعمق شمولي

بما كانت عليه الفرق الاسلامية ، واخصّها مذهبا الاعتزال والتشيّع ، ذلك بعقلانيته ، وهذا بباطنيته ، ثمّ ذلك الوعي الواضح الدلائل لما تفيه المسيحية في شخص المسيح بالذات ، واليهوديّة ، ومختلف تيارات الفكر السريانيّ الذي احتضن ثقافة العالم بعد سقوط أثينا ، وسكوت الاسكندرية بدءاً من انطاكية فحران ، فالرها ، فنصيبين ، ورأس العين وقنسّرين الى جند يسابور ، وقبل ذلك كله قرمطيته الباطنية .

عاش المتنبي ، ودرج ، وشب ، وعانى في فلك هذه الثقافة العالمية التي أفرخت ، وازهرت ، واثمرت في المدارس الأديرة بين آسيا الصغرى وايران .

واذا كان الشعر يمثل ارقى رعشات الحضارة ، ويعبر عن أقصى ابعاد المصير ، ويرفع الواقع الى آفاق المثل ، فالمتنبي كان بحقٍّ أعظم ممثل لحضارة العرب ، وهادف الى مصيرها لتلتقي بالانسانية الكاملة .

**نقاده :**

الذين نقدوا شعر أبي الطيّب ، او تناولوه من جانب ، ثلاثة :

مسرف ، مهووس في الاعجاب به .

مجرّح ، متفجّر الحقد عليه .

معتدلٌ على تناغمٍ بما لديه .

فمن المعجبين أبو العلاء المعريّ في معجز « أحمد » العزيزيّ ، ومن المعتدلين القاضي « عليّ بن عبد العزيز الجرجاني » في كتابه « الوساطة بين المتنبي وخصومه » ، والجرجاني صديق « الصاحب بن عباد » الاديب الوزير ، الذي غالى في تجريح المتنبي ، لأنه ترفّع عن مدحه وهو في طريقه الى « ابن العميد » في « أرّجان » .

**واشهر هؤلاء المتحاملين بعد (( الصاحب )) :**

ـ الحاتميّ : في رسالته « الحاتميّة » حيث أبان عن سرقات المتنبي من حكمة « أرسطو » .

ـ العميديّ : في كتابه عن سرقات المتنبيّ .

ـ ابن حسّون المصري : في كتابه « نزهة الاديب ، في سرقات المتنبي عن « حبيب » يقصد به « أبا تمام »

ـ محمد بن احمد المغزليّ : في كتابيه « التّنبيه عن رذائل المتنبي ، والانتصار المتنبي ، عن فضائل « المتنبي » .

ـ ابن وكيع في كتابه « المنصف في سرقات المتنبي » .

لكن أشهر من أعتدل في نقده ، وتوازن في حكمه ، القاضي علي ابن عبد العزيز الجرجاني ، صديق « الصاحب بن عباد » أشهر من حاول الكشف من مساوئه ، وإغفال محاسنه .

الى ذلك لم يخل كتاب" في النحو ، والبلاغة ، والنقد ، ألّف بعد عصر المتنبي ، إلا ومعظم الشواهد من شعره ، وأبين المرويّات والاستشهادات من ديوانه ، وذلك كما في كتب : الاشموني ، والمغني ، والعسكري ، والسّكاكي ، والقزويني إلى الاماليّ ، والعمدة ، وزهر الآداب ، والباقلاني ، والجرجاني ، والثعالبي .

يضاف الى هذه الاسماء «ابن فورّجة» الذي نقده ، ونقد ابن جني أحد شراحه ، ومثله العروضيّ ،وابن القطاع وسواهم ممن شغلهم المتنبي وملأ دنياهم (١) .

دارسوه :

درسه « محمد كمال حلمي بك » فى كتابه « ابو الطيب المتنبي » حياته ، وخلقه ، وشعره . واسلوبه

---

١ ـ الف « ابن سيدة » كتابه شرح المشكل من ديوان المتنبي ـ نشر القاهرة . وكذلك شرحه مزهف به اسامه بن منقذ ، وابراهيم صادر في بيروت سنة ١٩٢٦ والف حسام زاداه الرومي في كفرة ـ القاهرة سنة ١٣٣٦

ـ والدكتور عبد الوهاب عزّام في كتابه ذكرى ابي الطيب

غير أن أوفى الدراسات عن حياته وشعره على الاطلاق اثنتان :

ـ الاولى للدكتور « راجي بلاشير » استاذنا في جامعة باريس بكتابه
poete atu 4 ewe Rieele de l Hedire
Abu T — Tayb el Mutanlelec

ـ والثانية للدكتور طه حسين بـ : « مع المتنبي » وكلاهما ألحّ على جلاء النقاط التاريخيّة ، وإن كان « بلاشير » اكثر إمعانا في التاريخيات ، وطه حسين أدق في النقديات .

ولم يخل كتاب من كتب المستشرقين درس ادب العرب وحضاراتهم من وقوف مُرَوٍّ ، والتفات معجب عنده ، مثل كليمان هيوار ، وشارل پلا ، وبلاشير ، وكارل بروكلمن ، ونولدكه ، وسواهم مثل سوڤاجه ، ولوسرف ، وده مومبين ، وماسينون ، وكنار ..

اما كتب الادب العربي وتاريخه فقد تميّزت فيها البحوث عنه ، ويكفي أنه تفرد من بين عشرات الادباء بحصّة الاسد في امتحانات البكلوريا اللبنانية ، فاذا هو بحق « مالئ الدنيا وشاغل الناس » .

ملحوظة : لو نظرنا في تاريخ النقد الادبيّ منذ ابن سلام في القرن الثالث ٢٣١ هـ في طبقات الشعراء ، ومررنا لنقفه ، وتروّي ، ونطيل بالقرن الرابع منذ جعفر بن قدامة ، وقدامة بن جعفر في « نقد الشعر » سنة ٣٣٧ وقبله الصولي في اخبار ابي تمام والاوراق ، واشعار اولاد الخلفاء ، فابي الفرج ، والصاحب ، وابن العميد والآمدي ، والجرجانيين ، ( عبد العزيز في الرابع وعبد القاهر في الخامس ) وفي الخامس الباقلاني وكتابه « اعجاز القرآن » ولم نغفل بيان الجاحظ ، ٢٢٥ وادب الكاتب لابن قتيبه ٢٧٦ لوجدنا أن النقد الادبي لم يخرج عن البلاغيات ، والاستحسان ، والاستهجان ، والمستلطفات ، ولا يلج الى ربط الفرد بعصره ، وجنسه ،

والتراث العالمـــي ، عـــدا عـــن البسيكولوجيّات[1] ، والمرضيات[2] ، الى دراســة الاوزان ، والقوافي ، والمفردات بتميز حروفها ، وأصواتها ، وإيحاءاتها ، فيحدث مذهبـاً فـي النقـد الحـرّ ، النزيه ، الثقف ، الشمولـيّ ، صنو ما فعل الثلاثي الفرنسـي تيـن ، وبرونتيير ، وسنت بوف وقبل ذلك عظمة مدام دهستال ، وجاحظيّة جول لمتر ، ومـا يمكـن أن تتميز بـه الدراسات النقديـة الحديثـة فـي مثل نتـاج آبركرومبي ، ومكليش ، وعز الدين اسماعيل ؛ لو فعلنا ذلك لظهر لنـا روّاد في اللّمعات النقديّـة مثل الجاحظ ، وابـي هـلال العسكري ، وعبد القاهر الجرجانيّ ، وقدامة ، وابـن خلدون في آخر كتابه « المقدمة » .

- قدامة لمس عناصر الشعر من لفظ ووزن ، وقافيـة ، ورويّ ، ومعنـى .
- الآمـدي مـال قبل جول لمتـر ، ومـدام دهستال الى الطبـع والسليقة ، ونَقَدَ قدامة .
- الجاحظ التفـت الى الالفاظ قبـل ملارميه .
- عبد القاهر دخل الى صميم النصّ ، ودوزن موسيقى التعبير ، ورسم الصور ، وقابل .
- قبل « سليمان البستاني » في مقدمة الترجمة الالياذّية لا نقـد منهجيـاً فـي مجرى تاريخ الادب العربيّ ،

*   *   *

أسوق هـذه العجالـة ، لأبين مقدار نقـد الصاحب بن عبـاد في رسالته « الكشف عن مسـاويء المتنبي » لنضـع الناقـد وموضوعـه فـي الميـزان .

---

1 - psychiques    2 - pathologique

جرى الصاحب على طريقة استاذه ، الكاتب الشاعر ، الوزير أبي الفضل بن العميد ، الذي تجاوز نقد الابيات ، إلى نقد الحروف ، والكلمات ، والقافية ، والوزن ، وكان الصاحب آنذاك في سن النضج ، أي بعد وفاة المتنبي في اطار السنوات التي تمتد من ٣٥٤ إلى ٣٥٩ .

ــ فماذا أخذ عليه ؟

ــ عاميّة بعض معانيه ــ قبحها ــ الاغراق فيها ــ تعمّد الغموض ــ التّعقيد ــ فساد الذوق ــ فساد العقيدة ــ الفحش ــ النشاز ــ تعمد القوافي الصعبه ــ تكرار الالفاظ ــ ثقلها ــ الركة ــ التكلّف ــ اقحام المصطلحات العلميّه ، والفلسفية ــ أقل من البحتري صياغة ومن الفرزدق فخراً .

ــ فنّد بعض آراء الصاحب كثيرون منهم ابن رشيق القيراني في كتابه « العمدة » واورد نقد الصاحب لهذين البيتين :

صلاة الله خالقنا حنوط　　على الوجه المكفّن بالجمال

و

لو استطعت ركبت الناس كلّهم　　الى سعيد بن عبدالله بعرانا

* * *

**مقدار البيتين في معيارنا الحديث .**

١ ــ كلمة « خالقنا » واهنة ، مبتذلة في مثل هذا التعبير .

٢ ــ « الوجه المكفن بالجمال »ذات ايحاء متفاوت الموجات ، وهي شعريّة" غريبة .

٣ ــ « ركبت الناس كلهم » سوقيّة مضحكة .

٤ ــ « بعرانا » غير شعريّة

٥ ــ معنى البيت في جوّه العام يشكل صورة كاريكاتوريّه ، غاية

في احتقار الناس ، والسخرية منهم ، وفيه غفلة" يؤاخذ عليها الشاعر ، وهي تكمن في هذا السؤال :
أليس « سعيد بن عبدالله » من هؤلاء الناس ؟

* * *

بعدُ ، لكي نضع الشخص ضمن الاطار ، في لوحة ، نجد أننا ملزمون برسم الملامح المفصحة لعصر كثيف ، معقد ، عاش فيه المتنبي .

# عصـــره

علينا أن ندرس هذا العصر من ستة جوانب ، لا تقوم حضارة مـن الحضارات إلا على ركائزها ، وهي العلم ــ السياسة ــ الدين ــ الاقتصاد الاجتمـاع ــ الفـن •

١ ــ العلم : قطعت الترجمة شوطا كبيراً في العصرين الاول والثـاني في ظل حكومة العباسيين • وانهمر الإسلاميون علـى المترجمـات يوسعونها شرحاً ، ويكثرون من التعليق عليها ، الى أن أصبحوا في وضـع يسمح لهم بالتأليف ، فالابـداع •

خلا أن الترجمة لم تشمل الشعر ، والأدب ، والاسطوريّات ، نظراً الى وثنيـّتها ، ونظرا الى اعتداد العرب بأدبهم ، اللهم الا ما وافق ميولهم وذلك ما اقدم عليه ابن المقفـّع •

لكن العلم التطبيقيّ الذي يبنى على التتبع للجزيئات ، ثم الاستقراء ، فالاستنباط ، فالحكـم الكلـّي ، لم يكن مستوفى آنذاك ، ولنا في حيوان الجاحظ نماذج من هذا القبيل ، أقرب ما فيها الى العلـم وطرائقه ، حيـث بحـث الجـاحظ محللا ، مشـرحاً ، او مستعينا ببعـض الكيماويات ،

أمـّا في حقـل الطـب فقـد بلغوا فيـه شأواً عظيمـاً ، وتناولـوا أشيـاء الرياضيات ، والزّراعة ، والهندسة ، والصيدلة ، والفلاحة ، والحيل ( الميكانيك ) والفلك ، والجغرافيا بالبحـث ، والتأليف ، جامعين ميراث الشعوب الـى لغتهم ، كالفـرس ، واليـونان ، والاشوريين ، والبابليين ، والهنود ، والصينيين ، بـدأ بذلـك المنصور ، وبلغوا القمـّة في عهـد المأمـون •

وهنا لا بد من الاشارة الى الشعوب المميـّزة التي منحتهم عطاءها :

عن اليونان : اخذوا المنطق ، والفلسفة ، والطـب ، والهندسة •

عن الفرس : السير ، الحكم ، الموسيقى ، الآداب ،

عن الهنود : الحساب ، النجوم ، العقاقير ، الاقاصيص .

عن الكلدان والانباط : الفلاحة ، الزراعة ، السحر ، التنجيم ، الطلاسم .

عن المصريين : الكيمياء ، التشريح .

ومن كبار المترجمين عائلات بأسرها من السّريان مثل آل بختيشوع ، وآل حنين ، وآل سرجويه ، وآل ثابت الحرّاني ،

ومن الافراد ، حبيش الاعسم ، وقسطا بن لوقا البعلبكي ، والحجاج ابن مطر ، ويوحنا البطريق ، واسطفان بن باسيل ، وموسى بن خالد ، وابو عثمان الدمشقي ، وابو بشر بن يونس ، ويحيى بن عدي ، ومن الفرس ابن المقفع ، وآل نوبخث ، وآل خالد ، ومنكه ، وابن دهن الهنديّين وسواهم كثيرون .

**من الكتب المترجمة :**

الحجاج بن مطر ترجم المجسطي لبطليموس

قسطا بن لوقا ترجم المدخل في الطب ورسائل اخرى .

حنين بن اسحق ترجم النواميس

اسحق بن حنين ترجم منطق ارسطو

ترجموا بالمئات ، ولكن معظمها ضاع ولم يبق منها الا النادر كما اشرنا سابقاً .

**العلماء العرب وآثارهم :**

نبغ من العرب في هذه العلوم كثيرون مثل ابي يوسف الكندي الذي امتد زمنه من المأمون الى المتوكل ، الف ٢٣١ كتابا حسب رواية ابن النديم موزعة على ١٧ علماً والذي بقي منها قليل لا يصل الى العشرين منها اليهات ارسطو ، والمد ، والجزر ، واللّون اللازوردي ،

ورسالة في الموسيقى ، ومقالــة في تحاويل السنين .

والفارابي معاصر المتنبي ، فقــد ألـّف ١٢ كتــابا في المنطق ، و ٨ في السياسة والادب ، و ٢٧ في الرياضيات والنجوم ، والكيمياء ، والموسيقى، وأبحاث ارسطو .

وابو بكر الرازي صاحــب كتاب الحــاوي في الامراض ومداواتها ، والطب المنصوري ، ، والطبّ الملوكي ، والمرشد الشافي ، وبرء الساعة ، والجدري والحصبة ، وهو اول مكتشف زيــت الزاج ( حامض الكبريت ) وله فــي الكيمياء جهــود جبارة ، ولا ننســى جهــود جابر بن حيــان صاحــب الشخصيــة الاسطورية ..

أما مقدار ابن سينا وابن رشد في حقــل المعرفة فهما اشهر مــن أن يعــرّفا .

**لغــة العلم :**

لا يخفى ان تدوين العلوم النظرية كــان اسبق ، كعلوم الشــرع ، واللسان ، ورواية الادب ، وعندما بدأ العلماء يؤلفون ، اقتضى ذلك احداث الفاظ جديدة ، أو خروج الفاظ عن معانيها الاصلية ، وتعريــب الفــاظ كثيرة اخرى ، فأثــر ذلك فــي الادب أيّما تأثير ، نلاحظ هذا فــي شعر ابي نؤاس ، وابــي تمــام ، والمتنبي وسواهم ، وذلك مثل كلمات :

الصيدلة ، التشريــح ، الامزجــة ، الاخــلاط ، الحــار ، اليابس ، السوداء ، الصفراء ، في الطــب ، والحدوث والحركة ، والسكون ، فــي الفلسفة ، والمريد والسالك ، والانس ، والمشاهدة ، في التصوّف ، ومثــل البقدونس ، والمصطكي ، والبابونج ، والزرنيخ ، والمارستان ، والقولنج والملنخوليا ، والاصطرلاب ، والانبيق ، والبركار ، والهيولى ، من المعربات عن اليونانية ، والفارسيــة ، فالذي يرغب في الزيادة ، عليه ان يرجــع الى كتاب ابي منصور الجواليقي سنة ٥٣٩ « المعرب من الكلام الاعجميّ » ثم قد نمّى هذا النشاط مجالس العلم والمناظرة ، وإنشاء المدارس .

الى جانب ذلك نشطت علوم اللسان ، والشرع ، ففاضت مدينتنا البصرة والكوفة على العالم الاسلامي بكبار النحاة والصرّفيين ، والبلاغيين

والعروضيين ، والمفسّرين والمحدثين ، والقراء ، ورواة الشعر والأخبار والقصص ، والفرق الدينية ، والمذاهب الشرعيّة ، واصحاب الملل والنحل عممّت بلاد الخلافــة ، وامتدت الى الأندلس •

**ميزة خلفائهم :**

ــ المنصور في العباسين كعبــد الملــك فــي الامويين إداريّ بنّاء •

ــ هارون الرشيد أمبراطور الدنيا في ذلك العهد •

ــ المأمون عالم ، مثقف ، كحاكم جمهورية افلاطون •

ــ المتوكــل عمرانيّ ، بــذّاخ •

**سير السياسة في عهد العباسيين :**

يمكننا أن نقسّم عهــد الخلافــة العباسيّة الى اربع مراحل :

ــ في الأولى كان الخلفاء العرب أقوياء ، وكــان الوزراء الفــرس نافذين ، ولكنهم أقل قوة من الخلفاء • جرى ذلك في عهــــد السفاح ، المنصور ، المهــديّ •

لكن الفرس تآمروا على الخليفة « موسى الهادي » انتقاماً لابــي مسلم فاتفقوا مع أمــه الخيزران على قتله ، وتوليَة أخيه اللاهي ، اللّدن هارون الرشيد ، توصلاً الى الاستيلاء علــى الحكــم جملة ، لكن هارون الرشيد كان كعمر بــن عبد العزيز الاموي ، جادّاً في الحكــم ، ولكنــه صبــر وتغاضى عــن وزرائــه البرامكــة إلــى أن فتــك بهم وسحقهم •

ــ في الثانية قوي نفوذ الوزراء الفرس ، وضعفه نفوذ الخلفــاء العرب ، فقتل الفرس الخليفة الامين ابن زبيدة الهاشميّة ، وولوا أخاه المأمون ابن الجارية الاعجميّه ، وتقلــد منصــب الوزارة الحسن بن سهل الفارسيّ الاصل ، الذي تزوج المأمون ابنتــه

بوران بعرس لم يعرف له التاريخ مثيلا .
جرى الواثق مجرى اخيه المأمون .

- المرحلة الثالثة ، ضرب الخليفة المعتصم بن هارون الرشيد نفوذ العرب والفرس ، ومهّد لظهور عنصر جديد في السياسة العباسية وذلك بإلقاء الامر للعسكريّين الاتراك ، الذين بنى لهم مدينة « سرّ من رأى » الضاحية من بغداد على بعدها .

تحكّم الترك ، وسادت العسكريّة ، ومعنى ذلك أن الخلافة العربية الاسلامية بدأت تنهار قباتها امام الغطرسة الحمقاء ،فكان الترك يولون ويعزلون الخلفاء والوزراء حسب هواهم ، وقد يعاقبون الخليفة اذا قصّر في الدفع كما يعاقب تلاميذ المدارس ، او يجرونه عن سريره كالهرّ ، وربما جعلوه طعاماً للنار ، وقد يعينون الابن على ابيه ، كما فعلوا ساعة حرّضوا المنتصر على ابيه الخليفة المتوكل فقتله ، وجلس مكانه ، وقد سجّل البحتري لنا تلك الفاجعة بقصيدة رائية مشهورة .

- المرحلة الرابعة ، انهارت فيها خلافة بغداد عاصمة الدنيا آنذاك حسب قولة « بروكلمن » وتواثب الطامحون الى اقتطاع بلاد من جسم الامبراطورية ، فحكموها بالفعل ، وبقي الاسم لخليفة بغداد شكلا ، وهذا العهد سمّي بعصر الدويلات ، حيث عاش المتنبي ، وحلم ، واقتحم ، وأخفق ، وقلق ، وتعذّب .

كان هذا العصر مسرحاً للصراع بين العرب والاعجام من جانب ، وبين العدنانية والقحطانية من جانب آخر ، ومدار محاولات من الطالبيين للظفر بالحكم او ببعض الحقوق ، لكن الاهم من ذلك كلّه تلك الثورات التي كانت في ظواهر الامر سياسيّة ، تلبس ثياب الدين ، وفي اعماقها اقتصادية تشتهي الاكتفاء واشهرها :

- الثورة البابكية الخرّميّه في أول العصر الثالث .

ـ ثورة الزنج في اواسط الثالث •

ـ ثورة القرامطة في آخر الثالث واواسط الرابع وهذه التي انتمى الى مناخها المتنبي •

بين هذه الثورات الكبرى ، وثبات ثوريّة اندلعت ثم خمدت مثل حركة الزّط ّ او الجثّ ، وهم النور حول البصرة ، وتمرّد نصر بن شيث في شرق سوريا ، وخروج بعض الطالبيين في الكوفة •

هذه الثورات جميعها تهمّنا بمقدار ، لكن القرمطيّة التي تطعمت بعقائد باطنيّة ، نبعت كأخواتها من مذهب التشيّع ، وكانت تشكل خطراً على الاسلام من اساسه والحكم العربيّ بوجه عام ، وهذه القرمطيّة التي تنسب إلى رجل اسمه « حمدان قرمط » ومعنى التسمية معلّم سرّي ، كانت مزيجاً من تشيع ، وحلول هندي ، ومزدكيّة فارسيه ، ولها شراهة ساعرة الى الدم ، والفتك ، والسحق ، والسيطرة •

كان المتنبي قرمطياً أول أمره ، ولم يكن قرمطيّاً عاديّاً بل كان داعيةً ، ومناضلا • وسنقف على الوان هذه القرمطيّة في شعره بمختلف مراحله ، حتى بعد أن شفي منها ، ولكنها لم تشف منه ، بل كانت سبباً في مصرعه •

**الاجتماع :**

بنى المنصور ، الخليفة العباسيّ الثاني مدينة بغداد ، بعد أن وجد الهاشميّة ، أو الكوفة لا تفيان بالمطلوب لحاكم خلق لينشىء عرشا امبراطورياً ، وكانت بغداد تسمى من قبل طيفسون •

كانت بغداد كالمعدة الجبارة ـ والقولة لبروكلمن ـ تهضم كل ما يلقى اليها من الاطعمة ، لذلك امتزجت فيها الشعوب بتقاليدها ، وميولها ، وذكرياتها ، واحلامها ، فكان العربي ، والفارسي ، والهندي ، والصينيّ ، والافريقي ، والرومي ، والتتريّ ، والبربريّ ، وكثير سوى هؤلاء ، يشكلون خليطا عجيباً انصهر في مدينة واحدة ، لغتها العربية ، ودينها

الاسلام ، واسلوبها في الحكم خلافيّ وراثي ، يتخذ من المبايعة الشوريّة رمزاً للتذكار فقط .

في بغداد كثرت المدارس ، والمساجد ، والحدائق ، والحمامات ، ودور القيان ، والخمارات ، وزوايا الزهاد ، ومجالس العلم والمناظرة ، كما حفلت بالشطّار كخنافس اليوم والهيبيين LE GLOCHARDS

ولم تقل البصرة والكوفة عن بغداد كثيراً من حيث كثافة المجتمع ، وتعدد الخلائط ، ولكنهما امتازتا بانهما شكلتا اعظم مدرستين جامعتين في حضارة الاسلام والعرب . وكان للكوفة مركز هام بالنسبة الى التشيّع وما تبعه من انتفاضات وثورات ، وكان المتنبي أحد هذه المميّزات، كما كانت اختها البصرة اهم مركز عقليّ لشيوع البحوث الحرة ، والعقلانية في الاسلام ، اذ يكفي أن يكون مذهب الاعتزال ربا ، ونما ، وامتد من البصرة ، وسنجد أن في شعر المتنبي جذوراً اعتزاليّه ، كما تجد فيه صوراً للإنجرار الشيعيّ الموصول في عاصمة التشيّع الكوفة .

طغت على هذا العصر تقاليد الفرس في الثياب ، والاطعمة ، والاشربة ، والحفلات وكلها تتسم بالزخرف ، والمبالغة .

كما أثّر اليونان باسلوب التفكير ، والحديث ، والرومان بفن العمارة ، وساد المجتمع ترف ، وبذخ ، واستهتار ، فبرزت الى الساحة الاجتماعية كلمات الزندقة ، والمجون ، والشعوبيّة ، وتمجدت طبقات ، وتمرغت بالوحل طبقات ، شأن المجتمعات الملكيّة في مجرى تاريخ البشر(١) .

فهنالك طبقة الخلفاء ، وولاة العهود ، والأسر الحاكمة ، تليها طبقة الوزراء والولاة ، والعسكريين والقضاة ، ثم الزعماء ، فالعلماء ، والزهّاد، الى التجار والزراع ، والصناع ، والموالي ، فالعبيد والإماء ، واخيرا طبقة شذاذ الآفاق .

---

١ ــ راجع لهذا البحث : ضحى الاسلام للدكتور احمد امين وزكي محمود ، جزء ١ و ٢ .

الاقتصـاد :

عنـدما تتوخّى الظـّفـر بسياسـة ماليّةٍ لتلـك العهـود ، مضبوطة الدخـل والخرج ، فلن نظفر ، سواء بحثنا في كتب التاريخ ، او كتب الادب ، أو حاولنـا بمختلف الوسائـل . خلا أننا ندرك من تاريخ بغداد ، وتاريخ ابن خلدون ، وقدامه، وفي المتأخرين جرجي زيدان في كتابه التمدن الاسلامي شيئا قد يفيـد ، ويلقـي ضوءاً على مالية عهـد الخلفاء العباسيين، ولا يزيد عليه « لوبون » او « كاهن » في كتابيهما[1] .

بيد أنّ موقفاً أهم من دراسة تلك المراجع يغنينا بعض الغناء ما دام موضوعنا يقتضي فكرة عامة عن اقتصاد العباسيين . فمن ذلك اولاً سعة رقعة بلاد الخلافـة التي لـم تصـل امبراطورية في التاريخ الى مداهـا الرحب ، الذي شمل قارّتي آسيـا ، وافريقيا ، وقسماً من اوروبة ، على الرغم من كون الاندلس وما تبعها شبه امويـة .

الثاني تنظيم البريد ، وتسهيل طرق الجبايـة ، وازدهار التجـارة ، والزراعة ، والصناعـة .

الثالث اعطيات الشعراء ، والعلماء ، والمحظوظين . الرابع جفلاتهـم ومهارجهـم واعراسهم ، وترفهـم عنـد الملبس ، والمآكـل والمشـرب . الخامس التفنّن الملحوظ في بناء القصور ، والمساجد ، والحدائق ، والبرك، السّادس كثرة جيوشهم واقتضاء ذلك كثـرة الانفـاق عليهـا ، كـل ذلك يشير الى عظمة الدخل ، والإنفـاق .

* * *

مراجع لهذا البحث كتب :

تأريخ الامم الاسلامية : الشيخ محمد الخضري .

---

١ ــ الدكتور جوستاف لوبون : حضارة العرب

٢ ــ كلود كاهن : تاريخ الشعوب الاسلامية

التمدن الاسلامي : جرجي زيدان .

تاريخ الشعوب الاسلامية : كلود كاهن

**الديـن :**

في مطلع عهد الخلافة العباسيّة ، قال المنصـور لصديقه مالك بن أنس ( ٧٢٠ ــ ٧٩٢ ) : « لم يبق لهذه الامة أعلـم منـي ومنك ، أنا شغلتني امور الحكـم ، اما انت فعليـك ان توطىء للناس بكتاب يعلمهم امور دينهم »

من هنا ، ألّفه الامام مالك كتابه « الموطّأ » في الحديث والشرع ، وتكرّس به أول مذهب في الاسلام . لكن الامام الأوزاعي اللبنانيّ او الشامي آنذاك ، كان قد سبقه الى المذهبيّة بما يقرب من عشريـن عامـا تقريباً ، لكن مذهبه شاع وانطفأ لان السياسة لم تسانده .

وبعد مالك شاع مذهب ابي حنيفة ( ٦٩٩ ــ ٧٦٧ ) الـذي دعـي المذهب العراقي ، كما دعي مذهب مالك بالحجازيّ ، والاوزاعي بالشاميّ ، ويعد مذهب ابي حنيفة اوسـع المذاهب الاسلاميّة انتشاراً ، نظـراً إلـى أخذه بالعقـل والتأويـل ، ولسعة اطلاعه ، وعظمـة مدرسته وتلاميـذه اولئك الذين منهم الامامان محمد وابو يوسف صاحب كتاب « الخراج » ثم تلاهم الامام الشافعي صاحـب كتاب « الام » ومخترع علم اصـول الفقـه ( ٧٦٧ ــ ٨٢٠ ) وبعده الامـام احمد بـن حنبل صاحب كتـاب المسند ( ٧٨٠ ــ ٨٥٥ ) ورأس المحافظين من أئمة المسلمين .

لا يفوتنا في هـذا الصدد أن نلتفت الى ما يجري في تيار التشيّع الخطير ، فقد ظهرت مجموعة فقهيّة للإمام زيـد ( ٧٤٠ ) وشاعت تعاليـم الإمـام جعفر الصادق ، وهي بمجملها تشكّل طريقاً علميا للبحث ، وكميّة صالحـة للقانون ، وموجة حارة للإيمـان قال عنها « كلود كاهن » مؤلف تاريخ الشعوب الاسلامية : « انها كانـت ذات منهـج استفادت منـه أوروبة في العصر الوسيط . »

إلى جانب علم الفقه شاعت الفرق الدينيه وهي التي على اساسها نبع علم الكلام او التوحيد ، وهو لاهوت المسلمين ، فامتدت فرق المرجئة ، والقدريه ، والجبريّه ، والاعتزال ، وابنته الاشعرية ، بعد ذلك ، وهي فرق نشأت في مناخ قضية الخلافة وشجونها ، وتميّزت المعتزلة من بينها بأنها حملت لواء العقل في الاسلام ، وهي فرق سنجد لها اصداء في شعر صاحبنا ابي الطيب .

أمّا علوم مصطلح الحديث ، والتفسير ، والقراءات فقد اخذت طريقها الى عالم الشيوع ، والنضج .

في هذا العصر ، لم يعد الاسلام دين الفطرة ، ولا دين التسليم ، بل دخل الشك في عقائده ، ودسّ الدساسون ما بلبل مناهجه كوهب ابن منبه ، وكعب الاحبار ، واختلطت به عناصر من الثنوية ، والفلسفة ، والنصرانية ، واليهودية ، والهندية ، ولمعت كلمة الزندقة لتصور لنا فئة من هذا العصر تظهر شيئاً وتضمر آخر ، ولجأ العلماء إلى الجدل اللاهوتي المسيحيّ ، والمنطق الارسطي للبرهان على وجود الله .

**راجع لهذا البحث :**

التمدن الاسلامي : لجرجي زيدان

تاريخ بغداد : للخطيب البغدادي

الكامل : لابن الاثير

تاريخ الشعوب الاسلامية : كارل بروكلمن

تاريخ الشعوب الاسلامية : كلود كاهن

الملل والنحل ، والفصل للشهرستاني وابن حزم

# الادب

صنع أبو نؤاسٍ شعر هـذا العصر ، حرّيةً ، وتحدّياً ، وموقفاً ، ومتعـة •

وصنعه الجاحظ ثقافةً ، وجمـالاً ، وسخرية ، وايمانا ، ومتعة •

كان الاجدر بنا أن ندرس الفـنّ في عصر هو القمة بيـن عصـور الحضارة العربيّة ، ولكـنّ فن العرب ، والاسلاميين ، كـان الشـعر ، والنثر ، وخطّهما ، والمدمكة فيهما وفـي العماره ، والغناء والعزف •

**الشعر :**

١ً ــ نسل النؤاسيّ خيوط نوله ، فنسج الشكـل الشعريّ على منوال الاقدمين ، ثم دعته ظروف ثقافته ، وذوقه الموسيقي ، إلى ان يتخطى المألوف ، شأنـه فـي مختلفه شؤونه ، استجابـة للحيـاة التي وجدها فـي اللهو ، الحـرّ ، الواعي ، فأنشـأ قصيدة وربمـا اكثـر ، خـرج بها علـى مألوف القافيـه الواحدة ، ولكنـه لم يهمل الوزن ، والديوان يحفظها كعنوانَ على الموشحة الاولى في تأريـخ الشـعر العـربي ، ولعـلّ سواها ، ما جـرى على نسقها قـد ضاع •

« راجع الديوان ، وكتابنا ، ابو نـؤاس بيـن التخطـي والالتـزام » •

أما أغراض الشاعر فكانت ثورة على التحجّر في أشـياء البادية ، والصرفة عن مدينة بغداد ، ودعا الناس الى الاخذ بما يقتضيـه أمر الحضارة ، وجمال الحياة ، وذوق العصر •

كان له موقفان ، منافسـة الشعراء ، التقليديين ، وابتداع جريء لاطلاق حريـة العاطفـة وحـب كـل جميـل •

أحب الكلمة فغمسها في الرونق الشعريّ ،
واحب الموسيقى فكان ناقر عـود ،
وهام بالطبيعة فجرى الى الصيد في مداها .

ورغب في الانثى ، ففشل ، وبالغلام فزهد ، وبالخمرة فوجد فيها تعويضاً عن الجنس ، فاذا بها تتصعّد وتصبح اقثاه الكبرى ، ثم ارتمى في حضن الله أخيراً ، تاركا كل شيء الا تلاوين موجه في بحر فردوسيّ الرعشة ، يومىء الى شواطيء لا حدّ لها .

أسْتند مدرسة « عصابة السوء » فكان منها نجباء كثر ، منهم الحسين بن الضحاك ، ومسلم بن الوليد ، وهذان برعا في الوصف المبدع ، الذي نفر من رتابة الوضوح ، وتخلىّ عن بعض الشكليات الصدئة ، فكانا توطئة لابي تمام .

٢ ـ ابو تمام استاذ المدرسة الثانية في عصر العباسيين ، ادخل المنطق ، والفلسفة والملحميّة الى الشعر واسرف ، بينما بدأ النؤاسي بذلك وتلاطف ، وكثّف العبارة ، وتقلد وشاح الاستعارة ، واخرج التعبير من التصريح الى التلميح ، بينما عاد تلميذه البحتري الى ملاين الغنائيّة ، فمزج الطّلليّة بنواعم الحضارة ، فكان راقصا يتخايل ، وغصوناً تتمايل ، ولحونا مخملية مُتْرَعة الالوان .

٣ ـ وخرج ابن الروميّ على سائر تقاليد القدماء ، الا الشكل ، فتأثر بنثريّة العصر الجاحظي ، فجاء شعره مواكبةً لتلك الرّوح ، معماريّا ، سهلا ، بسيطا ، لا يزخرف او يرصع بل يتابع ، ويتمنطق ، ويستوفي ، ولكنه كان نسيج وحده في التصوير بالكلمة ، فريداً في شعر العرب والعالم .

« اقرأ كتابَيْنا عنه ، ابن الرومي في الصورة والوجود ،

وابن الرومي ملامح وأبعاد • »

٤ً ـ ضجت الدنيا بعده بالمتنبي ، الذي لم يحدث فناً جديداً في الشكل الشعري ، او موضوعاته ، لكنه رفع كل موضوع ، بأيّ تعبير الى القمّة ، وكانه زرع اللّهب ، والريح ، والتّمرّد في كل قافية ، ساحباً وشاح ابي تمام ، أمينا على نسيجه ، لكنه حوّله الى طيلسان جرجره على مساحب النجوم ، متحديا الاعاصير ، والصواعق ، وحنْدس المقادير •

**النثر :**

١ً ـ بدأ ابن المقفع يكتب سطوره بالاسلوب المساوي ، المباشر ، مستفيداً من إطلالة سالم بن عبد الله مولى هشام بن عبد الملك ، وتلميذه عبد الحميد ، فاذا به يعدل عن جلبة الخطابة العربية ، وجلال القرآنيّة ، وحلاوة التقطيع العبحميدي ، الى سهله الممتنع •

٢ً ـ كان لا بد من جاحظ معلّم ، موسوعي ، فالعصر يقتضي عبارة تصور ذروته ، فاذا بصاحبنا ينطلق من واقع المجتمع ، ويغزل نسيجه ديباجة لم تعرف العربية صنْوها مدمكة جمالية لا تذبل غصون ايكها بحال •

الجاحظ أول اديب ذي موضوع ، ديموقراطيّ من الشعب ، تخلى عن ارستوقراطية ابن المقفع الى ادب الحياة الشاملة ، وغاص في جوانب الاشياء ، مستوفياً الكلام عنها ، مجرياً عناق الشهوة بين العقل واللهو ، بين العالم والفنان ، غير متخلّ عن شؤون المعرفة كلّها آنذاك ، فاذا به في التربيع والتدوير مهندس رياضيّ ، وفي الحيوان موسوعيّ تجريبيّ ، وفي البيان ناقد موضوعي ، وفي البخلاء نادرة العصر رصّافه جماليّ ، وفي كل ذلك لاهٍ يعبث ، وفيلسوف يسخر ، وقبل ذلك وبعده يضحك في وجوه الناس

ليرضـــي البلاد ، والعباد ، وخالق الاكوان .

٣ ـ ابن العميـــد ، الشاعر الناثر ، الذي نظر اليه المتنبي فصوره عنواناً على ثقافة العصر ، وكانمـا جمعـت فيـه مميّـزات المفكر النموذجيّ آنذاك ، فكانت ثقافته ترفد ذائقته ، ليعطي نثراً مزخرفاً ، ممسوقاً ، تلتمـع فيـه السجعات والفواصـل ببراعة المتأنق الذي لا يبرز صفنته وتكلفه للقول ، الى ميـزة الناقـد الحصيف الذي تتلمذ عليه الصاحب بن عباد خصيم المتنبي ، وألدّ كاسفي شمسه محاولا ، مخفقا .

ابن العميـد قمة النثر الغنيّ الذي عكس ظروف الحيـاة المترفـة ، المنسقة ، المكثفة ، مؤذناً بتحول النثر الى الجانـب الآخر من القمة ، حيـث عني بالقوالب ، دون الاهداف ، والتزم الشكـل مقصّراً عن امتداد المحتوى الى غاية[١] .

* * *

**الفنون ، والمنازع**

قال المتنبي شعراً في مختلف الاغراض التي قال فيها شعراء قبله ، فهو لم يفترع جديداً في الموضوع ، والطريقة ، والشكـل ، فالوزن ما زال مقتطعاً من بحور الخليل الفراهيديّ ، والقافيـة برويّها تجري على سنن سابقيه ، والمدح ، فالهجاء ، وما يتخللها من شعر الحكمـة ، وملامـح الوصف ، وما كان يبدأ بـه من غزل تقليديّ ، أو اتخذه وسيلة للبـوح عمّا يعتمل في وجدانه من جراء الصدام مع الناس ، والاقدار ، وما يلوح لرؤيته في البعيـد القصيّ ، كـل ذلك يسري على مقاييس القدماء ، غير أنّ شيئاً جديداً ، غريباً ، يشبه لذْع إبر تذروها الريح في هبوبها ، ويذكّر

---

١ ـ يراجع كتاب تاريخ الادب العربي في العصور العباسية : لبطرس البستاني
تاريخ الادب العربي في العصر العباسي : للسباعي بيومي
عصر المأمون للدكتور رفاعي

بوثبة الخمر ساعة يحتدم أوارها فـي الدّم ، وبعرام المجد على صهوة مهر يحـاول أن يقدح بحافره على صدور النجوم ، ويلوح آنا بموقف المطل على جبل يجاور السماء ، ويتأمل وفود الاجيـال تتحدر على السفوح ، وتارة كمن يداعب أنثى على سرير زئبقيّ يكاد بجداوله المراحة يروي عـروق الكـون ، شيء من هـذا ، وآخـر ليس مـن مدركات القلم ، يبـوح بـه شعر المتنبي .

المتنبي زاد فـي شعر المدح والهجاء والرثاء والغزل زيادةً .
لم يكن همه ملتفتاً الى الشكل ، والاغراض .

ـ فما هي تلك الزيادة ؟

ـ لعلّها التي تلوح فارقاً بيـن الحصوة والنجمة ، بيـن العشبة والشـجرة ، بيـن البحيـرة الأوقيانوس ، بيـن البشـري والآلهـيّ .

إنها المفاجأة ـ الغرابة ـ الدهشة ـ الغيـب

لكنّ الدارس الأكـّاديميّ ملزم بالجري على سنن مرسوم ، فالمتنبي فخر ، ووصف ، ورثى ، ومـدح وهجا ، وتغـزّل واشتكـى ، فبمـاذا تَستبين لنا ملامح شخصيّته ، لنَنـْفـُذ الى أغواره ، وأبعاده ، إن قدر لنا أن نتناول بعض عناقيد من ثريّاه الفلكيّه ؟

في الفخر ؟ نعم ، حيث « أناه » العليـا كما يقول السورياليّون .

في الحِكَم ؟ أجل ، ساعة وضع كيانه في اطار العقـل ، ثم امتـدّ على اداهير الوجود فاطلع لنا حكماً على سير الزمان في الحياة .

أما المدح فكان وسيلته إلى التعاطي مع الآخرين ـ وهم عنه غرباء ـ ـ وهو ملزم بزرع شخصه في مجتمعهم ـ وسبيله إلـى فرض ظلّـه ، ورسـم نموذجه . والعبث بصور الممدوحين ، توصلاً الى صوته نفسه . الى الهجاء الذي كـان يفضح موقفه من النـاس ، مكانهم ، زمانهـم ، مجتمعاتهم .

أمّا عندما تضج الانثى الصغرى ، والانثى الكبرى ، في نبض قلبه ، وعلى مرمى غزل الشعراء الذين سلفوا ، او عاصروا ، بل هـو نوع مـن الاستلاب ، أخـذ الانثـى من بيـن ضلوعه ، ثـم فكـّكها ، وطحنها ، وعجنها ، ثم مدّها غميسةً بكـل لا يدور إلاّ في فلك عريه ، وشهوته ، وتناسله من ذاتـه .

وبما أنّ تبيان مراحله مفروض على دارس شعره ، فليكن لنا بـدء بملحـه .

# مراجع من حياة المتنبي


١ ـ وفيات الاعيان لابن خلكان .

٢ ـ معجم الادباء ( ارشاد الاريب ) لياقوت الحموي .

٣ ـ معجم الشعراء للمرزباني

٤ ـ الفخري لابن الطقطقي

٥ ـ مع المتنبي لطه حسين

٦ ـ ابو الطيب المتنبي « لبلاشير »

٧ ـ دائرة المعارف : بطرس البستاني

٨ ـ دائرة المعارف : فؤاد البستاني

٩ ـ مقدمة ديوانه : للبرقوقي

١٠ـ تاريخ الادب العربي : لجرجي زيدان

١١ـ تاريخ بغداد : للخطيب البغدادي

١٢ـ نزهة الالباء في طبقات الادباء لابن الانباري

١٣ـ الانساب : للسمعاني

١٤ـ خزانة الادب : للبغدادي

١٥ـ حياة المتنبي : لمحمد محي الدين عبد الحميد

١٦ـ الاعلام : للزركلي .

١٧ـ تاريخ الادب العربي : لكارل بروكلمن

١٨ـ الادب في آثار اعلامه : ليوسف اسعد داغر

١٩ـ الرؤوس : لمارون عبود

## مجـــلات

المقتطف : عدد ٨٩ من ٢٣١ المتنبي ونسبه العلوي" لوديع تلحوق .

الرسالة : عدد ٦٧ من ١٤٩٢ نبوءة المتنبي لمحمود محمد شاكر .

**الرسالة : عـــدد ٤ من ٨٠٤ و ٨٤٨ الفصل في نبـــوءة المتنبي لعبـــد المتعال الصعيدي" .**

الرسالة : عدد ٤ من ١٢٩٣ دين المتنبي لسعيد الافغاني" .

الحديث : عدد ٩ من ٥٧٥ نشأة المتنبي لسامي الكيالي .

**الحديث : عدد خاص من « الحديث » عن المهرجان الالفي للمتنبي فيه:**

**المتنبي وسجنه : لفائز الخوري**

ابو الطيب رسول العروبة : **لأمين الريحاني**

# مخطط المدح في شعر المتنبي

**كلمة مدح :**

(أ) المدح مكان الملحمة في الشعر العربي ـ المدح والاسطورة ـ تأكيد الشمائل ـ النموذج والفنان ـ الشاعر والممدوح ـ الرسوليّة من وراء المدح ـ العبقريّة والعالم •

(ب) روافد مدح المتنبي ـ الإمام الباطني ـ الشيعي ـ القرمطي ـ وحي عصر الدويلات ـ المغالبة السوفسطائية ( الميكياڤيليّة ) حاكم جمهورية أفلاطون المثالي ـ حاكم المدينة الفاضلة الفارابيّة ـ الانسان الكامل عند الصوفيّة ـ الفراغ والتعويض ـ ذات الشاعر والمنطلق •

وحي عصر الدويلات ـ المغالبة السوفسطائية ( الميكياڤيليّة )

(جـ) مدائحه والفطنة ، والثقافة ، والخبرة النفسيّة ـ عناصر ارسطيّة ـ فيثاغورية ـ افلاطونية ـ سوفسطائية ـ حلوليّة هندية ـ مسيحية ـ قرمطية ـ ممدوحوه والشعوبية ـ والعروبة ـ الممدوح والفرع والمطلقية ـ ممهد للميكياڤيلية ، والنّيتشويّة •

(د) نماذج وممدوحون :

الممدوح في صورة فارس ـ بدر بن عمّار ـ ( لاميّة الأسد )
الممدوح في صورة صوفي ـ الأوراجي ـ ( الهمزيّة )
**الممدوح الكامل الانسانيّة ـ سيف الدولة ـ ( الحدث الحمراء )**
الممدوح الداهية الماكر ـ كافور ـ ( أليائيّة )
الممدوح الفيلسوف ـ إبن العميد ـ ( الرائيّة )
الممدوح السياسي الحاكم ـ عضد الدولة ـ ( الداليّة )

وفي مدائحه بدر بن عمار ، والاوراجي ، وسيف الدولة ، تظهر آثار مطيّته الباطنيّة اكثر من مدائحه الاخرى .

**مراجع :**


١ ـ الديوان شرح البرقوقي

٢ ـ مجلة الثقافة عدد ١٧٠ و ٨ .

٣ ـ المتنبي وسيف الدولة : أحمد أمين

٤ ـ الوساطة بين المتنبي وخصومه : الجرجاني

٥ ـ مع المتنبي : طه حسين .

٦ ـ الروائع : فؤاد البستاني عدد ١١ و ١٢ .

٧ ـ مجلة الرسالة : نعمة فؤاد ـ المتنبي ، وكافور عدد ١٨٧ ص٧٠٥

٨ ـ السياسة الاسبوعية : احمد امين ـ المتنبي وسيف الدولة عدد ١٧٠ ص ٨


* * *

# المدح [1]

عاش المتنبي كمن يمشي في دروب أفسحت له ، لكنه كان رغم تعثّره ، وضناه ، لا يحوّل عينيه عن الافق ، حيث ارتسم أمامها شكل مارد .

ذلك المارد الجبار ، لم يعش على الارض ، بل كان مخلوقاً ذهنيّاً للشاعر ، نسجه من طموحه ، والخطوط التي رسمتها الشيعة للامام المعصوم ، والصوفيّة للانسان الكامل ، وجمهورية افلاطون للحاكم الفيلسوف ، والقرمطية للقائد المتألّه ، ومعاصره الفارابي لرئيس المدينة الفاضلة .

كذلك لم تغب عن باله شخصيّة الرسول الكريم ، وعيسى وموسى ، والاسكندر ، وارسطو ، وجالينوس وسواهم ، إلى صور اثبتها فى أعماقه مرشدوه الباطنيون ، القرامطة أول أمره .

على أن ظروف عصره وأقدارها ، جسّدت في باله الامير ، الحاكم ، والمخلّص ، ليوحّد بلاد العرب ، ليحكم العالم ، صنو ما فعل « مكياڤلّي » لأميره الإيطاليّ بعد ذلك .

وقد يتمادى المارد ، وينتفض الشبح ، فاذا به يتألّه ، ويمهّد لسوپرمان « نيتشه » طريق التفوق على ذاته ، والعالم ، وإبداع الانسان الجديد .

لم يتحقق حلم المتنبي ، ولم تجد الصورة لوحتها أو إطارها ، فصبّ نموذجه في مدائحه ، وفخره ، ولعلّه وجد مثاله متوفراً في سيف الدولة اكثر من سواه ، وببدر بن عمار قبْله ، ثم نقل التمثال وأجرى عليه إزميله،

---

١ ــ لفظة مدح تتألف من ميم الاطياق ، ودال الاشباع ، وحاء الحلق ، فهي صورة للتمادي ، والتملك ، والحب .

وحوّر في قالبه ، ليصنع منه بطلا كعضد الدولة ، وفيلسوفا كابن العميد ، وصوفياً كالأوراجيّ ، والهياً كأبي طاهر القرمطيّ ، فجاءت مدائحه بمجموعها تشكل ملحمة متعددة الفصول ، والاوزان ، والابطال ، وبذلك يكون المتنبي قد عوض بالمدح شعبه العربي عن الملاحم ، ولا يضير أن تبرز شخصيته في مدائحه ، فعناصر الملحميّة متوفرة بشكل فيّاض في معظم تلك القصائد المدحية المجلجلة الجليلة .

عند تصفحنا ديوانه ، نجد أنه أعطى ما يقرب من المائة والسبعين قصيدة تخللتها مقطوعات بعضها من بيتين الى الاربعة ، يحتل المدح فيها معظمها ، ويجيء بعده الهجاء ، والرثاء ، وشعر الشكوى . أما الفخر ، والوصف فهما مبثوثان في ابياته وقصائده ومقطّعاته .

**من هم ممدوحوه ؟**

في الدرجة الاولى سيف الدولة ، يليه بدر بن عمار ، فأبو العشائر الحمداني ، فالحسن بن طغج ، فعضد الدولة ، فكافور ، وابن العميد .

له في سيف الدولة ما يقرب من نصف الديوان ، أي ثمانون قصيدة ، ومقطعة . وفي بدر اثنتان وعشرون ، وفي ابي العشائر احدى عشرة ، وفي كافور ثمانٍ ومثلها في عضد الدولة .

أما الباقون مثل ابي علي الاوراجيّ فله فيه قصيدتان ، وفي التنوخيّين ما يزيد على سبع ، وفي ابن العميد خمس ، والبحتري الحفيد ثلاث ، والعجلي ثلاث ، والانطاكي مثلها وقريب منها في ابي شجاع فاتك بمصر .

ظفرت قافية اللاّم من شعره بأوفر نصيب إذْ له على رويّها ست وأربعون قصيدة ، تليها الميم بثنين واربعين ، فالدال بستّ وثلاثين ، فالراء بواحدة وثلاثين ، فالباء بثلاثين ، فالنون بأربع وعشرين .

وتقلّ في قوافيه الذّال ، والزّاي ، والشين ، حيث أن له قصيدة واحدة في كل منها .

ـ فماذا يعني هذا الاحصاء لناقد ابي الطيب ، وايّ ناقد ، لأي شاعر ؟

ـ يعني أن طبيعة بعض الحروف تصلح من الجهة الفنية للتعبير عن مواقف لا يصلح سواها لها ، فالرسم فنّ يرسم الدقائق واللّطائف ، بينما النّحت يجسّد الفخامة والضّخامة ، ولو أننا أحصينا قوافي الشعر العربي قاطبةً لبان لنا أنّ ما جرى عليه المتنبي لم يتنكر من كانوا قبله من الشعراء ، والذين جاؤوا بعده ، فحرفا اللام ، والميم لهما موسيقيّة خاصّة تزيد على ما لحرفي الباء والدال إذ هما أعنف ، واقوى ، بينما الضاد ثقيلة ، والشّين ذات خشيش دخِن ، والزاي والذّال لهما تشاز يجعلهما صالحين لصوره ، ومعانيه الهجّاءة ، أو العابثة .(٢)

## سيف الدولة هو المتنبي في نموذجه الاعلى

من الغريب أن شعر ابي الطيب في سيف الدولة ـ رغم حضارة بني العباس ، وميراثها الضخم لعصر الدويلات ـ يمثل في ملمحه أمير حلب ما مثّله هومير في إلياذته واوذيسّته قبل المسيح بما يداني الالف سنة ، إذ عرض نماذج من ابطال اليونان ، لولا هومير لكانوا منسيّين ، ولولاهم لخلق هومير مثلهم ليضعهم حيث شاء في ملحمتيه .

الأسطرة الهوميريّة ، والمبالغة المتنبّوية تجْريان على نسق متقارب . والملامح تكاد تكون منسوجة على نول واحد ، فلماذا ؟

لأن عبادة الفرد في العصرين ، واكتساب الفرد صفة غيبيّة بفعل الأوّليّة الفطرية لدى اليونان ، وبسبب الباطنيّة الشيعيّة لدى المسلمين ، هي التي رسمت تلك الملامح المتشابهة لدى ابطال طروادة ، وممدوحي المتنبي ، مع فارق أن ابطال هومير نشأوا في جاهليّة اليونان ، وممدوحي

٢ ـ من اراد تقصي دلالات الحروف واسرارها ، ورموزها فما عليه الا الرجوع بصبر واناة الى مقدمة ابن خلدون ، وشعر ابي العلاء ، وعلم التجويد ، وفقه اللغة ، واصطلاحات السوريالية .

ابي الطيب ظهروا إبان ازدهار حضارة الإسلام .

تقول الالياذة : « إن الآلهة ثايتس » دهنت جسم ولدها « أخيل » بمرهم يصدّ عنه خطر أيّ سلاح ، الا موضعاً دقيقاً في كاحله لم يلحق به دهن ، ويقول المتنبي في مدح سيف الدولة :

« يحيد الرمح عنك وفيه قصدٌ
ويقصر أن ينال وفيه طولُ »

وهنا نجد أن مبالغة المتنبي أقوى لانها تجعل للرمح انسانية تخشى وتهاب ابداً ، بينما مناعة اخيل جاءت سحريّة ، تعتمد على مادة من الأصباغ ، لو انها زالت لوقع البطل في حضن الموت .

كذلك يتّفِقُ البطلان في انهما سبب الانتصار لجيشهما ساعة الإنكفاء ، والتعرض للإنكسار ، فعندما احتدم اخيل لمصرع صديقيْه « أجاكس » « وفطرقل » ولفقدانه درعه السحريّ ، كرّ وقتل هكتور ، وانتصر بعد ذلك اليونان على الطرواد ، أما سيف الدولة فهو في شعر ابي الطيب كما تصوره الأبيات التالية :

الجيش جيشك ، غير أنك جيشه
في قلبه ويمينه وشماله[٣]

* * *

إذا الدولة ، استكفت به في ملمّةٍ
كفاها فكان السيف والكفّ والقلبا[٤]

* * *

اذا العرب العرباءُ رازت نفوسها
فأنت فتاها والمليك الحُلاحِل[٥]

* * *

يكلف سيف الدولة الجيش همّه
وقد عجزت عنه الجيوش الخضارمُ[٦]

---

٣ ـ الديوان ج ١ ص ٤٣
٤ ـ الديوان ج ٢ ص ٥٧
٥ ـ الديوان ج ٢ ص ٩٥
٦ ـ الديوان ج ٢ ص ٢٦٩

بِضربٍ أتى الهامات والنّصر غائب
وصار الى اللّبّات والنّصرُ قادم[٧]

* * *

صدمتهمْ بخميسٍ أنت غرّته
وسمهريّته في وجهه غمم[٨]

* * *

رفعت بك العرب العماد وصيّرت
قمم الملوك مواقد النيران[٩]

* * *

(أ) سيف الدولة هنا ، جيش الجيش ، يحميه ويوفر له مجد الانتصار ، وهو للدولة عقلها ، وجيشها ، ومثلها الاعلى ، كذلك فهو رجل العرب أجمعين ، ومعقد آمالهم في سبيل المجد ، ولكنه اذا حاول أن يحمّل الجيش تبعة أمانيه ، ومسؤولية خططه ، فإن جيوش الارض تعجز عن ذلك ، بينما هو وحده له القدرة على تحقيق الغايات ، وهو بطلٌ ساعة تصل سيوفه الى اللّبات فيتمّ الانتصار الذي لا يتمثّل بوصولها الى الرؤوس فقط ، فاين منه زوش أو جوبيتير ؟

(ب) أمّا الصور السّيف دوليّة ، عن ثباته في مستنقع الموت ، وتجاوزه المألوف من البطولات ، فالمتنبي يرسمها كما يلي :

وقفت وما في الموت شكٌّ لواقفٍ
كأنّك في جفن الردى وهو نائمُ[١٠]

تمرّ بك الابطال كلمى هزيمة
ووجهك وضّاح وثغرك باسمُ

---

٧ ـ الديوان جـ ٢ ص ٢٧٥
٨ ـ الديوان جـ ٢ ص ٣٠١
٩ ـ الديوان جـ ٢ ص ٤٣٣
١٠ـ الديوان جـ ٢ ص ٢٧٣

تجاوزت مقدار الشجاعة والنّهى
الى قول قوم أنت بالغيب عالم

**وقوله :**

وربّ مريدٍ ضُرّهُ ضرّ نفسه
وهادٍ اليه الجيش أهدى وما هدى(١١)

تظلّ ملوك الارض خاشعةً له
تفارقه هلكى وتلقاه سجّدا

وَصول الى المستصعبات بخيله
فلو كان قرن الشمس ماءً لاوردا

* * *

وتضحي الحصون المشمخرات في الذرّى
وخيلك في أعناقهنّ قلائدُ(١٢)

**من طرازه :**

فتى الخيل ، قد بلّ النّجيع نحورها
يطاعنُ في ضنك المقام عصيبِ(١٣)

يعاف خيام الرّيط في غزواته
فما خيمه إلاّ غبار حروب

فهل في بطولات الالياذة والاوذيسّة ، أو في آلهة الاولمب من يضارع بطل المتنبي الممثل في سيف الدولة ؟

(جـ) ثم إن كرم سيف الدولة يتخطّى كرم الناس المعهود ، وأنّه لا صفة له ، إلاّ وهي تعبر من المعلوم الى المجهول ، إنها التوع ، وباقي

---

١١ــ الديوان جـ ١ ص ١٨٦
١٢ــ الديوان جـ ١ ص ١٨٢
١٣ــ الديوان جـ١ ص ٣٨

المكارم فروع ، وأجزاء :

وتحيي لـه المال الصوارم والقنا

ويقتل ما تحيي التبسّم والجدا[14]

اذا سأل الإنسان أيّامه الغنى

وكنت على بُعْدٍ جعلناك موعدا[15]

تركت السُّرى خلفي لمن قلّ مالُه

وأنعلت أفراسي بنعماك عسجدا

* * *

إذا حاز مالاً فقد حازه

فتىً لا يُسرُّ بما لا يَهَبْ[16]

(د) سيف الدولة نموذج اعلى للبطل في صورة عارف ، ثقفٍ ، بعيد النظر ، حتّى لكأنّه أوتي مفاتيح المجهول ، وانفرجت أمام أنامل عقله مغالق القدر :

عليم بأسرار الديانات واللُّغى

له خطرات تفضح الناس والكتبا[17]

* * *

ضَروب باطراف السيوف بنانه

لعوب بأطراف الكلام المشقّق[18]

---

14ـ الديوان جـ ١ ص ١٨٧
15ـ الديوان جـ ١ ص ١٩٤
16ـ الديوان جـ ١ ص ٧٢
17ـ الديوان جـ ١ ص ٤٣
18ـ الديوان جـ ٢ ص ٤٦٣

ويمتحـــن النـــاس الأميــر بــرأيــه
ويفضي علــى علـمٍ بكــلّ ممخرق[19]

* * *

رأيتك مَحْض العلم فـــي محض قــدرةٍ
ولو شئت كــان الحلــم منــك المهندا[20]

* * *

هنيئــاً لاهــل الثغــر رأيـــك فيهـــم
وانــك حــزب الله ، صــرت لهم حزبا[21]

وانّــك رعــت الدهـــر فيهـا وريبـــه
فــان شــك فليحــدث بساحتها خطبـــا

* * *

ذكـــيّ تظنّنيـــه طليعـــــة عينــــه
يرى قلبــه في يومــه ما تــرى غــدا[22]

* * *

ولكــن تفــوق النــاس رأيــاً وحكمــة
كمــا فقتهــم حــالا ونفسـا ومحتـــدا

* * *

يــدقّ علــى الافكــار مــا انــت فاعــل
فيتــرك مـــا يخفــى ويؤخـــذ ما بــدا

* * *

---

١٩ـ الديوان جـ ٢ ص ٤٦٦
٢٠ـ الديوان جـ ١ ص ١٩٠
٢١ـ الديوان جـ ١ ص ٤٤
٢٢ـ الديوان جـ ١ ص ١٨٧

فأيّ إنسانٍ تصعّد متألّهاً في شعر هـذا الرّائي الكبير ؟
وارتسم برزخاً بين العاديّ ، والمعجز ؟

(هـ) بطله سيف الدولة يوحي اليه بالحبّ ، فيصعّده ، ويصبح معشوقه يملك عليه وجوده :

أأحبّه ؛ واحب فيه ملامة
إن الملامة فيه من اعدائه(٢٣)

* * *

مالي اكتّم حبا قد برى جسدي
وتدّعي حب سيف الدولة الامم(٢٤)

* * *

يقاتلني عليك الليل وجدا
ومنصرفي له أمضى سلاح(٢٥)

لأنّي كلما فارقت طرفي
بعيد بين جفني والصباح

* * *

وقيّدت نفسي في ذراك محبة
ومن وجد الاحسان قيداً تقيدا(٢٦)

* * *

احبك يا شمس الزمان وبدره
وان لامني فيك السهى والفراقد(٢٧)

* * *

---

٢٣ـ الديوان جـ١ ص٣
٢٤ـ الديوان ٢ ص ٢٥٩
٢٥ـ الديوان جـ ١ ص ١٧١
٢٦ـ الديوان جـ ١ ص ١٩٤
٢٧ـ الديوان جـ ١ ص ١٨٥

امــا الاحبــة فالبيــداء دونهـــم
يــا ليــت دونــك بيــداً دونها بيــد[28]

هذا حبّ بديل ، عن كل ما عرف المحبّون في مناخ أشواقهم واحتدام لواعجهم .

(و) سيف الدولة درء للعروبة ، ورجلها المنقـذ ، وحاميها المكلل بالغار ، ما مثله أجا ممنون ولا اخيل او عوليس ، انه أمل امة ذات امبراطوريّة :

فيومــا بخيـــل تطـــرد الـــروم عنهـــم
ويومـــا بجـــود تطـــرد الفقـــر والجدبا[29]

* * *

ســرايك تـــرى والدّمستق هـــارب
واصحابـــه قتلـــى واموالـــه نهبـــى

* * *

لـــو تحـــرّفت عـــن طريـــق الاعـــادي
ربـــط الســـدر خيلهـــم والنخيـــل[30]

انـــت طـــول الحيـــاة للـــروم غـــاز
فمتـــى الوعـــد ان يكـــون القفـــول

مـــا الـــذي عنـــده تـــدار المنايـــا
كالـــذي عنـــده تـــدار الشمـــول

* * *

(ز) بطله سيف الدولة فوق البشر ، يجتاز مقدار آلهة الاولمب ،

---

٢٨ــ الديوان جـ ١ ص ٢٧٠
٢٩ــ الديوان جـ ١ ص ٤٤
٣٠ــ الديوان جـ ٢ ص ١١٧

فهو الكامل ، الذي له ملامح بشري ، ومحتوى متأله :

انت الذي لو يعاب في ملإ
ما عيب الا لأنه بشر [٣١]

* * *

أيها الباهر العقول فما تدرك
وصفاً ، أتعبت فكري فمهلا [٣٢]

من تعاطى تشبّهاً بك اعياه
ومن دلّ في طريقك ضلّا

* * *

تجاوزت مقدار الشجاعة والنهى
الى قول قوم انت بالغيب عالم [٣٣]

* * *

رأيتك محض العلم في محض قدرة
ولو شئت كان الحلم منك المهندا

* * *

إن كان مثلك كان او هو كائن
فبرئت حينئذٍ من الاسلام [٣٤]

* * *

من يجري في حلبة المدائح المتنبويّة ، يراه رجلاً رسم لذاته صورة ، خطوطها من أحلامه ، ومعرفته ، شكّلت مثله الاعلى .

هذا المثل الاعلى تحقق به ، فهو الواقع والمثال ، وهو الجزئي

---

٣١ـ الديوان جـ ١ ص ٣٠٩
٣٢ـ الديوان ٢ ص ١٠٣
٣٣ـ الديوان ٢ ص ٢٧٥
٣٤ـ الديوان ٢ ص ٢٩١

والكلّي . رأى في سيف الدولة صدى لذاته المعلومة والمجهولة ، فنسل خيوط تلك الذات ، والبس سيف الدولة ثيابه ، فالرجلان عالمان ، حكيمان ، اديبان ، شاعران ، فارسان ، عربيان متكافحان ، وجد كلّ منهما في الآخر مكمّلاً كنصفي الدائرة في مائدة افلاطون BANQUET ، نصفه لاقى نصفه ، وكالجانبين في مجلس البرمكي الفلسفي ، « مشاكِلٌ وجد صنوه ».(٣٥) ثم إن بلاد الخلافة العربية تمزقت ، فالأخاشيد في مصر وسوريا ، والبويهيون في ايران ، والاندلس بقيت أموية بعيدة او غير أمويّة ، وسيف الدولة متفرد بامارة عربية صرف ، يعاني ما يعاني لاجل بقائها ، وقد تميّز عن سائر الامراء بشمائل عشقها الشاعر ، لذلك فقد أحبه ، وتجاوب معه الامير حبّاً ، وتشاكيا ، وتناجيا ، وغمس كل منهما نفسه في ذات صاحبه ، وتلاقت جهودهما ، وافكارهما ، وأحلامهما ، وكان أحدهما مشيراً ، مشاركا للثاني ، والشيء الاهم أن المتنبيّ بعد أن ثار ، وادّعى ، وتشرّد ، واستوحش ، وقلق ، وجد مخلّصه في شخص الامير العظيم ، فمدحه بقصائد لم يظفر بمثلها ممدوح في الشرق او الغرب ، لا في الماضي ولن في الغد البعيد ..

## « ولي فيك ما لم يقل قائل »

وأحسّ شاعرنا أنه محميّ من ظلم القدر فاطمأن ، ومحبوب معظّم فوقيّ ، واختال وتغنّى ، فقضى مدة تسع سنين في صحبة هذا الامير الخطير ، هي أحلى ، وأمجد أيام حياته ، وعندما أزفت ساعة الوداع ، لم يستطع احدهما أن يحظى من الزمان بما وصلا اليه مجتمعين ، لذلك لم تمح الأيام من نفسيهما ــ على البعد ، والسّحُب ــ ذلك الحب ، والاعجاب ، فظلّ احدهما يفكر في الآخر ، وتوسلا وسائلهما الى المعاودة ، فقتل الحب والاعجاب الشاعر ، وهدّ القدر قلعة سيف

---

٣٥ــ راجع لذلك مائدة افلاطون وكتاب الزهرة لمحمد بن داود ، وكتاب طوق الحمامة لابن حزم ،

الدولة ، والـذي بقي هـذه الشوارد النادرة في شـعر البشـر .
على أن المتنبي ملـزم بالمـدح ، طلبا للعيش ، فالمال آنذاك في أيدي السادة ، والحاكميـن ، والمستحوذين ، والناس هنالك طبقات ، وأفخاذ ، وعشائر ، الى احـزاب وفرق ، فمـاذا يفعـل وداعي العيش من أقوى الدواعـي ؟
بعـدُ لنأخـذ قصيدته اللاّميّة التي تعـد آخـر ما قاله الشاعر في أميره ، او قبل الاخيرة ، وهي تجمع في بحارها ، الشوق ، والحب الذي لم ينطفىء ، والمدح المجّد ، والتعريض بصاحـب بغداد ، وكافور مصر ، والتي فيهـا من لهـب الحزن ، وتوزع النفس مـا جعلها في نظـري إحـدى روائعه النادرة ، الى انهـا مـن حيـث الشكـل قمـة الشعر الغنائي بمطلعها ، وفلذتهـا الغزليّة التي لا تُماثَـل :

مـا لنـا ، كلّنـا جَـوٍ يـا رسـولُ
أنـا أهـوى وقلبـك المتبـول(٣٦)

كلمـا عـاد مـن بعثـت إليهـا
غـار منـي وخـان فيمـا يقـول

* * *

زودينـا مـن حسـن وجهـك مـا دام
فحسـن الوجـوه حـال تحـول

وصلينـا نصلـك فـي هـذه الدنيـا
فـان المقـام فيهـا قليـل

* * *

نحـن ادرى وقـد سألنـا بنجـد
أقصيـر طـريقنـا ام يطـولُ ؟

* * *

---

٣٦ـ قالها بعد ان ارسل اليه سيف الدولة هدية مع ابنه سنة ٣٥٢ وهو بالكوفة ويسأله الرجوع . الديوان جـ٢ ص : ١١٢

لا اقمنا على مكان وإن طاب
ولا يمكن المكان الرحيل

* * *

الذي زلت عنه شرقاً وغربا
ونداه مقابلي ولا يزول

* * *

ومعي أينما سلكت كأني
كل وجه له بوجهي كفيلُ

* * *

كيف لا يأمن العراق ومصر
وسراياك دونها والخيولُ

لو تحرّفت عن طريق الاعادي
ربط السدرُ خيلهم والنخيل

* * *

ما الذي عنده تدار المنايا
كالذي عنده تدار الشمولُ

* * *

من عبيدي ما عشت لي الف كافور
ولي من نداك ريف ونيل

* * *

انظر كيف بدأ بالسؤال ، وكيف استخدم لغة العشّاق الشائعة آنذاك حيث يهوى رسول المحب وجه الحبيب ، وينمّ وجهه على تواجد قلبه ، وهي معان اخترعها ابو نواس ، وردّدها بعدهُ شعراء كثيرون .

ثم ما في هذا الطلب من الحبيبة التي هي في الضمن

سيف الدولة ، من حرقة والتياع ، وتوجس مصير ، وكأن الشاعر لامست قلبه موجة من عالم المجهول تهجس له أنك ، وحبيبك سيف الدولة ، على شفير المصير الأبيد .

لا شك أن القارىء سيلتفت الى جورجياس ، وبروطاغوراس السوفسطائيين القائلين : إن الحياة فرصة ، وأنها قصيرة ، وان القدر ظلام ، فليغنم الكائن الحيّ ما استطاع ان يغنم ، وليصل الى غرضه بايّ سبيل .

كذلك نشمّ رائحة الفكر القوريناثيّ ، واهتبال اللذّة كما عند « أبيقور » « وأرستيب » ، وشيئاً آخر ، لعله تلك النفحة الرومنطيقية الكئيبة قبل ان تولد في أوروبة على قلم هوغو ولامارتين ، والتمعت من مثل في شعر امرىء القيس ، وذي الرمّة ، وابن الروميّ .

ثم انظر الى استخدامه السؤال ، والصفة المشبّهة ، والفعل المضارع الذي هو عنوان التجدد والحركة في قوله :

أقصير طريقنا ؟ فنموت .

أم يطول ؟ فيستمر الشقاء ؟

وتلك الصورة التي ترسمه كما يرسم الجغرافيّ ، والآلة الفوتوغرافيّة :

لا أقمنا على مكان وان طاب

ولا يمكن المكان الرحيل

وكيف يدرك بعمقه الفلسفيّ فرق ما بين المكان ، العجينة المقولبة ، وبين الزمان المتحرك ، الذي يصوغ للموجودات تبدّلها ، ومصيرها المحتوم ، وكيف يلعب القدر بعقل الانسان ، وقلبه ، وسائر شؤون حياته ، وهو القائل في مكان آخر :

علــى قلــقٍ كــأن الريــح تحتــي
أوجههــا يمينــا أو شمــالا(٣٧)

على أن حب الشاعر لأميره تمادى ، واكتمل ، وأصبح حباً صوفياً يمثل للمحب وجه المحبوب في كل آن وكأننا نلمس في تضاعيفه ، وبين حروفه ، تلك الخلجات التي ساورت روح ابن الفارض بعد ذلك ، وابن عربي ، وجلال الدين الرومي .

الــذي زلــت عنــه شرقــا وغربــا
ونــداه مقــابلــي لا يــزول
ومعــي أينمــا سلكــت كــأنــي
كــلّ وجــهٍ لــه بوجهــي كفيــلُ

ثم ينتقل الى تسجيل حالة عصره السياسية ، وهزال حكومة بغداد الخلافيّة ، وضعف الامراء ، المنشقين عنها بالفعل ، المرتبطين بالاسم ، وكيف أن امبراطورية المنصور ، والرشيد ، والمعتصم ، هانت على الامم ، واصبحت السيوف تنوشها من كل جانب ، وان سيفه الدولة وحده يحمي بلاد الخلافة من أن تتدفق عليها سيول الروم وسواهم من الاعادي ، فتنغمر ، وتزول ، وأن سيف الدولة وحده البطل الذي لم يكلّ ، وهم لاهون سادرون ، هذا يقرع كؤوس الحرب ، واولئك يتنادمون غافلين على كؤوس الخمر .

وتلك الوثبة المدمرة ، وذلك الهجاء الماحق الساحق لكافور :

من عبيدي ، ما عشــت لــي الف كافــور
ولــي مــن نــداك ، ريــف ونيــلُ

صورة سيف الدولة في شعر المتنبي هي صورة المتنبي ، المناضل ، الفارس الذي يطاعن القدر ، ويتأهب لمجهوله ، ويزدري واقع الناس ، يطمح الى نموذجه الاعلى ، الكامل ، الله .

---

٣٧ـ الديوان جـ٢ ص ١٦٠

# مدح العجلي

في الديوان قصيدة بائيّة شرّقت وغرّبت ، كأنّ الشاعر ارادها معزوفة بطولة تذكر برائعة بتهوفن HEROIQUE قالها في المغيث بن عليّ ، ابن بشر العجليّ شفعها بثانية ميميّة ، حظي بهما هذا الممدوح الموفّق ، وضمّنهما المتنبي كثيراً من لواعج همومه ، واكثر من حكمه ، وتطاوله المتمرد ، وكان آنذاك يدرج بين العشرين والثلاثين ، وحليب القرمطيّة على فمه ، وأثر المغالبة السوفسطائية يزأر في دمه ، وامواج من الليل ، والكمد والقلق ، والضياع تعبث به ، وهو معاند صامد ، كما يصطدم السيل بشجرة جبارة مزّق غصونها ، ولكنه لم يستطع زحزحة جذعها .

كان الشاعر في هذه الفترة ، أسير « الأبي تمّاميّة » في القوالب الشكلية ، مثلما هو سجين هذا الحقد المتفجّر في وجه العالم ، بعد أن خسر الجولة الاولى مع القدر ، وزُجّ في سجن لؤلؤ الاخشيديّ ، ثم انطلق :

جاءت بأشجع من يُسمى ، وأسمح من
أعطى ، وابلغ من أملى ومن كتبا(١)

لو حلّ خاطره في مُقْعَدٍ لمشى
أو جاهل لصحا ، أو أخرسٍ خطبا

هزُّ اللّواء بنو عجل به فغدا
رأساً لهم وغدا كل لهم ذنبا

مبرقعي خيلهم بالبيض ، متّخذي
هام الكماة على أرماحهم عِذَبا

---

١ ـ الديوان : جـ١ ص ٨٢

مكـــارم لـــك فـــتّ العالمـــين بهـــا
مـــن يستطيـــع لامـــر فائـــتٍ طلبـــا

وقال في الميميّه ، يمدح بشراً ، وقومه الجعليين :

ولـــو يَمَّمْتَهُمْ في الحشـــر تجـدُوْ
لأعطـــوك الـــذي صلـّــوا وصامـــوا[٢]

قبيـــل يحملـــون مـــن المعـــالـــي
كمـــا حملـــت مـــن المجـــد العظـــامُ

الى : لقـــد حســـنت بـــك الاوقـــات حتـّــى
كأنـّــك فـــي فـــم الدهـــر ابتســـام

وأعطيـــت الـــذي لـــم يعـــط خلـــق
عليـــك صـــلاة ربـــك والســـلامُ

* * *

---

٢ ـ الديوان : جـ٢ ص ٣٤٤

# بـــدر بن عمار

اتّصل المتنبي ببدر بن عمار ، حاكـم طبريّة مـن قِبل الإخشيديين ، وكانت سنّه تدرج نحو الخامسة والعشرين ، بينمـا كان اتّصالـه بسيف الدّولة بعد ذلك وسنّه تهفو إلى الخامسة والثلاثين .

عند بدر كان نشاطـه فـي القمّة ، حـاداً ، جيّاشاً ، يفتش عـن نموذج لينفخ فيـه من روحـه ، ويرفعـه الى الأوج ويعوّض به علـى نفسه ، وكانت قرمطيّته عند بدر لا تـزال تتدفـق شلالاتها داخل نفسه ، رغـم الكوارث التي حلت بـه من جراء سجنه في حمص ، بينما كانـت هذه القرمطية قد فترت لدى لقائه سيف الدولة ، وإننا لنجدها بعـد سن العشرين وقبـل اطمئنانه في حلب بوّاحةً في معظـم شعره الذي قاله .

الى جانـب ذلك كـم نجـد شبها قوياً بيـن صوره الشعريّة التي زخر بهـا ديوانه عن بـدر ، وبين اخواتها التي تدفـق بهـا في حلـب ، بنـاءً ، وأخيلة ، وملامـح نموذجين همـا في الحقيقة جوهر نفسـه .

ذلك يعود إلى أن الحالة التي كان عليها الشاعر قلقا ، واملاً واحدة . وان الرجليـن فارسان ، جوّادان ، عربيان ، لقي فيهما الشاعر صـدىً لما كـان يرتسـم في باله ، وحمىً يرتفع في ظلاله .

سبقـت السابقيـن فمـا تجـارى
وجـاوزت العلـو فمـا تـُعـالى[٣]

وأعجـب منـك كيـف قدرت تنشـا
وقد أُعطيـت فـي المهـد الكمـالا

* * *

لنذكر قوله بعد ذلك في سيف الدولة :

---

٣ ـ الديوان جـ٢ ص ١٦٥

تجاوزت مقدار الشجاعة والنهى
الى قول قومٍ أنت بالغيب عالمُ

من تعاطى تشبها بك أعياه
ومن دل في طريقك ضلاّ

غير أنّي ألمح في بيته الثاني تشبيهه بدراً بالمسيح الذي تكلم في المهد ، وبمن اوتي الحكم صبيّا ، من جانب ، ومن آخر كان النفس الحلولي القرمطيّ ظاهراً ، وملامح الامام الشيّعيّ المعصوم ملحوظة.

واذا كان المتنبي قد مهر سيف الدولة ببعض صفات الألوهة كما رسمها الاسلام في القرآن ، فانه قد بدأ بها في مدح ابن عمّار ؛ وفي الحالتين كان يستحضر في ذهنه حاكم جمهوريّة أفلاطون « فما تعالى » لأنك رأس الهرم ، وهكذا نجد أن الفنان مولع بالخلق ، وبتكبير نماذجه ، كأنّه مسؤول عن ربط الواقع بالمثل ، والناقص بالكامل ، والمتنبي من هذا القبيل نراه قد وضع نصب عينيه الانسان الاعلى ، SUR HOMME أو السوبرمان ، قبل أن تولد هذه التسمية ، ثم اخذ يعالج ، ويضخم ، على طريقة الاسطورة الاولمبيّة :

هان على قلبه الزمانُ فما
يبين فيه همٌّ ولا شغلُ(٤)

يكاد من طاعة الحمام له
يقتل من ما دنا له أجلُ

يكاد من صحّة العزيمة ما
يفعل ، قبل الفِعال ينفعلُ

* * *

سارٍ ولا قفر من مواكبه
كأنما كلُّ سبسب جبلُ

---

٤ ـ الدوان جـ٢ ص ١٥١

يمنعهـــا أن يصيبهـــا مطـــر"
شـــدّة مـا قـد تضايـق الأسـلُ

* * *

يـا بـدر ، يـا بحـر ، يا غمامـة يـا
ليـث الشرى ، يـا حِمام يـا رجـلُ

انـت لعمـري البـدر المنيـر ولكنّـك
في حـومـة الـوغـى زحـلُ

مثلـك يـا بـدر لا يكـون ولا
تصلـح إلاّ لمثلـك الـدولُ

* * *

تأمل كيف بدت ثقافة الشاعر ، فرفع ممدوحه فوق أن يناله الزمان ، والزمان في عرف الفلاسفة رمز للفناء ، والتبديل ، ثم انظر كيف حكّم ممدوحه بالزمان الذي هو حركة الموت في الحياة ، وجعله يقتل قبل موعد الموت ، فكأنه احد الآلهة الاسطوريين الذين يحيون ويميتون ، كيفما شاؤوا .

وما أظنك الا مشمئزاً عند البيت الثالث ، وتعقيده ، وغموضه ، فهذا مذهب المتنبي في هذه الفترة من الشباب ، ولوع بالمنطق ، والجدل ، متأثر بالأبي تماميّة ، مستحضر لما يكون عليه صاحب الارادة الآلهية ساعة يقول للشيء « كن فيكون » وذلك نفس قرمطيّ ، وصدى أسطوريّ : ومعنى البيت ، ان بدر بن عمار لشدة عزيمته لا يجد ما يفعله ، لأن الاحداث تحصل من تلقاء نفسها لمجرد تفكيره بها ، فهي تنفعل .

تذكر ان مادة انفعل تفيد المطاوعة .

بـلا مثـلٍ ، وإن أبصـرت فيـه
لكـل مغيّـبٍ حسـنٍ مثـالا(٥)

---

٥ ـ الديوان جـ٢ ص ١٦٠

أعــزّ مغــالـــب كفـّـــاً وسيفــا
ومقــــــــدرة ومحميــــــــةً وآلا

الـى :

يفـــارق سهمـك الرجــل الملاقـــى
فــراق القــوس مـا لاقــى الرجـــالا

وأعجـب منـك كيـف قـدرت تنشـا
وقــد أعطيــت فــي المهــد الكمـالا

* * *

رَفْعُهُ المدوح بـدراً الى التفـرد أو الاحدّيـة نـوع من التأليه ، وبهـذا الموقف قابـل سيف الدولة بعــده .

اما سهمه فهــو يفارق القوس وينفذ في الرجال بالقوة ذاتها ، فمثلما يكــون ابن عمــار كمــال نوعــه ، يكــون سهمه كذلك كمال حركـة السهم ، فهــو فــي انطــلاق موصول ، على قدر من الزخـم متساوق ، وكاني بـه يرهص بصاروخ اليـوم الممغنط الـذي يلاحق هدفه ، بـل اشـد لان سهمبدر يدخل من رجل في آخـر وهكذا الى أن يأتي علـى كـل الرجال المحاربين إلى قصيدته فيـه آن صرع بدر الاسـد بعصاه ، وهي مشهورة دوّارة في الاسماع ، لكـنّ مـا يهمنا منهـا بيتان ردّد معناهما فــي سيف الدولة ، وهذا ما يرسـخ فــي اذهاننا الحقيقة التالية : وهي أن المتنبي فنـان ، يتناول نماذجه من الممدوحين كوسيلةٍ لا لذاتها ، بل لغاية هي رسم صورة المثال ، ولعله مثـال القرامطة ، الكائن الـذي حـلّ فيـه الإلــه :

لـو كـان علمـك بـالإلـه مقسّماً
في النـاس مـا بعث الإلـه رسـولا(٦)

---

٦ ـ الديوان جـ٢ ص ١٧٣

لو كان لفظك فيهم ما انزل القرآن ،
والتوراة والانجيلا

من هذا القبيل قوله :

متى احصيت فضْلك في كلام
فقد أحصيت حبات الرمال[٧]

وإنّ بها ، وإن به لنقصاً
وانت لها النهايةُ في الكمالِ

وحسبي أن أتناول اعتذاريّته الشهيرة ، التي بدأها بمطلع يشير الى تمرسه بلغة القلوب ، ومعاناة العشاق :

الحب ما منع الكلام الأَلْسُنَا
وألذّ شكوى عاشق ما أعلنا[٨]

الى :

لابي الحسين جدٌ يضيق وعاؤه
عنه وإن كان الوعاء الأَزْمُنا

وشجاعة أغناه عنها ذكرها
ونهى الجبان حديثها أن يَجْبُنا

نيطت حمائله بعاتق محرب
ماكرّ قط وهل يكرّ وما انثنى

فكأنه والطعن من قدامه
متخوّف من خلفه أن يُطعنا

---

٧ ــ الديوان جـ٢ ص ٧٧
٨ ــ الديوان جـ٢ ص ٤٣٨

نَفَت التوهم عنه حدة ذهنه
فقضى على غيب الامور تيقّنا

يتفزع الجبار من بغتاته
فيظل في خلواته متكفّنا

أمضى ارادته ، فسوف له قد"
واستقرب الاقصى فثمّ له هنا

مستنبط من علمه ما في غدٍ
فكأن ما سيكون فيه دوّنا

تتقاصر الافهام عن ادراكه
مثل الذي الافلاك فيه والدّنا

* * *

أرَجَ الطريق فما مررتَ بموضع
الا اقام به الشذا مستوطنا

لو تعقل الشجر التي حييّتها
مدت محيّية اليك الأغصنا

* * *

اني اراك من المكارم عسكراً
في عسكر ومن المعالي معدنا

* * *

وعندما سأله بدر ان يجلس قال :

يابدر إنك والحديث شجون
من لم يكن لمثاله تكوين(٩)

---

٩ ـ الديوان جـ٢ ص ٤٤٧

لعظمت حتى لو تكون أمانه
ما كان مؤتمنا بها جبرين

بعض البرية فوق بعض خاليا
فاذا حضرت فكل فوقٍ دونُ

* * *

أي عطاء هذا الذي يضيق الزمن عن أن يحتويه ؟ أليس هو فعلاً ، وذلك مما يتجاوز الزمان ، لانه استنفد المكان ؟ وتحصيل ذلك تساوٍ مع خالق الخلق كما صورته لنا الاديان ، وخاصّة الاسلام .

فهل جاء ذلك نتيجة لإنكار المتنبي ؟ ام انه صدى للفكر الفلسفيّ ، والصوفيّ ، والقرمطيّ ؟ .

أما شجاعته فهي محض ، نهائيّة ، يموت الجبن ، وتسمى الشجاعة بغير اسمها إزاءه ، لانه ليس محتاجاً الى أن يكرّ ليسمى مقداماً ، لأنه لم ينثن او يتراجع ، فهو في حالة الاستمرار ، وتلك لعمري صفة الدهر في نظر الدهريّين ، وصفة الله في نظر الاسلام القائل بلسان النبي : « لا تسبّوا الدهر ، فان الدهر هو الله » . ثم ألا يتذكر أحدنا مواقف الرياضيين من النقطة التي سمّوها صفراً للبدء ، والشيء الذي سموه اللانهائيّة تعبيراً عن عجز العقل عن أن يعدّ او يحصر ؟ فاي عقلاني رياضيّ هذا الشاعر ؟؟؟

يؤكد هذا ما أشار اليه البيت التالي الذي فحواه أن بطله مستمرّ في هجومه كمن يخاف أن يأتيه الطعن من ورائه ، وذي صور مغرقة في استخدام اللحظات الزمنيّة ، توصلاً الى نهاية المدار ، وكله من صنع فلسفة عصره ، وكل العصور .

وهو في هذه القصيدة يستخدم بصورة واضحة ما نجده في بعض شعره ، الفاظ الرموز الظرفية ، واليقينيّه ، والتّسويف ، وجميع ذلك منوط بالزمن :

ارادته لا تتوقف ـ سوف التي تشير الى حصول الفعل في المستقبل بالنسبة اليه تحققُ حصولٍ في الواقع ، ومعنى ذلك أن لا مستحيل لديه ، لذلك فالقصيّ البعيد حاضر لديه ، إنه هنا ، فهو اذا اراد شيئاً « قال له كن فيكون » فاتنفى بذلك الماضي والحاضر ، القريب والبعيد ، الزمان والمكان ، فهو شهود الشهود ، وحضور الحضور الكامل . والابيات التي تلي تؤكد المعنى السّابق ، الذي حوّله مكرر[1] إلى سيف الدولة عندما رآه محض العلم ، في محض القدرة ، وكل ما سوف يحدث محقق ( قد ) . فالمدح مَلَكَ تصريف الأزمنه .

والشاعر هنا محبّ ، يتنقل من غصن الى غصن في المدح ، وكأنه خاف على السامع مللاً من جفاف الفلسفة والإغراق المضني غموضاً فاستخدم لغة الغزل ، ليرسم لك الطريق الذي اكتسب العطر عند مروره ، فكأنه بعطر الممدوح أصبح يفوح بذاته ، وتلك الاشجار لو أنها ـ وتلك نفحة من ابي تمام ، والبحتري[10] ـ قدرت على الادراك لمدت غصونها تحيّيه ، ويختم قصيدته البدرية بتكرار معانيه ولكن باسلوب آخر ، وهو أن ابن عمار عسكر في عسكر للكرم ، وهذا التكثيف العدديّ صدى لعصره ، وللفيثا غورية اليونانية ، وكم أولع بها في بعض شعره .

أما الابيات الثلاثة الباقية فهي تصور مقدار غلوّ الشاعر ، ولجوئه الى مسلّمات الايمان الدينيّ ، ليخلع على ممدوحه الصفة النهائية ، المطلقة ، فاذا كان جبريل أحد شيوخ الملائكة رسولا للّه بينه وبين الأنبياء ، فهو هنا اعجز من ان يتحمّل أمانة الله ، فهنالك من هو أعظم منه هناك بدر بن عمار .

ثم تأمل بيته الاخير الذي عرض لك الصورة الافلاطونية في الجمهورية للحاكم الاعلى ، الفيلسوف ، في طبقيتها المعروفة بدءا من العمال ، فالجنود ، فالمفكرين المثقفين ، إلى الذروة في هرم الجمهوريّة ، حيث الحاكم الفعال ، والعقل المدبر ، وكيف لجأ لذلك الى « فوق »

---

١٠ـ « لسعى اليك المنبر » البحتري .
« لسعى الجديب » أبو تمام .

و « دون » الظرفيين ، والى معنى « الحضور » وهو من اصطلاحات الصّوفيّة :

بعض البرية فوق بعض ــ وهذا من مقتبسات القرآن « وجعلنا بعضكم فوق بعض درجات . » لكن هذه الدرجات جميعها تحت القمة التي هي بدر بن عمار .

هذا المعنى اطلقه المتنبيّ ، ثم أفْرغه على ممدوحه ، أليس هذا دليلاً على أنه يمدح نماذجه المختارة ببعض ما يراه لنفسه من صفات تتجاوز الانسانية ؟

واقفا تحت أخمصي قدر نفسي
واقفاً تحت أخمصيّ الأنامُ

* * *

# مدح كافور

للأقدار أنامل خفيّة ، تعبث بخطى البشريّ ، وتختار الخيوط لتنسج ثوبه ، أو تلوّن مطارح جفنيه •

ليس كافور موضع مدح المتنبي ، لا في خُلقه ، ولا خَلقه ، أو نسبه ، لكنّ رغائب الشاعر التي ملكت عليه لبّه ، وتجسّدت في سكونه وحركته ، في يقظته ومنامه ، وعيه واحلامه تلك فى أن يكون شيئاً عظيما يعوّض عليه ما فقده من نسب موروث والنّاس في عهده ، او العرب كلهم مولعون بالانساب ، ويحقق له السيطرة التي احبها مزاجه ، وترسّمها عصره ، بايّ سبيل •

إذن فليتوجه الى حيث تدفعه رياح الرغائب ، ويقوده شراع الاحلام ، « وليستجملْ غير جميل » كما يقول ابو نؤاس ، اذ ليس المهمّ موضوع المدح ، بقدر ما هو أهمّ محصول ذلك المدح ، فالقول والثّناء في اتجاه الى شخص الغير ، والمحصول يتعلّق بابي الطيب نفسه •

ما دام المتنبي فناناً والفنان جاء لتغيير العالم ، والشعر أقدر الفنون على تكميل الاشياء او تبديل هويّاتها ، فليعبث ابو الطيب بالصور ، والكلام ، وليفرغ على كافور جلداً آخر ، وليصنع منه نفساً خيّرة لا تغتال سيدها ، أو تمهّد لحكم مصر ، وتَبْشم الثعالب من عناقيدها ، وتتصرّف بأقدار الناس الحمقاء •

عندما صنع « رودان » تمثالا بشعاً لصديقه « بلزاك » ، جاء في شكله الغريب الذي يُرى في مطل « مونبرناس » الشماليّ ، ولكن النقاد قالوا عنه انه أعجوبة في التعبير •

وساعة رسم « هنري دم دروكيه » لوحته اليأس ANGOISSE دهش لرعبها المشاهدون ، ومالنا نبعد ؟ وصديقنا ابن الروميّ يمعن في عرض نماذجه عن ابن بوران ، ابن الخبازة ، الاحدب ، وأبي سليمان

الطنبوري ، وعمرٍو ذي الوجه الطويـل ، وكـل أصلـع ، وقميْـء ، وأعور ، ومشبوه الشكـل !!

أليست صور ابن الرومي عـن البشاعة والنشاز آيـةً معجزة فـي تاريخ الشعر قاطبة ، تمثّل الجمال الفنيّ في أروع مظاهره على الاطلاق ؟

الى قضية الكذب والصدق الاخلاقيّين ، إذ ما دخلهما في الاحلام والتصورات ؟ فهل كان قيس أو جميـل او كثير ، وهل كان روميـو ، ودوق اوفه وندسُور ، صادقين في رؤيتهم محبوباتهم أجمـل الجميلات صدقاً يتعلق بنسـب الجمال ومقاييسه ؟

وهل الجمال في تناغـم الخطوط والالوان ، ام في موافقته للمزاج ؟ وهل مقاييس المنطق والذوق تنطبق على شهقات الروح للجميـل ، الرائع، واضطراب النفس للمرذول الناشز ؟

على كل حال هل الاحلام صدق واقعيّ ؟ هل الطلب يحكم عليـه حكمنا على الخبريّ ؟ لنترك هـذه المقدّمة ، ولندخل الزاوية الكافوريّة من شعر المدح المتنبّوي فالرجل قال :

وهـان فمـا أبالـي بالرزايـا

لأنـي ما انتفعـت بـأن أبالـي [1]

وقبله اعلن نؤاسي بغداد قائـلا :

« وهان عليّ الناس فيما أريده »

وكل عبقريّ يختطّ طريقه ، ويفترع دروبه ، ويرسم لقدميه خارطة وطنه ، فهـو وحده مسؤول عما يفعـل ، وهو وحده يسـخر من كـل مسؤوليّةٍ تعارف الناس على قوانينها .

* * *

---

١ ـ الديوان جـ٢ ص ٢٣

القصيدة التالية البائية أنشدها كافورا سنة ٣٤٦ هـ أي في مطلع لقائهما . وهي من غرر مدائحه ، ومفاتن شعره ، ومجلى وثباته الفنيّة الرائعة .

ألقصيدة تنداح في تيارها الى ستة واربعين بيتاً ، أمضى تسعة عشر بيتاً منها في الغزل ، والذكرى ، والتأمل ، ثم انفذ سبعة وعشرين في مدح الرجل الاسود ، الذي نصفه شفة .

كان المتنبي كالموسيقيّ يدوزن آلته ليفتح مغالق نفسه ، وليضع الحالة ، الجوّ ، أو يلتقط السانحة المبدعة ، فإن فاته نسيم الحنين ، يهب من فردوس مجهول ، فلن يفوته الهفّ وهو ينساب اليه من رنين الاوتار ، أو أنين الناي ، وعندما تهبّ الزوبعة من القلب ، وتنفتح النوافذ فجأة ، ينهمرُ المؤدّي ، فيفصح عن التعبير المؤدّى .

الم يقل إن الرومي قبله ، قولاً هو من صميم الفن ، ومواضعات علماء الجماليات ؟ :

ألم تر أنني قبل الأهاجي
أقدّمُ في اوائلهنّا النّسيبا

لتخرق في المسامع ثم يتلو
هجائي كاوياً يشوي القلوبا

لا فرق بين النسيب في مطالع الاهاجي ، أو مطالع الاماديح .

في الغزل المطلعيّ من هذه القصيدة ، استحضار البداوة . ومكوث في جمالاتها الفطريّة ، آنَ يخاطب الشاعر أميراً على بلد من أعرق بلدان التاريخ حضارة ، وأوفرها خيرات ، وأعمقها حلولاً في أرض ، وأمرعها خضرة على مياه .

مصر ، عالم بكامله ، أخضر ، أنضر ، فهل للشاعر خبيء مضمر ، وهو يرسم البداوة في قصر أمير مصريّ ؟ ومتى ؟ عندما اصبحت مصر مميّزة في عصر الدّويلات كأنها وحدها تقمّصت بغداد الرشيد .

أيكــون المتنبي مفترعاً اسلوباً جديداً للمدح المبطــن بهجــاء ، أو الهجاء الملفوف بحرير المدح ، كالأفعى تلبسها ثوبا من التفتا الملونة ، ثم تصفها في قفص بلبــل أو كنــاري !!!

الممدوحون كثر ، وينبوع صفاتهم ليس فيهم بل هو من المتنبــي .

وكافور ممدوح في الظاهر ، ولكن الشاعر وأن فتــح عينيه عليه الا أنه قد فتح مغالق روحــه لسيف الدولة ، وسيف الدولة امير بدوي ، وكافور أمير حضري ، رغــم المسافة التي تفصل بين الرجليــن ثقافة ، وشخصية ، وشمائل ، ومنابــت . فيطلق العنان لضميره ، لا وعيه ، فــي سبعة عشر بيتا ، ثــم ليطلق عنــان جواده في ميدان كافور ، فالحصــان لعب ، وتهيأ ، فهــو يفتش عن مدىً لحيويته .

في المقدمة يسأل عن الجآذر في زي الاعاريب ، ويرسم ولوعه بهن ، وزوراته الخفية لهن ، ولا يكتم دموعه لفراقهن ، ليقرر أن حسن الحضارة مجلوب بتطرية ، اما البداوة فحسنها من بوح الطبيعة :

أيــن المعيــز مــن الآرام ناظــرةً
وغيــر ناظــرة فــي الحســن والطيب(٢)

المعيز سوداء ، والآرام كثيرة الالوان ، وكافور اســود ، وسيف الدولة غير أسود ، وللعبد بشاعة ، وخبث ريــح وللآرام حسن وطيب .

ثم يرسخ الشاعر ادعاءه الصــدق وذلــك بتمنعه مــن الخضاب ، وينفتل الى شعر الحكمة والحديث عن تجاربه المرة ، ليدخــل في مدح كافور على تلك الطريقة التقليدية .

« ترعرع الملك الاستاذ » والاستاذ كلمة فارسيــة معناها المعلــم ، المشير ، الحاذق . مكتهلا قبل اكتهال ، أديباً قبل تأديــب .

أليس في هــذا الوصف التفات الى ما شاع لدى الشيعة من نظرية

---

٢ ــ الديوان جـ١ ص ١١٦ .

الامام المعصوم ، والعرفانيّة التي هي فطرية" قبل ان تكون كسبيّه ؟

تلك معان جرّدها الشاعر على اكثر ممدوحيه ، ناسلاً خيوطها من نبع المذهبيّة الذي شرب منه ، وما زال يبوح من لاوعيه .

وعند الرويّة والتمحيص ، نجد أنه يضحكنا نحن الذين درسنا بسيكولوجيا القول والفعل بعد فرويد ، وادلر ، ونخت ، ومكدوجل وسواهم ، فكيف يكون العاقل عاقلا قبل فطامه ؟ والاديب مجربا ، مثقفاً قبل أن يأخذ بوسائل المعاناة والتثقيفه ؟يكون ذلك على سبيل التندّر ، والفكاهة ، او السخرية من الممدوح !!!

حتّى اصاب من الدنيا نهايتها
وهمّه في ابتداآت وتشبيب[٣]

شرح منسّقو ديوانه معنى هذا البيت بأن كافوراً بلغ مأربه الكامل من الدنيا ، وذلك بالعرش والملك ، لكنه لا يزال في بدء الطريق، وتذكّر أيّام الشباب ، ويا له من تسطيح لمقاصد المتنبي !!!

المعنىواضح فضّاح،ولهذا زرع المتنبيالشك في نفس الاسودالمخصيّ، فلم يأمن جانبه بعدها أبداً ، وسجنه وهو طليق ، وعذّبه بالوعود ، واطال له في « الطّول المرخى وثنياه باليد » كما يقول طرفه .

يقول إن كافوراً ترعرع ملكاً ، مع أنه كان في عهد الترعرع عبداً مشفره نصفه ، « مكتهلا قبل اكتهالٍ » أي فاته شبابه قبل أوان الفوات ، « أديبا قبل تأديب » مروّضاً ، مطواعاً وكلمة الأديب على الجمل المروض قبل عصر الاسلام .

« أصاب نهاية الدنيا » إيذان" بتصرّم العالم ، « فاذا تم شيء بدا نقصه » أما « همّه في الابتداءات والتشبيب » فليس له من فحوى الا ان الرجل في مركز الامارة ، ومع ذلك فهو لا يهتم إلا بسفاسف الامور

---

٣ ــ الديوان : جـ١ ص ١١٨ .

الأوليّة ، والتّشبيب الذي هو طلبة كلّ لاهٍ ، أخرق ، ملازم للدّعارة . والاطيب من هذا قوله :

اذا أتتها الرياح النّكب من بلدٍ

فما تهبُّ بها إلاّ بترتيب[4]

يقصد البلاد التي يحكمها « ابو البيضاء » ( مصر ، عدن ، العراق، الروم ، النّوبة ) فما كان اكرم المتنبي ساعة يضيف الى حكم كافور هذه البلاد الشاسعة ، ونحن نعلم أن ملك الاخشيديين لم يصل الى هذه الرحابة مطلقاً . ثمّ التفتْ وروٌ عند تعداد اسماء هذه البلدان وتجاوزه ذكر بلاد الشام التي على بعضها يقوم حبيبه الهاجر سيف الدولة . ولا تنس السخرية في قوله :

« إلاّ بترتيب »

فكافور يأمر الرياح أن تهب متلاحقة ، بنظام ، وترتيب ، كأنها من تلاميذ المدارس ، أو عبيد البلاطات ، حتى الشمس فهي لا تغرب عن امبراطوريّته الا بإذنه ، فايّ جبّار مارد هذا الحاكم على « عضاريط رعاديد » .. ؟

وأخيرا يختم بائيّته بهذا البيت الذي يصوّر الرجلين ، وحذر واحدهما من الآخر :

أنت الحبيب ، ولكني أعوذ به

من أن اكون محبّاً غير محبوب[5]

أما بائيته الثانية التي أنشدها كافوراً ، وكان كما روى صاحب الوساطة ، يقبل المتنبي عليه متقلداً سيفه ، وحوله موكب من غلمانه ، بدأها توّاً بالإعلان عن اشتياقه الى كافور ، وهو مطلع من اغرب مطالع

---

٤ ـ الديوان : جـ١ ص ١١٨

٥ ـ الديوان جـ١ ص ١٢٣

المـدح ، واني لأعجـب كيف أن كافوراً صبر عليه ، وربما أثابه :

أغالـب فيـك الشـوق والشوق أغلـب
وأعجب من ذا الهجر ، والوصل أعجب[٦]
أمـا تغلـط الأيـام فيّ بـأن أرى
بغيضـا تنـائي أو حبيبـاً تقـرّب

يعجب المتنبي من هجر حبيبه كافـور الذي جاء يمـدحه ، ويعاتب ويعتذر ، وهو المحـبّ في الظاهر ، ولكـن من نوع يغالـب الشـوق فيتغلب الشوق عليه ، ويعجـب من هجر كافور ، ولكن وصله أعجـب ، ما أخبث هذه التعمية التي ترسـم العشـق بيـن شاعر جبار ، ماكـر ، متكبـر وبين عبد نعته بثعلب مصر !!

وماذا في البيت الثاني ؟ ومن هو البغيض الذي يسأل الايام ان تبعده؟ ومن هو الحبيب الـذي يطلب منهـا أن تقرّبه ؟ أليـس البغيض كافوراً ، والحبيب سيف الدولـة ؟

ويستفيض بعد ذلك في وصـف حصانه استفاضة من أروع الشعر العربـيّ ، ويدخـل باب المدح بعد ستة عشر بيتاً ليقول :

فتـىً يمـلأ الافعـال رأيـا وحكمـةً
ونـادرةً أحيـان يـرضى ويغضـبُ

ما معنى هـذه « النادرة » في حالتي الغضـب والرّضا ؟ أليـس تهكم الشاعر بممدوحه المخدوع نوعاً من المسخ الكاريكاتوريّ ؟

**الى قوله :**

ومـا طربـي لمـا رأيتـك بدعـةً
لقـد كنـت ارجـو أن أراك فأطـربُ

**هل تطرب يا ابا الطيب لشكله ؟ أم لسيرته ؟ أم لشمائله ؟**

---

٦ ـ الديوان جـ١ ص ١٢٣ القصيدة خمسون بيتا ، مقدمتها ستة عشر بيتاً في الغزل ، والمدح في اثنتين وثلاثين بيتا ، وبيتان ليسا من المدح ،

وفي سنة ٣٤٩ مدحه ببائيّة ثالثة بدأها بالغزل والحنين والشكوى أيضاً بما يقرب من ثمانية عشر بيتاً ، يأتي فيها على وصف نفسه التي لا تتبدل بتبدل الجسم ، ويشكو من غربته التي جعلته في غنى عن الاوطان ، وكيف أنه يضمر سرّه فلا تفضحه الخمرة ، أما المرأة فله معها لحظات ، ثم يمضي الى شأنه مُستَسْخِفاً أمور العشق ، والشراب ، واذا كان لا بد من العشق فلأطراف القنا ، ثم يقرر أن أعزّ موضع في الارض هو متن حصانه ، وأمتع جليس هو كتاب ، وهنا يدخل باب المدح ليقول إن كافوراً تجاوز قدر المدح ، حتى أنه اذا مدح باجمل الكلام فكأنه يعاب به :

أرى لي بقربي منك عينا قريرة
وان كان قربا بالبعاد يُشاب[٧]

فهل أبعد نفسا من شاعر كابي الطيب ازاء رجل يملك الرغائب ولولاها لكان كواحد من عبيده يمتهنه ، ويتجافاه ؟

وفي النفس حاجات وفيك فطانةٌ

سكوتي كلام عندها وجواب[٨]

طبعاً لابي المسك فطانة ، وسواء سكت ابو الطيب أو أفصح ، فالاسود أخبث من أن ينيله إحدى الرغبات ، ثمّ يتململ ، ويتلاين مبتهلا ويختم قصيدته بقوله :

ولكنك الدنيا اليّ حبيبةٌ

فما عنك إلاّ لي اليك ذهابُ

كافور وسيلة ، وبدر ، وابن طغج ، حتى سيف الدولة وابن العميد ، وعضد الدولة وسائل ، الى غاية هي الدنيا ، وهذه الدنيا بدورها تنقلب

---

٧ ـ الديوان جـ١ ص ١٣٨
٨ ـ الديوان جـ١ ص ١٤٠
وما كنت لولا انت الا مهاجرا   له كل يوم بلدة وصحاب

الى وسيلة تمهد لاقصى غايات الشاعر ، الا وهي السيطرة ، وعبادة الذات ، وانه لمن أحلى مواقفه الشاعر هذه الصيحة الخفِرة ، التي اعلن بها عن حب الدنيا بلسان كل بشريّ ، واحلى منها ختمه رائعته هذه بقوله :

اذا صحّ منك الودّ فالكل هين
وكل الذي فوق التراب تراب[9]

عرض الديوان الذي شرحه البرقوقي الى مجموعة منسوبة الى ابي الطيب ، لا سند لها ، وليست من طابعه ، لكن بيتاً ورد فيها يصدق على ما يدور في بال المثقفين من ان المتنبي كان يصنع في كافور مدحا مبطّناً بهجاء ، بدليل هذا البيت :

وقد أُري َ الخنزير أنّي مدحته
وما علموا أن كان يهجى بما يُطرى

التقى المتنبي بكافور سنة ٣٤٦ هـ في جمادي الآخرة . ومدحه بقصائد تتجاوز الأربعة في عام واحد تقريباً ، من هذه القصائد سنة ٣٤٦ اليائيّة المشهورة ، التي يفضح مطلعها ايضاً مكنون قلب الشاعر ، لعلها الأولى ، او الثانية من قصائده الثماني في كافور :

كفى بك داءً أن ترى الموت شافيا
وحسب المنايا أن يكنّ أمانيا[10]

تمنّيتها لمّا تمنيت ان ترى
صديقاً فأعيا او عدواً مداجيا

مطلع يفضح ما خبّأه الشاعر في اعماقه ، تجلداً ، وكبرياءً ، وفي الوقت ذاته يوضح مقدار حبه سيف الدولة ، والمدى المخزي ،

---

٩ ـ الديوان جـ٢ ص ٥٣٩
١٠ـ الديوان جـ٢ ص ٥٠٩

المنهار ، الذي اوصله الى كافور ، اذ يكفـي أن يصبح الموت أقصى أمانيّ الكائـن البشري المنسحـق ، ليدرك الناس مقدار الفاجعة التي دمّـرت وجوده ، وفجّرت كوامن الحزن في عوالمـه •

تعريض ، بل إفصاح عن حاله ساعـة عجـز عن الالتقاء بصـديق ، ولكنـه على الرغـم من حرف العطف الذي للتّخيير « أو » فقد وجـد العـدوّ المداجي • مطالع المتنبي ، فواتح ، دندنات وجدانيّة موسيقيّه ، كالتي تكون قبل العزف تفصح عن أنيـن روحـه ووجع ضميره •

في القصيدة التي تبلغ السبعة والاربعين بيتـاً ، ومعظم شعره فيـه لا تتجاوز أبياته هـذا العدد ، إلا بقليل أو تنقص ، مواقف تلفّت ، بالغة الحـزن الى سيفه الدولة ، وتعريض مهذّب ، أسيـان بحبيبه الغادر :

قواصـد كافـور ، تـوارك غيـره
ومـن قصد البحـر استقـلّ السواقيـا

حبيبك قلبـي قبـل حبّـك مـن نـأى
وقـد كان غـداراً فكـن انـت وافيـا

ولا يبخل عليه بهذا المعنى القرمطي المغالي فيقول :

فتـى ، ما سرينـا في ظهـور جدودنـا
الـى عصـره إلاّ نرجّـي التـلاقيـا

وبعد أن يسهب في وصف فروسيّته ، وكرمه ، كما هـي عادته فـي جمع هاتيـن الخلّتين لممدوحيه ، وقلمـا تنفصلان ، بل همـا محـور مدحه على الاطـلاق ، يختمها بهـذا البيت الذي تردد معناه لدى مدحـه بدراً ، والاوراجيّ ، وسيف الدولة وسواهم ، غير هياب ولا وجل فـي اقتحامه دار ابي تمـام ، والإغارة على ما لديه[11] :

---

١١ـ قال ابو تمام
دان الى ايدي العفاة وشاسع عن كل ند في العلا وضريب
كالبدر افرط في العلو وضوؤه للعصبة السارين جد قريب

فأصبح فوق العالمين يرونه
وإن كان يُدْنِيه التكرّم نائيا

* * *

— ورد المتنبي منهل بن عمار ، وجلاً ، قلقاً ينشد ملجأ .

— ويمّم سيف الدولة مؤمّلاً ، مزهواً ، ومتوجساً حذراً ، فاطمأنّ .

— وقصد كافوراً منسحقاً ، تلعثمت خطواته بسواد الدروب ، وروحه بفواجع العالم ، ولكنّ الجسور التي امتدّت أمامه ، رسمت له سراب الرغبة ، والفوز بالولاية ، فتوزّع بين حالتين : القلق ، والامل الصّابر .

مدائحه في كافور تدور حول معانٍ مكرورة ، وأخرى مفترعة أوحت بها ظروف العبد الاسود المختلفة عن سواها ، ومواقف ذات وجهين : مدح وهجاء ، يظهر المدح ، ويبطن الهجاء .

ثم إن بعض هذه المواقف يبدو فيها الشاعر وكأنه يقتحم الجحيم ، فالمعاني لا تتدفق من قلبه ، ولكنه يعثر عليها لسانه ، وليس فيها تلك اللمعات المعجزة التي نلقاها في مدحه بدراً ، وسيف الدولة ، بل سواهما كالعجليّ ، والانطاكيّ ، والتنوخيّ ، تلك حالة جرّه القدر من انفه الى جوّها ، فانقاد مخذولاً ، محمولاً على شراع الاحتمال ، وفي اعماق ذاته تمزّق ساعر للخلوص مما هو فيه من ضيق واختناق بين حاشية البلاط في حلب .

ولماذا لا يتوقع ، أو يحتمل ، أو يبدّل ، وقد وقف على آراء السوفسطائيين المغالية ، والقورينائيّين اللذّيّة ، وتبنّى دعوة القرامطة القحامين ، الفتّاكين ، وعرف معرفة تامّة مذاهب المجوس وخاصّةً المزدكية ، الماديّة ، الانتهازية ، وقبل ذلك وبعده ، مزاجه ، وواقعه ، فهو يريد بأيّة حال أن يتمجّد ، وأن يصل الى المجد بأي سبيل ، فالغاية تبرر الواسطة كما يقول « جورجياس » ولكن قدر البشريّ المنسحق

بمطرقة القدر ، ماذا يترك له في عالم التكاليف من حرية ليقدر على الاختيار ، والسّير في درب الوسائل ؟

**مدح ابن العميد**

ليس لابن العميد مجد سيف الدولة ، ذلك البطل ، العارف ، والعربيّ النموذج ، ولكن ابن العميد فوق بدر بن عمار سعة اطلاع ، وسموّ ادراك ، ورفعة منزلة ، وهو بلا مرية بعيد بعداً ساحقاً عن كافور ، وفي مطلق الاحوال لم يكن ابن العميد ، أبو الفضل ، ذلك المحبوب كبدر ، والمعشوق كسيف الدولة ، بل إنه ذلك المهاب ، الجليل ، الذي تقف بينه وبين الشاعر حدوده ، وتعصف دونه كبرياء المتنبي ، وهو قبل هذا وذاك غير عربيّ ، وأحد هؤلاء الذين اختلسوا مقاطعة من بلاد الخلافة ، وقاموا يديرونها باستقلال وعرام عن مركز الخلافة ، وابن العميد هو من هو بالنسبة الى آل بويه .

إذا كنا قد وجدنا في مدائحه السابقة إطلاق صفات الذكاء على كافور ، والنباهة على بدر ، والثقافة على سيف الدولة ، واللّدنيّة الصّوفيّة على الأوراجيّ ، فانه عند ابن العميد يلجأ الى الفلسفة ، وشموليّة المعرفة ، ملتفتاً الى قول ابي نؤاس :

ليس على الله بمستنكر
ان يجمع العالم في واحد

وهذا المعنى ، حوّله الى عضد الدولة بن بويه بعد ذلك .

كان ابن العميد وزيراً جليلا ، وكاتبا صاحب مدرسة في الاسلوب ذهب مذهبه الكثيرون وعبّر بها عن مستوى في النثر وصل اليه ادب ذلك العصر ، وكان شاعراً بصيراً بمواقع الكلام الموحي ، وناقداً خبيراً حاذقاً بتصريف القول ، ومنابع الذوق ، له مذهبيّة لنقد التي تتلمذ عليها غير ناقد واحد في عصره ، واشهرهم « الصّاحب بن عباد » وهي مذهبية دقيقة عارفة ، تبدأ من نقد الحرف ، الى وزن اللّفظة بميزان التناغم ،

ومدمكة العبارة ، الى شموليّة النّظر وإحاطته بمقدار الاثر الادبيّ .

المتنبي اذن أمام مبدع ، وصانع ، ومطـلّ من الاعالي . ومحمـد ابن الحسين بن العميد ، أبو الفضـل ، كان قد كتب الى أبـي الطيّـب يستزيره وهو في أرّجان ، يقوم باعمال الوزارة لركن الـدولة ، والـد عضد الدولة آخر ممدوحي المتنبي الكبـار ، المقيـم في شيـراز . فرد عليه المتنبي قائـلاً :

بِكُتْـبِ الانـام كتـابٌ ورد
فـدت يـد كاتبـه كـلّ يـدْ[12]
يعبّـر عمّـا لـه عنـدنـا
ويذكـر مـن شـوقـه مـا نجـدْ
اذا سـمع النـاس الفـاظـه
خلقـن لـه فـي القلـوب الحسـدْ

وهذه الأبيـات لا تخرج في بساطتها ، وتكلفها عن المجاملات اليوميّة المألوفة ، لكـنّ أول قصيدة انشدها ابن العميد ، تلـك الرائية المشهورة التي قيل إن ابن العميـد انتقدها بعد ذلك ، ويروى أنها كانت لابن الفرات وزير كافور واسمه الاول جعفر[13] ، وأن المتنبي لم يـرتح الى نوالـه فصرفها عنه ، وحوّرها لابن العميد ، وهنا لا يبعد أن يكون ابن العميـد قـد وُسْوِسَ اليـه بذلـك فللشاعر أعـداء يترصّدون خطواتـه ، وكلماتـه .

بدأ القصيدة بالغـزلَ التقليديّ ، وسار شوطاً يتجاوز الخمسة عشر بيتـاً ليقـول :

---

١٢ــ الديوان جـ١ ص ٢٨٣

١٣ــ الخطيب التبريزي في شرحه ديوان المتنبي .

أمــّـي أبــا الفضــل المبــرّ أليّتــي
لأيمّمن أجــلّ بحــر جوهــرا[14]

بأبــي وأمّي ناطــق فــي لفظــه
ثمــن تبــاع بــه القلــوب وتشــترى

يتكسّــب القصــب الضّعيف بكفّــه
شرفــا علــى صممّ الرمــاح ومفخــرا

يــا مــن اذا ورد الجيــوش كتابــه
قبــل الجيوش ثنــى الجيوش تَحيّــرا

قطف الرجــالُ القــولَ وقــتَ نباتــه
وقطفــت انــت القــول لمّــا نــوّرا

فدعــاك حسّــدك الرئيــس وأمسكوا
ودعــاك خالقــك الرئيــس الاكبــرا

* * *

الى :

مــن مبلــغ الاعــراب أنّــي بعــدها
شاهــدت رســطاليس والاســكندرا

وســمعت بطليمــوس دارس كتبــه
متملّكــاً متبــدياً متحضّــرا

ولقيــت كــل الفاضليــن كأنمــا
ردّ الالــه نفــوسهم والاعصــرا

* * *

١٤ــ الديوان جـ١ ص ٣٦٥

للدكتور طه حسين حقّ في أن يسِمَ هذه الرائيّة بالتكلف ، غير أنها من جهة التاريخ ، وتصوير حال المتنبي في فترة انتقال ، وما كان اكثر تنقله !!! تبوح لنا كيف يقف من احد ممدوحيه الكبار ، وقلّما مدح الا عظماء عصره ، ذلك الشاعر الذي تمنع مزدهياً عن مدح الصاحب بن عباد .

إن ما اهتم له في هذه القصيدة قوله عن كتاب ابن العميد إنه مزعزع الجيوش ، ومبددها ، فلا تستطيع بعد كتابه الذي سحرها ، وثناها أن تقوم بحرب ، وهذا يشير الى مقدار ابن العميد من البلاغة ، وتمرّسه بأمور البيان ، وهذا البيت اغفله الكثيرون من شراحه ، والذين أرخّوا له او كتبوا عنه . ولعله استحضر في ذهنه كتاب عبد الحميد الكاتب الى « أبي مسلم » يثنيه عن عزمه ، فمزّق أبو مسلم الكتاب ولم يقرأه خشية التأثر بألفاظه ، وكتب اليه :

محا السيف اسطار البلاغة وانتحى

اليك ليوث الغاب من كل جانب(١٥)

الشيء الثاني قوله :

قطف الرجال القول وقت نباته

وقطفت أنت القول لمّا نوّرا

وهذا يشرح لنا مقدار فهم المتنبي عظمة ابن العميد الكاتب ، ومحله من مراتب الكتاب ، وتاريخ النثر الفنيّ في العربية ، حيث جاء تاج نهضة آتت أكلها ، وبلغت ذروتها بالجاحظ ، واخذت تميل الى الجانب الآخر ، وهنا مثلها ابن العميد صاحب اول مدرسة للزخرف

---

١٥ـ طلب مروان بن محمد آخر الامويين الخلفاء من كتابه عبد الحميد ان يبعث الى ابي مسلم بكتاب يقنعه بالانكفاء وترك الهجوم . فلما وصل الكتاب الى ابي مسلم مزقه قبل ان يقراه وكتب اليه البيت المدون أعلاه . ( الخضري )

الانشائي في العربية ، وهنا يجيىء الفعل « نوّر » غاية في الدقّة .

الشيء الثالث أن المتنبي العروبيّ ، يمدح مفكراً كبيرا غير عربيّ، فيلتفت متحدّياً قومه العرب ، وكأنه بَعُد عنهم ، وتنكر لهم ، فهو يدعو مبلّغاً يوصل اليهم خبر هذه اللّقية ، حيث شاهد في شخص ابن العميد « أرسطو » فيلسوف الانسان ، والاسكندر أعظم قوّاد التاريخ ، وبطليموس صاحب المجسطي في العلوم الطبّية ، ولم يقف عند هذا الحدّ ، بل شهد في ممدوحه جميع فاضلي العصور ، كأن اللّه لَمّ شتيتهم من كل الامم ، ومختلف الأزمنة ، وصبّهم لاجل عيني المتنبي في قالب واحد ، جسّد له ممدوحاً اسمه ابن العميد .

حسب ابن العميد أن يقبل المتنبي مدحه ، وكفاه ما قاله فيه ، لكنه هو الخبير المفنّ بعبير الكلام لَسَنَه ، ولمسه ، فعرف المتنبي أنه امام صيقل رماح القول ، وسيوف الكلام ، فليوجه اليه همّه ، ولينشده الدّاليّة الشهيرة ، وكان قد انتعش « واللّهى تفتح اللّها » إذ كان ابن العميد قد أهداه فرساً ، وقلّده سيفاً ، وقدّم اليه الهدايا ، متوقّعا من المتنبي قصيدة عذراء في عيد النيروز :

جاء نيروزنا وانت مرادُهْ
وَوَرَتْ بالّذي اراد زنادُهْ(١٦)

ما لبسنا فيه الاكاليل حتّى
لبستها تلاعه ووهادُهْ

عند من لا يقاس كسرى أبوسا
سان ملكاً به ولا اولاده

عربيّ لسانه ، فلسفيّ
رأيه ، فارسيّةٌ أعياده

---

١٦- الديوان جـ١ ص ٢٧٦

الى : إنني أَصْيَدُ البزاة ولكن
أجلّ النجوم لا أصطاده

إن في الموج للغريق لعذراً
واضحاً أن يفوته تعداده

فارتبطها فإن قلبا نماها
مربط تسبق الجياد جياده

* * *

لم يبدأ مدحته هذه بالغزل التقليدي كما كان يفعل ، أو يفعل سواه من الشعراء ، بل دخل توّاً الى حرم الجو ، معلنا عن مجيء « نيروزنا » فصدق فيه المثل الجاهلي « استنوق الجمل » أو « استعجم المعرورب » اذ متى كان للعرب نيروز ؟ على ان القصيدة من العجائب في الايقاع ، والصور ، واللمعات الفكرية !!! ولا ادري كيف يتحمّل الفُرس الاسلاميّون من شاعر شهر بتعصبه لقومه العرب ضد كل ما هو أعجمي ، أن يقول عن رجل يزر لاحد امراء بغداد — ولو اسماً — إن كسرى أبا الساسانيين ، لا يقاس به ملكاً ولا أولاده ، ثم يقبل الممدوح منه ذلك ، ويرضى الناس عنه ، ثم يتخايل ذلك الشاعر متنقلا في بلاد الفرس .. !

هل نسي هؤلاء أن الساسانيين صنعوا امبراطورية الشرق ، وزحفوا على بلاد اليونان ، وحلّت روما محل اثينا واسبرطة ، وبقوا هُم ، وحاربوا الرومان مثل حربهم اليونان ، وأن الاسماء الثلاثة قورش ، ودارا ، وزركسيس دخلت في تاريخ البشرية العام ، وان ابن العميد وسيّده عضد الدولة ، لولا المتنبي ، ولولا سطور كتبها ابن العميد ، لما درى بهما سوى ابن خلّكان ، في كتابه وفيات الاعيان ؟

* * *

**عضد الدولة :**

ما لنا ولهذا المدح المتكلّف ، على الرغم من لمعات نجوم في جبهة

ليله ، فلنمض معه الى ممدوحه الفارسي الثاني عضد الدولة ، ولنرافقه في دروب « شعب بوان » فالطبيعة بما توحيه من جمال ، وترسمه من صور ، تزهر لديها الاحلام ، مثلما تهينم الانسام ، ففي احضانها ينسى البشري شقاءه ، ودجله ، وأحقاده ، إنها تصفّينا من رواسب القدر ، وتجعلنا في وفاق مع انفسنا والعالم كما يقول « غوته » .

بدأ قصيدته الأولى في مدح عضد الدولة بسوى الغزل ، وقد اختار لها قافية النّون الموسيقيّة ، ووزنا مرتاحاً يساعد على الانشاد ، وذلك لم يتوفر في مدائحه الابن عميديّة ، فهل أن الطبيعة في « شعب بوان » فتّحت مغالق نفس الشاعر ، وأصبح اكثر أمناً ، وعاوده تطرابه ، فشدا وغنى كواحد من طيور تلك الغابات ؟

جرى في ثلاثين بيتاً يمدح بها عضد الدولة ، وابنيه أبا الفوارس ، وأبا دلف ، وقدّم لها بثمانية عشر بيتاً عن الطبيعة ، والطريق ، والناس ، والغناء .

يتّهم الدكتور طه حسين أبا الطيب بأنه كان يمرّ بمعارض الطبيعة كما يمر المسّاح الجغرافيّ ، فلا تلهث روحه لمفاتن الجمال ، أو ينغمس قلبه في نضرة الورق والزهر ، وقد انحبس فيهما النسيم ، والشعاع ، ورقراق الماء .

لصاحب « مع المتنبي » وجه عذر ، فالشاعر آن قصد بلاد الفرس ، كان حديث عهدٍ بترك مصر ، وهجاء كافور ، ورعيّة كافور ، ولا بد أن العصبيّة أنست معلمنا الكبير أن المتنبي هو القائل :

وغير فؤادي للغواني رميّة
وغير بناني للزّجاج ركابُ[17]

تركنا لاطراف القنا كل شهوة
فليس لنا الا بهنّ لعابُ

---

١٧ـ الديوان جـ١ ص ١٣٥

ثم أكان على آخيل وهو يرعب طروادة ، أن يتأمل معارض الجمال فى طبيعتها ، وأن على « أوليس » أن تذهله جمالات الجزر ، وسواحر الشطآن ، ولا يفكر في العودة الى ولده تلماك ، وزوجته الوفيّة پنلوب وقصره في « إيتاكا » ولماذا لم تأسره « نوسكا » جنيّة البحار ؟

من قبل المتنبي ، لام اللوّام ابا نؤاس على موقفه من الطبيعة أبان صيده ، والعذر في ذلك أن المتنبي شاعر مَجْد ، والنؤاسي شاعر خمرة ، وقد تركا لابن الروميّ أن يكتب رسومه ، وشعره بحروف الطبيعة :

مغاني الشعّب طيبا في المغاني
بمنزلة الربيع من الزمان(١٨)

ولكنّ الفتى العربيّ فيها
غريب الوجه واليد واللسان

ملاعب جنّةٍ لو سار فيها
سليمان لسار بترجمانِ

طبت فرساننا والخيل حتّى
خشيت وان كرمن من الحران

غدونا تنفض الاغصان فيها
على أعرافها مثل الجمان

الى : يقول بشعب بوّان حصاني
أعن هذا يُسار الى الطعان

أبوكم آدم سنّ المعاصي
وعلمكم مفارقة الجنانِ

فقلتُ إذا لقيت أبا شجاعٍ
سلوت عن العباد وذا المكانِ

---

١٨ـ الديوان جـ٢ ص ٤٨١

فإن الناس والدنيا طريق
الى من ماله في الخلق ثان

الى : ولم أر قبله شبلي هزبرٍ
كشبليه ولا مهرَيْ رهان

وختمها بقوله :

ولولا كونكم في الناس كانوا
هراءً كالكلام بلا معانِ (١٩)

* * *

عجيب أمر أبي الطيب !!! مدح ابن عمار فاذا هو خلاصة الناس ، وسيف الدولة فوق الناس ، وابن العميد جمع فاضلي الاعصر ، وعضد الدولة وابناه معان للناس وسواهم ـ وممدوحوه السابقون من هؤلاء السّوى ـ هراء ، أي لغو حديث لا قيمة له ؟

ولكن ما همّ ؟ فالشعر من الفنّ ، والفن عامة إبن الحالة ، الآنيّة، وان كانت منسولة من السابق ، تلك التي تسنح ، وجوّها يوحي بالتعبير، ولا صلة للحالة الراهنة بما سبقها الا أنها نقطة في أوقيانوس الزمان ، فكل نقطة منذ الازل ، حتى الابد تتشابه مع اختها ، ولكنها ليست هي بالذّات ، وفي الفنّ لا يحكم بمقاييس الاخلاق والعلم ، بل بمقاييس الحالة التي يكون عليها الفنان سواءً أكانت عفويّةً ، أو مصنوعة .

مقدمة رائعة عن « شعب بوّان » ليدخل منها الى جوّ عضد الدولة ، فهذه البقعة من أجمل وجوه الارض ، حتى أن الشاعر قارنها بالجنة ، وشاركه حصانه وجدانياً في شعوره بالجمال ، وتخطى ذلك الحصان حواجزه الى الانسان المحاور ، واتهم الجنس البشري كلّه بالإثم أو الحمق منذ آدم لمفارقته الجنة الأولى ، فجاء بنو آدم ، وفارقوا الجنة الثانية

---

١٩ـ قال في سيف الدولة جـ٢ ص ٤٢٠ من الديوان :
فلولاك لم تجر الدماء ولا اللها ولم يك للدنيا ولا اهلها معنى

ولكـــن الى ايـــن ؟

ــ الى الحرب !!! وبماذا اجابه المتنبي ؟

ــ قـــال لـــه إن هنالـــك مـــا هـــو أجمـــل ، وأسمـــى مـــن هـــذه الجنـــة ، إنـــه ابـــو شجـــاع ، عضـــد الدولـــة !!! ذلك الاسد ، والى جانبه شبلاه ، وهم جميعاً معنى الوجـود ، وسواهـم بلا معنى ، وليمتد البصر في التاريخ ، وفـي غد البشرية ، ليحصي بعض عظماء الناس ، وليسأل الشاعر : « اليس هؤلاء من السّوى ؟ فهل هـم بلا معنى ؟ وما قيمة عضد الدولة الامير المنتهز إزاء الاسكندر ، وارسطو ، وبوذا ، والمسيح ، والرسول ، وكانْت ، وسواهم ؟ والظاهر أنّ المتنبي قد نسي قوله في سيف الدولة ، وان كان آخر شعره فيه :

لا تطلبـــنّ كريمـــاً بعـــد رؤيتـــه

إن الكـــرام بأســـخاهم يـــداً ختمـــوا

يقرر الدكتور « طه حسين » أن شعر المتنبي في هـذه الفترة بلـغ من العافية ، والإحكام مبلغاً فاق بـه شـعره في الفترات السابقة ، وانـه لو عاش بعد ذلك لأتـى بالأعاجيب .

سنّ المتنبي آنذاك تجـاوزت الخمسين بقليـل ، والخمسون تتخطّى الثلاثينيات ، والاربعينيات وهي سن النضج ، والشباب ، والعطاء إنما يكون في قمته لدى هـذه المرحلة ، وما نراها إلاّ مرحلة الإبداع العبقريّ ، وما بعدها لا يواكبهـا ، وإن كـان شباب الانسان لا يحـدّد بمرحلة مـن المراحل ، والشعر تلهمه حالات خاصّة ، ويعبّر عنه لسان موهوب مجرّب .

* * *

في قصيدته داليّة ساكنة ، مدح بها أبا شجاع مستغلاً انتصاره علـى وَهْشوذانَ « ملك الديلـم » ، يبـدو فيهـا الشاعر مطمئنّاً ، هادئـاً ، فالوزن يوحـي بذلك :

أزائر يا خيال أم عائد ؟

وكذلك تبدو معاني الغزل التي توزعت بالحكاية على ثلاثة عشر بيتاً وطّأ بها لمدحه ، بوّاحة بالشهوة ، والتّلاين ، مما لم نألفه في شعره السابق :

عُدْ ، وأعدها ، فحبذا تلفْ
ألصق ثديي بثديك النّاهدْ[٢٠]

زيدي أذى مهجتي ازدك هوىً
فأجهل الناس عاشق حاقدْ

حكيت يا ليل فرعها الواردْ
فاحك نواها لجفني الساهدْ

الى : ما بال هذي النجوم حائرة
كأنها العُمْيُ مالها قائدْ

او عصبة من ملوك ناحية
ابو شجاع عليهم واجدْ

ان هربوا أُدركوا وان وقفوا
خشوا ذهاب الطريف والتالدْ

فهم يرجّون عفو مقتدرٍ
مبارك الوجه جائدٍ ماجدْ

أبلج لو عازت الحَمام به
ما خشيت رامياً ولا صائدْ

ويختمها بقوله :

ليت ثنائي الذي أصوغ فدًى
من صيغ فيه فإنّه خالدْ

---

٢٠ـ الديوان جـ١ ص ٢٩٤

لوبتـــه دملجـاً علـــى عضـــدٍ
لـدولـــة ركنهـــا لـــه والـــدْ

وله ثانية لاميّة على وزنها ، تدور في جوّ هزيمة « وهشوذان » ولا أدري الى أيّة درجة كان المتنبي راضياً عن الزمان آنذاك ، فالأولى ، وهذه التّالية من عضديّاته ، ترسمان جوّاً يبوح بهدوء ، واستقرار ، واكتفاء :

أثْلِثْ[21] فإنّـا أيّهـا الطّلـلُ
نبكـي وتـرزِم تحتنـا الإبـلُ

ويأتي الشّاعر على هواه بالبدويّات ، ومنهن واحدة فاتنة لو تركت سؤرها من اللّبن لكان مسكاً وعسلاً ، والى هذي ليقول : لو أن « فنّاخسر » وهو اسم عضد الدولة أغار على حيّك بأبطاله « وبرزت وحدك له » لعاقه الغزل بجمالك عن كلّ معركة .

وتفـرقـت عنكـم كتـائبـه
إن المـلاح خـوداع قُتّـلُ[22]

مـا كنـت فـاعلـة وضيفكـم
ملـك الملـوك ، وشأنـك البَخَلُ ؟

ملـك اذا مـا الـرمـح أدركـه
طُنُـبٌ ذكـرنـاه فيعتـدلُ

ثم يخاطب ملك الديلم « وهشوذان » بقوله :

لـولا الجهـالـة مـا دلفـت الـى
قـوم ، غـرقـتَ وإنمـا تقلـوا

---

٢١ـ قيل ان المتنبي كان على علم بالسيما الحيانية ، ورموز الاعداد الفيثاغورية ، واسرار الحروف التي هامت الباطنيات الاسلامية ومنها القرمطية في اجوائها ، وبنت عليها المسيحية أقانيمها .
٢٢ـ الديوان جـ٢ ص ٢١٣

لا أقبلوا سراً ولا ظفروا
غدرا ، ولا نصرتهم الغيلُ

لا تلق أفرس منك تعرفهُ
إلاّ اذا ضاقت بك الحيلُ

لا يستحي احد يقال لهُ
فضلوك آل بويه أو فضلوا

قدروا عفوا ، وعدوا وفوا ، سئلوا
أغنوا ، أعلَوْا وَلَوْا عَدَلوا

فوق السماء وفوق ما طلبوا
فاذا ارادوا غايةً نزلوا

هذا المراح السائد في القصيدة ، والوزن الراقص ، والصفات التي لا يمدح قوم باحسن منها ، وذلك التّقطيع الذي يسميه علماء البديع ترصيعاً ، وهو في الشعر كالسجع في النثر :

« قدروا عفوا ، وعدوا وفوا »

كل ذلك دليل على أن الشاعر يلهو كالبلبل على غصون مهدلة ، تسبح في النسائم والأشعة ، وقد أمِن من كل طارىء ، وتلفّت الى كل انثى ، واطلق من حنجرته الملائكيّة ما يسكر الورق ، والزهر ، ويزيد في صفاء الجدول ، وصحو الآفاق •

على أنّ ابتداءه بفعل الطلب « أثلث » أي كن أيها الطلل ثالثنا ( أنا وجوادي ) ذو مرمى يذكرنا بمبدإ فيثا غورث القائل بان جوهر الاشياء الاعداد ، كما يضع في البال اصطلاحات الحيّانيين السيمائيين ، وتلك اتكأ عليها القرامطة ، ولهج بها الفاطميون بعد ذلك •

فهل كان المتنبي عددياً باطنياً ؟

المتنبي نثر الورد على مجلس عضد الدولة فقال :

قد صدق الورد في الذي زعما
أنك صيّرت نثره ديما[23]

فاثره ناثر السّيوف دماً
وكل قول يقوله حِكما

وقل له لست خير ما نَثَرت
وانما عَوّذتْ بك الكرما

فيا عجب لشاعر يعبد السيوف ، والمعارك ، ولا يرى في الورد الا أن اليد التي نثرته تنثر السيوف !!!

وخرج عضد الدولة الى الصيد وذلك سنة ٣٥٤ وهي السنة التي قتل فيها الشاعر ، فمدحه بلاميّةٍ راجزة ، والرجز أسهل بحور الشعر . وهي على طولها تشير الى اهتبال الشاعر غفلة الايام ، واستكانة الحدثان ، فتغنّى ما شاءت له الأقدار التي أرخت حبالها ، ومدّت في آجالها :

ما أجدر الأيام والليالي

بأن تقول ماله ومالي[24]

لا أن يكون هكذا مقالي

فتىً بنيران الحروب صالي

منها شرابي وبها اغتسالي

لا تخطر الفحشاء لي ببال

الى : وأيّاً شئت يا طرقي فكوني
لمّا أصار القفص امس الخالي

٢٣ـ الديوان جـ٢ ص ٤١٦
٢٤ـ الديوان جـ٢ ص ٢٢٢

وقتّل الكرد عن القتال
حتى اتّقت بالفرّ والإجفال

* * *

أوشكت أشرعة المتنبي تنتفض على هزج الرياح ، واحسّ بهاجس خفيّ يَنْبئهُ أن شاطئا آخر يدعوه اليه ، وأنه وشيك التخلّي عن هذه البحبوحة التي انغمر بنعيمها ، والجنة التي ادنت قطوفها من اناملـه •

ألكافيّة التالية نذير وداع لعضد الدّولة ، ولسان خفيّ يتحرك وراء قلبه ، ليوحي اليه أن نهايته تزحف ، وانها اسابيع وتنطفىء اشعة كوكبه الذي شرّق وغرّب ، وماج على كل فضاء :

أنشد عضد الدولة هذه التّالية في شعبان ، وقتل في رمضان سنة ٣٥٤ :

وقد حمّلتني شكراً طويلاً
ثقيلا لا أطيق به حراكا[٢٥]

لعل الله يجعله رحيلاً
يعين على الإقامة في ذراكا

ولو أني استطعت خفضت طرفي
فلم ابصر به حتى اراكا

ارى أسفي وما سرنا بعيدا
فكيف اذا غدا السّير ابتراكا

الى : وأيّا شئت يا طرقي فكوني
أذاةً أو نجاةً او هلاكا

---

٢٥ــ الديوان جـ٢ ص١١

وما أنا غير سهم في فضاء
يعود ولم يجد فيه امتساكا

الى :

حيّي من آلهي ان يراني
وقد فارقت دارك واصطفاكا

تفيدنا الأبيات السّابقة أنّ المتنبي بلغ في « شيراز » درجة الاكتفاء الذاتيّ ، والرضا عن العالم ، وأن إحسان « فنّا خسرو » وجميع آل بويه غمروه غمراً وحقّ له أن يلتفت الى قوله في ابن العميد وزيرهم :

« إن في الموج للغريق لعذراً
واضحاً أن يفوته تعداده »

فاستلان بخشوعٍ أمام صنيعتهم ، حيث نال من الخير فوق ما قدّر ، لكنّ شعوراً غامضاً بالمصير ، واعتمالاً حبيساً يجلجل صامتاً في حناياه ، مشيراً الى دنوّ العاصفةِ بقدرها الماحق الاسود .

وإلاّ فما هذا السهم الذي تطلقه اليد الخفية في الفضاء دون غاية ، ويعود بلا هدف ، او جدوى ؟ إنّه الحياة ، حياة الشاعر الذي عرف الايام معرفة شموليّة ، وأبصر خطّ البدء من لا معنى ، وشفير النهاية بلا غاية ، وهكذا من وجود أخرق ، الى عدم أزرق .

* * *

وصل المتنبي وهو في قمة مجده العقليّ والفنيّ ، والماليّ ، الى درجة من التوجّس الرّاعب ، أنطق لسانه بالأذاة ، والنجّاة ، أو الهلاك ، حيث انتهى الى درجة الصّفر ولم يعد يفرق بين الهاوية والذروة ، بين الهلاك أو الخلاص ، ولعله كان يدرك أن الحساب القرمطيّ يتربّص به ليسدّده ، وأن حسّاده في الكوفة وسواها لن يتركوه يمرّ ، ويتخطّر

باعظم ثروة حظي بها شاعر في التاريخ ، وأنّ أعداءهُ من حاشية امير حلب ، يبثّون العيون والأرصاد ليفتكوا به في الطريق التي سيسلكها الى صديقه سيف الدولة ، وما يدرينا ؟ لعلّ ابن كيغلغ ، أو كافوراً ، او سواهما ممن هجاهم يكمنون له عند كل منعطف ، إنهم يعيشون في لحمه ودمه ، ومجرى أنفاسه ، فكيف لا يخاف ؟ وكيف لا يقلق ؟ لكنه سيمضي ، والسّهم لا يني عن الانطلاق ..

* * *

# نموذج مدحي

## مدحة قالها في ابي علي الاوراجي الصوفي

أمن ازديارك في الدجى الرقباءُ
اذ حيث انت من الظلام ضياءُ(1)
قلق المليحة وهي مسك هتكها
ومسيرها في الليل وهي ذُكاءُ
أسفي على أسفي الذي دلهتني
عن علمه فبه عليّ خفاءُ
وشكيّتي فقد السقام فإنّه
قد كان لمّا كان لي أعضاءُ
مثلت عينك في حشاي جراحةً
فتشابها كلتاهما نجلاءُ
نفذت عليّ السابريّ وربما
تندقّ فيه الصعدة السمراءُ

* * *

أنا صخرة الوادي اذا ما زوحمت
واذا نطقت فإنني الجوزاءُ
واذا خفيت على الغبيّ فعاذرٌ
أن لا تراني مقلة عمياءُ

(1) الديوان : جـ ١ ص : ٩ .

شيـــم الليالـــي أن تشككّ ناقتـــي
صـدري بهـــا أفضـى أم البيــداءُ ؟
بينـــي وبيـــن أبـــي علـيٍّ مثلـه
شـــم الجبـــال ومثلهــنّ رجـــاءُ

وعِقـــابُ لبنـــان وكيـف بقطعهــا
وهـــو الشـــتاء وصيفهـــنّ شـتاءُ
لَبَسَ الثلـــوج بهـــا عليّ مسالكـي
فكـــأنهـــا ببياضهـــا ســــوداءُ

وكـــذا الكريـم اذا أقــام ببلــدةٍ
ســال النّضـار بهـــا وقـــام الماءُ
فـي خطـه مـن كـلّ قلـب شـهوةٌ
حتـــى كـأن مـــداده الاهـــــواءُ

مـن يهتـدي في الفعـل ما لا تهتـدي
فـي القـول ، حتـى يفعـل ، الشـعراء
فـي كـل يـــوم للقـــوافي جولـةٌ
فـــي قلبـــه ولأذنـــه إصغـــاءُ
واغـــارة فيمـا احتـــواه كـأنمـــا
في كـــل بيـــت فيلـــق شـــهباء
مـن يظلـــم اللؤمـاء فـي تكليفهـــم
أن يصبحـــوا وهـــم لـــه أكفـــاءُ

ونذيمهم وبهم عرفنا فضله
وبضدها تتميّز الاشياءُ
يعطي فتعطي من لُهى يده اللهى
وترى برؤيته رأيه الآراءُ

* * *

يا أيها المجدى عليه روحه
إذ ليس يأتيه لها استجداءُ
إحمد عفاتك لافجعت بفقدهم
فلترك مالم يأخذوا إعطاءُ
لا تكثر الاموات كثرة قلّة
الا اذا شقيت بك الاحياءُ

* * *

لم تُسْمَ يا هرون الا بعدما
اقترعت ونازعت اسمك الاسماءُ
فغدوت واسمك فيك غير مشاركٍ
والناس فيما في يديك سواءُ
لَعَمَمْتَ حتى المدن منك مِلاءَ
ولَفُتَّ حتى ذا الثناء لَفَاءُ
ولجدت حتى كدت تبخل حائلاً
للمنتهى ومن السرور بكاءُ

* * *

فبأيّما قدم سعيت الى العلا
أدُم الهلال لأخمصيك حذاءُ
ولك الزمان من الزمان وقاية
ولك الحِمام من الحِمام فداء
لو لم تكن من ذا الورى الّذْ منك هو
عقمت بمولد نسلها حوّاءُ

* * *

أبو عليّ ، هرون بن عبد العزيز الأوراجيّ ، الكاتب ، الصّوفيّ ، ذو الشأن في دولة الأخاشدة ، والجسر الذي عبر عليه المتنبي الى بدر إبن عمار ، محطّ آماله ، ساعة توقع أن يجد عنده ما اخفق فيه لدى التنوخيين ، وابن كيغلغ ، وسابق ممدوحيه .

استهلّ المتنبي قصيدته بالغزل التقليديّ ، جرياً على سَنن من تقدّموه ، سالكاً دروب المبالغة ، والحبكة « الابي تمّاميّة » وليس ذا بدعاً في مخاطبة رجال التصوّف ، فالممدوح أديب ، والمتصوّفة اتّكأوا على جمال البشريّ رمزاً للجمال الإلهيّ ، غير مستلينٍ لبحتريّات النصّاعة والرقرقة ، موغلاً في ما يشبه التعمية .

— ثنّى بالفخر ، الذي هو منطلق ذاته كما هو على حقيقته ، وكأنّي به لم يستفد من تبجح ابن الرومي إزاء ممدوحه ، ففات عليه غنم كثير ، وبدا له أن شخصه يختلف عن شخص ابن الرومي ، وأن الممدوحين على اختلاف طبقاتهم ، وإن كانوا جميعهم من علية القوم ، يقبلون منه ما لا يقبلون من سواه .

— ثلّث بالحديث عن ناقته ، وهذا مألوف الشعر العربيّ منذ الجاهلية ، فالناقة للشاعر العربيّ نوع من الأبجْدية للتعبير كالمرأة العارية للرسّام ، والرّخامة للنحّات ، فهي أنيسة السّفر ، ومطية

الرحلة ، وزاد المنتقل ، وعماد البيت .

- ربّع بوصف جبال لبنان بعد المطيّة وبيدائها ، ثم خمّس بالإيغال في مدح ابي علي الاوراجي ، فتناول كرمه ، وخطّه ، وقربه من القلوب ، وإمعانه في خدمة النّاس ، وحبه للشعر ، وقدرته على الحرب ، في حبه للسلام ، وكون الاسماء تنافست لتظفر بشرف انتمائه الى واحد منها ، التفاتاً إلى قدسيّته ، وتميّز معناه ، مغاليا في مدحه حتى المقارنة بالألوهة ، قابساً معنى إسلاميّاً ختم به قصيدته ، عبّر به المسلمون عن كون النبي محمد عليه السلام مخلوقاً قبل الخلق ، نوره من نور الله ، بعد أن دعا له ليكون الزمان الذي هو الحركة الدائمة وقاية له من الزمان ذاته ، وان يكون الموت فداء له من الموت ، معمّياً ، سالكاً طريق الشذوذ الصرّفي باستخدام « اللّذ » بدلاً من الذي ، مسكنا الضمير المنفصل « هُوْ » بدلا من فتح واوه ، فصدق فيه قول القائل : « شاغل الناس » ومن الناس الصرفيون والنحّاة ، يجهدون لاكتشاف المسوّغ فيما اورده ابو الطيب ، ليكون بشذوذه قاعدة للقاعدة .

ربما شَعَرَ المتنبي أن موهوبا عظيماً مثله لا ترسم له القواعد ، وانما تؤخذ عنه ، وعلى الآخرين أن يتأملوا دروبه البكر المفترعة ، عسى أن يقدروا على المضيّ فيها .

* * *

لم يدخل أبو الطيب في غيابات الجوّ الصّوفيّ ، لعلّه غير مستجيب لتصوّرهم ، ومذهبهم ، لكنه سلك منهجهم في الإغراق ، والشّموليّات ، خالعاً على ممدوحه صفات مثالية ، متألهة ، والصوفيون يرون الموجودات مظاهر للواحد الاحد ، ويعتبرون الله والرسول عالماً واحداً يغيبون فيه ، فالرسول من نور الله قبل خلق الخلق ، وربما عرّجوا على عيسى من روح الله ، وموسى كلمة الله ، والمتنبي لم يقتصد في جعل ممدوحه سبباً لوجود الخلق ، والا لكانت حواء ذاتا لا تلد ، ولم

تتَمادَ في مواكب العصور .

ويا ليته وقف عند هذا الحدّ ، بل جعل الأوراجي مصدراً للخليقة ، مثلما هو من هذه الخليقة .

* * *

في هذه الهمزيّة ، وهي من شعر الشباب ، مختلف خصائص المتنبي ، وموضوعاته ، وأسلوبه .

الغزل ، الفخر ، الحكمة ، المثل ، المدح .

التّعقيد ، الإغراق ، متانة السبك والاسراف في طباقات ابي تمام واستعاراته ، وروعة الأسطرة باستخدام الاستعارات ، والتشابيه المكثّفة ، وبعض الغريب ، والشاذ ، كما تلوح فيها إشارات باطنية قرمطيّة ، مشتركة مع ايماءاته الصوفيّة ، وملاحظته فيها الانسان الذهنيّ « الاعلى » الذي لم يفارق أهداب المتنبي الهائمة وراء أفق يصور ذلك المارد ، وكلما دنا منه احتضنه أفق آخر أرحب ، وأبعد .

ثمّ تضمينه معاني الفلسفة اليونانيّة ، وسلخ كثير من قوانينها مثل : « فلترك ما لم يأخذوا إعطاء » قبَسَ ذلك عن أرسطو صاحب مذهب ما هو موجود بالقوّة ، وما هو موجود بالفعل . كذلك لم ينس مزج ممدوحه بأشياء الطبيعة والفلك ، وعقد مقارنة بينه وبينها .

فالسّحب ذات المطر الدفيق لا تبلغ مقدار عطائه في فيضها ، وما نراه من مائها المنهمر إنما هو حمّى الحسد ، تقطر عرقاً ( رحضاء ) ، والشمس وقحة لأنها تدعي أن وجهها مضيء كوجهه أما القمر فحسبه فخراً أن يكون حذاء قدمي ذلك الممدوح .

**نثر القصيدة**

ـ بات الرقباء آمنين من أن تزوري مضناك ، لأن ضياء جمالك يقلب الليل نهاراً ، فيراك الناس ، لذلك فضّلتِ الامتناع عن

تلـك الزيـارة .

- لذاك قلقت ، وكان السبب في ذلك القلق من أجل فوات الزيـارة أنّ عطرك فوّاح فضاح ، ووجهك الشمس يبدل حلكة الظلام .

- أسفتُ لفوات الزيارة ، وتدلّهي بك أذهب أسفي ، فلم أعد اعلم من أمري شيئاً بسبب الحبّ الطّاغي .

- أما شكواي فلأن كيانـي ذاب حبّاً ، فذاب معـه سقامي ، إذ كيف يوجد السقام الذي هو عنوان الحب ، وقد انمحت أعضاء العاشق ؟

- عيناك حلوتان واسعتان ، جرحا قلبي جرحا واسعاً سعتهما ( كلتاهمـا نجـلاء ) .

- نفذت عيناك من درعي السابريّ ( نسبة الى سابور الفارسيّ ) وكان منيعـاً يتحطـم الرمح دونـه .

- أنا صامد بعناد ، كصخرة الوادي عندما يهاجمها السيل الجـارف ، فينهار عن جانبيها ، واذا انطلقت فإنني كنجـم الجوزاء رفعة .
الصخرة لا تتزحزح ، والجوزاء لا تُنالُ . كذا أنا فـي الارض ، وفي السماء ، وكذا أنـا ترمز الطبيعة والاكوان إلى عظمتي التـي لا تُطـال .

- ربما جهل الناس أمري ، فهم لذلك معذورون عذر الأرمد الـذي لا يقدر على رؤيـة الشمس ، فأنا من طينـة غير طينة سائر الناس .

- خصمي ليس موجوداً في الناس ، القدر يحاول أن يخاصمني ، لـذا فهـو عندما يعجز عن مجابهتي ، يعمد الى ناقتي فيشكّكها ، ويعمّي عليها سبل المسير كيلا تصـل بي إلى غرضـي ، وذلك راجـع إلى نوعهـا الذي يضنى ويجهـد من عناء السفر ، لا الى عظمة صبـري واقتحامي الذي لمّـا يوجد من يقدره حقّ قدره ، لأن طرقي ابـداً عذراء مفترعة ، فنفسي تأبى السعي على دروب السوى .

- بيني وبين « أبي عليّ الاوراجي » صعاب تشبه البيداء التي شككتُ وأضنتُ ناقتي ، منها جبال لبنان الشاهقة الوعرة ، والتي زادت على صعوبة السير فيها ثلوج متراكمة ، لكنّ تلك الجبال الشاهقة في طبيعة لبنان قابلتْها جبال أخرى شاهقة من الآمال لدى « الأوراجيّ » .

- عقاب لبنان عسيرة ، وأعسر ما تكون في الشتاء ، على أنّ صيف لبنان في تلك الذرى المتأبيّة شتاء ، للبرد من تراكم الثلوج المستمر ووعورة قممها .

- طمست الثلوج معالم طريقي هناك ، فانقلب بياضها سواداً ، فكأن الثلوج البيضاء ، والليالي السوداء ، سواء في التعمية واللَّبس .

- هل ذاك يا ترى من جراء تفاعل أشياء الطّبيعة كيميائيّاً ، وفصاليّاً ، أو فلكيّاً ؟ كلاّ فإن ذلك حدثٌ متّصل « بأبي علي الاوراجيّ » ، الذي تسير أمور الكون حسب فاعليته ، فهو لكرمه يجري أنهار الذهب ، لذلك خجل الماء فتجمّد ثلجاً .

- تجمّد الماء ، ولو أن الانواء رأته كما رأته المياه ، لبهتت حبيسة فلم تتحرك .

- ف خطّ ابي علي أكثر من فنٍ يَعرض تجربة مبدعة في شكل جمالي له نضرة ، وشباب ، ونداء للعشاق ، يحرك القلب بالشهوة كما تحرّك الانثى اشواق المتأملّين وهي في زهو تبرجها ، حتى لكأن هذا الكاتب الساحر لم يكتب بالحبر ، بل بأهواء الناس .

- قربه أنس للعيُون ، بعده قذىً لها ، تقربه القلوب ، تقلق لبعده النفوس .

- فعله تام ، كتمام خيال الشعراء ، ولكن الشعراء لا يبلغون بخيالهم مقدار واقع أفعاله .

- انه شاعر ، أديب ، يحب الادب ، فيجتمع في ناديه منهم فئة يفتح لهم قلبه وسمعه .

- ماله يغير عليه المعتفون كما تغير الفيالق على الفيالق .

- إنه لظلم فادح ، حتى لاولئك اللئام الذين يطمحون الى مساواته .

- لذلك نحن نذمهم ، وفي الوقت ذاته نحن مدينون لهم لاننا بهم عرفنا فضلـه ،

- يعطي كما يعطي الكوكب ضوءه عفوياً ، غير مبال عطايا جـزيلة ، ويستلهم الناس الآراء الحكيمة من كلامه المألوف .

- فيا أيها العظيـم الذي وهبه الله روحاً ، وهو مستعد أن يجود بهـا لو أن أحـداً طلبها منـه .

- أثن على طالبي جودك ، لا فجعك الله بفقدهم ، لأنهم وسائل لتحقيق كرمك ، وانتَ معدن الكرم ، والكرم حياتك ، فسواء أخذوا او لـم يأخذوا ، سيّان ، لانّ مالك الباقي هو في حالة عطاء .

- وفي حالة الحرب ، كثرة قتلاك لا قيمة لعددها ، لانهـم لم يكونوا موضع رضاك ، فالموجود جديراً بوجوده هو من نال عطفك ، وَمَنْعُ هذا العطف شقاء على البشرية .

- الأسماء وعت مصيرها ، وكمالها ، لذلك تنافست لكسب شرف الانتماء اليـك .

- اصبح اسمك فريداً كتفرّدك بالمزايا ، أما مالك فالناس جميعاً شركاؤك فيـه بالتسـاوي .

- فضلك لم يقتصر على جهة ، أو عشيرة ، فالمدن امتلأت بجـودك ، والثناء عليك تافه ، لانـه ليس من همّك . لذا فقـد تجاوزت كل ثنـاء .

- وصلت الى نهاية الجود ، حتى كدت تعود لتبدأ من أوله ، وكذلك السرور اذا بلـغ نهايته القصوى ، تحـوّل الى بكاء .

ـ كرمك متجدد ، لا يتوقف ، لذلك لا يدري ايـن البدء فيـه مـن الانتهاء ، فأنت كالحياة في تجـدد مستمر •

ـ الفخر موصول بأعمالك ، لا يتنكب مقصـّرا ، والمجد بريء مـن أن يستطيـع الوصول الى اكثر ممـّا وصلت بـه •

ـ اما سؤال النـاس أن تمنحهم فما ذلك لأنـك غفلت عن حاجاتهم ، فَهُمْ مكتفون بـك ، ولكن لهم لذة السؤال مثلما أنّ لك لـذة العطاء ، واذا حاولت كتـم نبلك وسماحك ، فان فيض نعمك يـدلّ عليـك •

ـ وما المدح بالنسبة اليـك يكسبك رفعة ، ولكنـه إقرار بفضائلك ، والناس يثنون على الله إيماناً لا لأن الله محتاج الى ثنائهم •

ـ واذا هطل المطر بأرضك ، فما ذلـك لجدب فيهـا ، فأنـت المطـر الموصول ، يصيب المكان الخصيب ، ولا يضنّ على الجديب •

ـ فكيف يستطيع السحاب أن يقلد كرمك ؟ إن مطره ما هو الا من نوع الحسد لك ، والحسد اورثه الحمّى ، والحمى أفاضت صبيب عرقـه فهذا الهاطل « رحضاء » لا مطـر •

ـ وكذلك الشمس ، فهي أقل ضيـاء من وجهك ، لـذلك فهي عندمـا تقابلك تتهم بقلـة الحيـاء •

ـ نحن حائرون باسلوب سيرك ، لانـك فـوق الآدميين ، لذا فصفحة خدّ الهلال صيغت حذاءً لقدميـك •

ـ أنت متفرد في الزمان والمكان ، فهذا الزمان الذي يغنى بـه النـاس يقيك ، وهذا الموت الذي يشمل كل ذي حيـاة يفديك •

ـ فلو أنك لم تكن ملحوظاً في الغيـب بأنـك منسول من رحم حواء ، لكانت حواء عقيمـاً ، فأنـت سبب لتدفـّق نسلها في الوجود •

❋ ❋ ❋

أخيراً ، فإن شاعر العربية الاكبر ، فتح لنا في هذه القصيدة كوى على مذهبه الشعري ، نطل منها على حالات فذة ، منها :

**١ ـ تصرف بارع ، متمكن بالمفردات ، اشتقاقاً ورصفاً ، وجدة .**

٢ ـ **الالتفات الى معاني حكماء العرب** « كجابر بن حيان » صاحب نظرية « الاسم جوهر المسمى » « ونازعت اسمك الاسماء » وكذلك فكرة الكمال والعصمة لدى الشيعة ومنهم القرامطة .

٣ ـ استخدام المعاني الفلسفية ، **اليونانية إن من افلاطون حسب البيت الاخير** في القصيدة ، وإن من أرسطو أخذاً من قوله : « فلترك مالم يأخذوا إعطاء . »

٤ ـ انطلاقه اللاواعي لتمجيد نفسه ، وهو في حضور تمجيد الممدوح ، أنا صخرة الوادي ..

٥ ـ السير على دروب « ابي تمام » من حيث الحبكة الشكلية ، والمبالغة ، والتعبير البلاغي « من الظلام ضياء » « صخرة الوادي ، الجوزاء » « وهو الشتاء ، وصيفهن » « فكأنها ببياضها سوداء » « سال وقام » « في الفعل ، في القول » .

٦ ـ التماع الحكمة والمثل ، في القصيدة ، وهما بمثابة مداميك مرصوفة لم تخل منها عمارة شعرية من عمارات المتنبي :

**« واذا خفيت على الغبي ... » و « ومن السرور بكاء » و « بضدها تتميز الأشياء » .**

٧ ـ بعض حكمه مأخوذ من الفلسفة اليونانية ، من تجاربه الذاتية ، ممن سبقوه من الشعراء ، وما تقدمه من التراث .

**قال المتنبي :**

ونذيمهم ، وبهم عرفنا فضله
وبضدها تتميز الاشياء

وقال ابو تمام :

واذا اراد الله نشر فضيلة
طويت أتاح لها لسان حسود
لولا اشتعال النار فيما جاورت
ما كان يعرف طيب عرف العود

وهذا المعنى بالذات سلخه عن حبيب بن اوس تلميذه البحتري أيضا .

للمتنبي ممدوحون كثيرون سوى من عرضنا مدائحه فيهم مثل :
ابن عمران ، والتنوخيين ، وعليّ بن منصور الحاجب ، والازديّ ، والانطاكيّ ، والهمذانيّ ، والبحتريّ ، والطائيّ ، وابي العشائر ، والتميميّ ، والعلويّ ، وفاتك ، وسواهم .

* * *

صوره عن مزاياهم ، والصفات التي اسبغها عليهم ، او تخيلها مثاليًّا ، لا تخرج عن الخطّ الذي رسمه لمدائحه ، فأعاد ، وكرّر ، وكبّر او اقتصر ، وهي على العموم خواطر صمّمها لترضي أحلامه ، ورغباته ، ثم طبّقها على نماذج اختارها ، أو احتاج اليها ، أو صادفت عبوراً في طريقه ، أو أنها ارتسمت بين اهدابه .

كان في مختلف حالاته يقدم لقصائده بإيقاعات وجدانيّة ، ترمز الى ما يدور في أعماقه ، أو يتوهج في دمه ، ألمح إليه ، وطوى كيانه على برحائه ، ومضى شاكيا ، طماحاً ، مستعلياً ، وقد تلفّه الذكريات بحنين محرور ، عابق ، او تندلع كبرياء ذاته فينطلق متقحمًا ، يتجاوز كل حدّ ، ويتمرد على أيّ نظام .

* * *

# الهجاء في شعر المتنبي

(أ) لفظة هجاء ــ انواع الهجاء ومنطلقاته ــ ( حقد ، قصور ، حزن ، رفض ( هجاء العدو .. هجاء السخرية المسخي ــ هجاء الاصل ــ هجاء الامة ــ هجاء الكــون .

(ب) عوامل المزاج ــ السياسية ــ الدين ، الحزبية ــ الموقف ــ الرؤية .

(جـ) الهجاء فرع من المدح ــ محل الدرام ــ الدعاية ــ تكميــل .

( د ) مهجوو المتنبي : ابــن كيغلغ ، إبن كروس ، ضبة ، كافــور .

حساده ــ عصره ــ مجتمعه ــ البشر ــ الزمان ــ الحياة .

* * *

مراجــع :


١ ــ الديوان ، شرح البرقوقي .

٢ ــ مع المتنبي للدكتور طه حسيــن .

٣ ــ الوساطة بين المتنبي وخصومه للقاضي عبد العزيز الجرجاني .

٤ ــ رسالة في كفريات المتنبي لحسام زاده الرومي .

٥ ــ ابو الطيب ماله وما عليه للثعالبــي .

٦ ــ حياة المتنبي لمحمــد محي الدين عبد الحميــد .

٧ ــ مجلة الرسالة عدد ١٨٧ ص ٧٠٥ ــ المتنبي وكافور ، لنعمــة فــؤاد .

٨ ــ مجلة الحديث عدد ١٠ ص ٦٦١ ــ عصر المتنبي السياسى للدكتور نجيــب الارمنازي .

٩ ـ مجلة السياسة الاسبوعية عدد ٢٠٧ ـ المتنبي ( بحث وتحليل ) لمحمد الاسمر .

كلمة الهجاء تتألف من حرفين حلقيّين ، الحاء والهمزة ، وكلتاهما صدىً للعاطفة الحادّة من حقد ، واندفاع ، وتفجّر ، ومن الجيم التي هي حرف شدّة وإشباع ، ورجّة ، تعقبها الالف الليّنة للتمادي .

حروف هذه الكلمة تصوّرها ، وهي في شعر العرب مثلها في شعر الشعوب الاخرى ، وهي إمّا أن تكون موجهة ضد فرد ، أو جماعة ، أو العالم .

من الهجاء ما يكون منصبّاً على اكتشاف القبائح وإغفال ما عداها ، ومنه ما يكون مسخيّاً ، وثالث للسّحق والتدمير .

هجاء الجاهليين والامويين ، منصبٌ على فضح معايب الفرد والقبلية ، يدور في فلك البخل ، والجبن ، ومغامز النسب ، والتخلّف عن موكب العشائر النابهة ، خرج على هذه الخطوط الحطيئة الذي هجا الفرد ، والجماعة ، والناس ونفسه لعوامل نفسيّة حبيسة في ذاته . واستعرت نار الهجاء القبلي والسياسي في عصر بني أميّة ، وختمه بشار بالهجاء الشعوبيّ .

في عصر بني العباسي ، فتح باب الهجاء المسخيّ ، أبو نوّاس وفتح الباب لابن الرومي ، وأدلى دلوه بين القطحانية والعدنانية ، قبالة السيد الحميريّ المعارض ، ومروان بن ابي حفصة الموالي ، وكل ذلك لم يتخطّ الاسلوب التقليديّ ، إلى أن لمع نجم ابن الروميّ ، فاستنّ في الهجاء منهجاً جماليّاً جديداً ، يضع الخزي والبشاعات في مساواة الموت ، والمحاسن والجمالات في تعادل الحياة ، وتناولت الجزئيات في الفرد ، والطبيعة ، مثلما تناول الكليّات ، وغلّف الحياة كلّها بالتّهمة .

جاء المتنبي بعد ابن الرومي ، ولا ريب في أن شاعر عصر الدويلات لم يغب عن ذهنه شاعر عصر المتوكل في تصوير القبح، ومسخ الاشخاص، وسحق وجودهم .

من أوائل الذين هجاهم المتنبي « ابن كروّس » الذي كان يكيد له عند بدر بن عمّار :

وطّأ لهجائه بذمّ الدّهر ، حتى خيل اليه أن كل شيء في هذه الارض يعاديه ، من جبل ، وواد ، وسفح

* * *

وقلة ناصر ، جوزيتَ عنّي
بشرٍّ منك يا شرَّ الدهورِ (١)

عَدُوّي كلُّ شيء فيك حتّى
لخلت الأكم موغرة الصّدورِ

فيا ابن كروّس يا نصف أعمى
وإن تفخر فيا نصف البصير

تعادينا لأنا غير لكنٍ
وتبغضنا لأنّا غير عور

فلو كنت امرءاً تهجى هجونا
ولكن ضاق فترٌ عن مسير

* * *

في هذا الهجاء غيمة سوداء غلّف بها الشاعرُ الدهر ، وصبغه بلون نقمته ، وطبع الاشياء بطابع عداوته ، فاذا بهذه البقاع المختلفة من

---

١ ــ الديوان جـ١ ص ٣٤٨

الارض تشارك البشـر في الحقـد عليه .

ثم يخصّص « ابن كروّس » الاعور ، فيتلاعب بشكله علـى طريقة ابن الرومي ، ولكن ينقصـه التفصيـل ، والاستيفاء ، اللّذين تميّز بهما شاعر عصر المتوكـل ، وتتضـح لنا آثـار المنطق ، والجدل ، والرياضيات في الابيات الثلاثة الاخيرة ، ولكنّه لم يتداعر ، ويقذع كما فعل « بابـن كيغلغ » وقد عبر به في طرابلس وجفاه .

ترك المتنبي « الرملة » وفيها آل طغج ، سنة ٣٣٦ هـ قاصداً انطاكية ، فاستراح بطرابلس وعليها من قبل الاخاشدة « إسحق بن ابراهيم الاعور ، ابن كيغلغ » ، وكان جاهلا يتمنّى ا نيمدحـه المتنبي ، فترفع هذا ولـم يفعـل . وان كان الديوان ذكر له فيـه مدحة لم يعلنها ، فدبّر « ابـن كيغلغ » له مكيدة فنجا منها الشاعر ، وأذاع فيه ميميّته الساحقة .

بدأ القصيدة بالغزل ، على طريقة ابن الرومي القائل :

الـم تـر أنـي قبـل الاهاجـي
اقـدم فـي اوائلهـا النّسـيبا

لتخـرق فـي المسـامـع ثـم يتلـو
هجائـي كاويـا يشـوي القلـوبا

بعد الغزل أطلق هـذه التوطئة الأبـي تماميّة ، ليوحي ببشاعة جهل المهجـوّ :

ذو العقـل يشقـى فـي النعيـم بعقلـه
واخو الجهالـة فـي الشقـاوة ينعـم[٢]

---

٢ ـ الديوان جـ١ ص ٣٩٤

الى :

يحمي ابن كيغلغ الطريق وعرسه
ما بين فخذيها الطريق الاعظمُ

وكان هذا قد بعث بخيل تترصّد على الشاعر طريقه للقبض عليه ، فأفلت ، ونجا .

ثم يتمادى في تدعير مهجوّه ، بما يشبه شتائم السّوقة فيقول :

أقم المسالح فوق شفّر سكينةٍ
إن المنيّ بحلقتيها خِضرمُ

وغناك مسألة وطيشك نفخة
ورضاك فيشلة وربّك درهمُ

واحذر مناواة الرجال فإنما
تقوى على كَمَرِ العبيد وتقدم

الى :

يمشي باربعة على أعقابه
تحت العلوج ومن وراء يلجَمُ

ثم يبلغ بعض مدى ابن الرومي فيما يلي :

وجفونُه ما تستقرُّ كأنها
مطروفة أوفتّتْ فيها حصرم

واذا اشار محدثا فكأنه
قرد يقهقه او عجوز تلطمُ

يقلى مفارقة الاكفّ قذاله
حتى يكاد على يدٍ يتعمّمُ

* * *

وثمة مهجوّ آخر ، يقذع أبو الطيب في تدعيره ، وتحقيره ، أيام كان في شبابه الاول ذلك هو ضبّة • ولضبّة بن يزيد العتبي هذا عرق في الخروج على السلطة ، ووشيجة بيني كلاب الذين أرغمهم سيف الدولة ، والذين شفع بهم المتنبي لديه ، نظراً إلى أنه فيهم قام بثورته ، أو ادّعى ما نسب اليه من نبُوّة ، ولا ندري مقدار حقدهم عليه ، او وفائهم له ، لكن المهم أن نعرف الخطوط التي ارتسمت في اطارها هذه القصيدة اللعينة ، التي كانت السبب في مصرعه •

كان ضبّة فاسقاً غداراً ، خارجيّاً ، أو قرمطيّاً ، قتل جماعة من العراقيين أباه ، وفسقوا بأمّه ، وصادف أن واكب المتنبي جماعة من أشراف الطرق ، فتعرّض لهم ضبّة بالشتائم ، فلم يجيبوه ، وألحّوا على المتنبي ففعل ، وزرع الحقد في نفس ابن اخته فاتك بن جهل الاسدي الذي قتله عام ٣٥٤ قرب دير العاقول وهو متوجه الى حلب .

القصيدة مما ينبو عنه السمع ، وتأنف النّفس من إيرادها ، وهي مسطورة في الديوان صفحة : ١٤١ من الجزء الاول ، شرح البرقوقيّ ، وإذْ أتعفّفهُ أسجّل بعض ما يقبل منها :

ما أنصف القوم ضبّهْ وأمّه الطّرطبّهْ
يا أطيب الناس نفساً وألين الناس ركبه
إن أوحشتك المعالي فإنها دار غربه
او آنستك المخازي فانها لك نسبة

وله تصرّف عجيبٌ يخترع به اشتقاق الهجاء من لقب المهجوّ ، ويستفيد من الجدل الشائع في عصره ، فيقول في هجاء القاضي الذهبيّ :

لمّا نُسبت فكنت ابنا لغير أب
ثم امتُحنت فلم ترجع الى نسبِ

سمّيت بالذهبيّ اليوم تسميةً
مشتقة من ذهاب العقل لا الذهبِ

ملقّبٌ بك ما لقّبت ويك به
يا أيها اللّقب الملقى على اللّقبِ

**هجاء كافور :**

يتميز هجاء المتنبي كافوراً بمزايا لا نجدها في هجائه سواه ، منها أن الرجل أغرى الشاعر ، ثمّ ماطله ، فأضمر له ما أضمر ، وأنه عبد ، غدر بسيده ، وسيطر على بلاد ذات تاريخ ، وحضارة وغد ، واخيرا هرب الشاعر، خائفا ، من مكر العبد ، وتضييقه عليه ، وربما تبييت مقتله •

وشيء ثانٍ يجعل الهجاء الكافوريّ فريداً فى موقعه ، لانه جاء بعد مدائح مبطّنة ، وبعد أماديحه النادرة الفريدة في سيف الدولة ، مما شكّل جوّاً خاصّاً للقول في الاخشيديّ •

**قال مقصورته التالية وهو في طريقه الى العراق ، ففارس :**

ونام الخويدم عن ليلنا
وقد نام قَبْلُ عمىً لا كرى[3]

لقد كنت احسب قبل الخصيّ
أن الرؤوس مقرّ النّهى

فلما نظرت الى عقله
رأيت النهى كلها في الخصى

وماذا بمصر من المضحكات
ولكنّه ضحك كالبكا

---

٣ ــ الديوان جـ١ ص ٢٤

بهـــا نبطـيّ مـــن اهـــل الســواد

يـدرّس أنســـاب اهـــل الفـــلا[٤]

واســــــود مشفـــــره نصفـــــه

يقـــال لـه انـــت بـــدر الدجـــى

وشـعر مـدحـت بـه الكـركـدنّ

بيـــن القـــريض وبيـــن الـرّقـــى

( أي لأكسب ماله بالحيلة عليه )

فمـــا كـــان ذلـــك مدحـــاً لـــه

ولكنـــه كـــان هجـــو الـــورى

* * *

لبث المتنبي عاماً لا يمدح فيـه الاسود ، وان كان يخرج في موكبه ، وذلك ليستر ما كان يعدّه مـن وسائل الهرب ، فلما كان يـوم عرفة ، أي قبل مسيره من مصر بيوم واحد سـنة ٣٥٠ ودّع الاسود بهذه العصماء الفريدة ، التي جاءت مزيجـاً مـن سوداوية الرومنطيقية ، وحزنا غامـراً والناس في عيـد ، الى حنيـن لافح لعلّه نحـو الكوفة او حلب ، ويأس مدمّر ماحق يقلـب حقائق الاشياء ، ويصبغ الكون بلون الوحل ، والفحم ، والتهمة غير مغفل اشياء السياسة ، العبث الكاريكاتوريّ :

صـــار الخصـيّ امـام الآبقيـن بهـــا

فالحـر مستعبـد ، والعبـــد معبـود[٥]

---

٤ ــ يريد أبا الفضل بن خنزابه وزيـــر كافـور ، او المادراني العجمـي النسابة ، هذا ما يقصده « باهل السواد » .

٥ ــ الديوان جـ١ ص ٢٧٠

نامـــت نواطيـر مصـر عـن ثعالبهـــا

وقـد بشمـن ومـا تفنـى العناقيـــد

العبـــد ليـس لحـــر صالـح بـــأخٍ

لو أنـه في ثيـــاب الحـــرّ مـولـود

لا تشتـــر العبـد الا والعصـا معـــه

ان العبيـــد لانجـــاس منـاكيـــــد

مـــن علـّم الاسـود المخصيّ مكرمـة

أقومـه البيــض أم آبـاؤه الصيـــد ؟

وفي ميميـّة قصيرة لا تتجاوز الثمانية أبيـات يصبّ عليـه ، وعلـى المصريين ، والمسلمين جام غضبه ، ويجسّد بغضه ، وزريته ، ولا يبلغ مبلغ المصوّر ، الماسخ ، فليس هـذا من شأنـه ، ولا يملك الزمن الذي ينفقـه في أشيـاء الفنّ لمجرد اللّهـو الفنّيّ ، مثل ابن الرومي :

من ايـة الطـرق يأتـي نحـوك الكـرم

أين المحاجـم يـا كافـور والجلـمُ[٦]

( مقصّ يجزّبه )

الى :

سـادات كـل أنـاس مـــن نفوسـهم

وسـادة المسلميـن الأعبـــد القـزمُ

أغايـة الديـــن ان تحفـــوا شواربكم

يـا أمـة ضحكـت مـن جهلها الامـم

---

٦ ــ الديوان جـ١ ص ٤٠٢

ومن أغرب غرائب المتنبي الكافوريّة ، أنّه هجاه بيائيّة علـى وزن وروي ّ أخرى كان قد مدحه بها للمرة الأولـى سنة ٣٤٦ ، ولـم يلبـث ان دخل عليه بعد المدحة ، فابتسم الاسود له ونهض فلبس نعله ورأى المتنبي شقوقاً في رجليه ، فلـم يتمالـك من هجائه ، وكتم ذلـك الهجاء ، وفـي هذه التالية يفصح عن دخيلة نفسه وأنه إنما يمدحه في الظاهر . ويسر لـه البغضاء والهجاء :

اريـك الرضا لـو اخفت الناس خافيـا
وما انا عن نفسي ولا عنـك راضيا[٧]

أمينـا وإخـلافاً وغـدراً وخسّـةً
وجبنـا ، أشخصاً لُحـت لي ام مخازيا

تظـنّ ابتساماتـي رجـاءً وغبطـة
ومـا انـا الا ضاحـك مـن رجائيـا

وتعجبنـي رجـلاك فـي النّعـل إنّنـي
رأيتـك ذا نعـل وان كنـت حافيـا

ولـولا فضـول النـاس جئتـك مادحـاً
بمـا كنـت في سرّي بـه لـك هاجيـا

فـان كنـتُ لا خيـراً أفـدت فانّنـي
أفـدت بلحظـي مشفريـك الملاهيـا

ومثلـك يؤتـى مـن بـلاد بعيـدة
ليضحـك ربـات الحـداد البـواكيـا

* * *

٧ ـ الديوان ص ٥٢٠.

على أنني ما اظن ان هــذه القصيدة قيلت الا بعد ان يئس المتنبي من كافور ، فحقــد عليه ، ومنع عنــه مسيراً ، وتوقيتها لا يبعد ان يكــون بعد ثلاثة اعوام من اليائيــة المادحة الأولى .

* * *

لأبي الطيب هجاء مبثوث في قصائــد سوى ما ذكرنا ، وأخطر ما فيها هجو الزمن ، والناس ، والحيــاة جملة ، وذلك نوع من وعــي المصيــر ، ورفض الواقع ، واتهام الوجود باللا جدوى ، والاثــم ، قبــل أن تتركــز الوجودية المعاصرة ، فلسفةً عدميّةً أو التزاميّة .

الآخرون عبءٌ علينا ، أشواك في وجوهنا ، والتخلص منهم صعــب ، والاندماج فيهم أصعب ، فلــم يبــق إلاّ التجمل والصبر ، والنظر اليهــم كلا شيء ، الا في الحالة التي يكونون عليها ممهدين لطريقنا ، وهــــذه الطريــق بطبيعتها مزروعة بالتكاليف ، والشقاء ، وهــذا الــدهر « شــر الدهور » مطرقة لسحقنا ، أفنستكين ؟ كــلا بــل لنزحف ، فــلا موقف الا موقف الصراع ، حتى المصيــر المحتــوم .

* * *

## نموذج ذاتية وهجـاء

من شعره الذاتيّ ، الذي يفصح عن موقفه من القدر ، ورؤية الوجود ، وما يمتد منها الى مرايا تعكس المصير ، خاتمـاً بهجـاء « ابـن كروّس » الاعور ، وكان يقلاه ، ويزدريه ، لأنـه كان ينتقده في مجلس « بدر بـن عمـار » ويتهمه باعداد شعره او انتحاله .

* * *

عذيريَ مـن عـذارى ، مـن أمـور
سكـنّ جوانحـي ، بـدل الخـدورِ[8]
ومبتسـمات هيجـاوات عصـرٍ
عـن الاسياف ، ليس عـن الثغـورِ
ركبـت مشمّـراً قـدمي إليهـا ،
وكـل عـذافـر قلـق الضّفـورِ
أو انـا فـي بيـوت البـدو رَحلـي
وآونـة علـى قتـد البعيـرِ
أعـرّض للرّمـاح الصـمّ نحـري
وأنصـبُ حُـرّ وجهـي للهجيـرِ
وأسـري فـي ظـلام الليـل وحـدي
كأنـي منـه فـي قمـر منيـرِ

---

٨ ــ الديوان جـ١ ص ٣٤٧

فقل في حاجةٍ لم أقض منها
على شغفي بها شروى نقيرِ
ونفسٍ لا تجيب الى خسيسٍ
وعينٍ لا تدار على نظير
وكفٌ لا تنازع من أتاني
ينازعني سوى شرفي وخِيري
وقلة ناصر جوزيت عنه
بشرٌ منكَ يا شرّ الدهور
عدوّي كلّ شيء فيك حتى
لخلتُ الأكْم موغرة الصدورِ
فلو أني حسدت على نفيسٍ
لجدت به لذي الجَدّ العثورِ
ولكني حسدتُ على حياتي
وما خير الحياة بلا سرورِ
فيا ابن كروّس يا نصف أعمى
وإن تفخرُ فيا نصف البصيرِ
تعادينا لأنا غير لكْنٍ
وتبغضنا لأنا غير عثورِ
فلو كنتَ امرأً يُهجى هجونا
ولكن ضاق فِتر عن مسيرِ

لـو أننّـا عمدنا إلـى اختيـار عنـوان لهـذه القصيدة لكـان : الشكوى ، أو السفـر الموصول . ولو فضلنا عليهما عنوانا عصـريّاً ، لجاءت عبارة « غوته » في « فاوست » : « ساكن الريـح والغبار » أدقّ وأحجـى .

الحيـاة سفر ، المقـام غفـوة .

الشكوى من الحيـاة صدىً جوهريّ لصوت الحياة في مهاويها .

الرضا عنها ، مخالف لطبيعتها ، المعبـرة عن كل عناء ، وألم ، وقلق .

لو أن المتنبي اراد أن يقـف أمام مصوّر ليجلو ملامحه ، وهو قـادر على الكشـف عن دخيلته ، لكانـت هذه القصيدة أصدق معبر عن حالتيه في الظاهـر والباطـن .

**مدار القصيدة**

«أ» لا تلمني ايها اللائم ، واعذرني على عشقي عذارى لسن من ساكنات الخدور ، إنهـن قضايا ، وامور في الناس والكون .

«ب» سعيت لاهب المشاعر وراء هذه الامور لأحظى بهـا ، بشيء منهـا ، فلم أظفـر الا بالسراب ، والعدم ، والصِّفر .

«جـ» حسدني الاغيار ، خاصمني القدر ، طمع الاخسّاء فيّ ، حتى لكأنّ الارض بما فيها من وهاد ونجاد حاقدة عليّ .

«د» يا ابن كروّس يا أحقر الناس ، ترفعي عن هجائك يكفي .

* * *

**نثر القصيدة :**

- أشكو منك أيها اللائم على تعلقي بعذارى لا يعاب عاشقهن ، لانهن المكارم وعظائم الامور ، وهن يسكن ضلوعي بدلاً من الخدور . اذا عشق الناس الأبكار ، فانا أعشق الاخطار .

- معشوقاتي الحروب ، فاذا ابتسمت ثغور الحسان للفتنة ، فإن حساني تبتسمن عن الأسياف التي تبرق كالثنايا .

- ركبت مشوقاً ساعر الهوى إلى حساني ، كما يتبطن المحب الفلاة والمشاق إلى من أحب ، وكانت مطيتي كل ناقة جلدة قوية ، تترجرج حبال رحلها نظراً لتموجها في الاندفاع .

- تارة تراني احط في بيوت البدو ، وتارة اقتعد موضعي من ظهر البعير ، فكأنني اسكن بيتاً من الريح ، والضنى ، والحيرة ، فلا يقر لي قرار .

- حياتي ارتحال موصول ، وتعرض للمخاطر لا يفتر ، مرةً تقطع طريقي رماح الطامعين مسددة الى صدري ، ومرة يسبح وجهي الابي الحر في أمواج حرور الشمس .

- وثالثةً أتبطن الليل ، وحيداً مستوحشاً ، ولكنني عزيز واثق من رجولته ، وعظمة نفسه ، فكأن الليل منجاب الحلكة بما لوجهي من ضوء قمري وضاح .

- لماذا كل هذا العناء ؟

في سبيل حاجة عظيمة ، ملكني حب الوصول الى تحقيقها ، ولكنني ويا للأسف ، لم أظفر منها بأيسر اليسير .

- ربما قيل لي « أطلب سواها » فأجيب : انني لا أطلب التافه الحقير ، ثم انظر فلا ارى لي مشبهاً في عظيم قدري ،

وجلال شأنـي .

- أمّا كرمي فممدود لكـل من جاء ينازعني مالي ، فكفي ممتنعة عـن التعرض له ، لكن مـن طمع بمنازعتي شرفي ، ومكارم شخصي تمتـد اليه كفي عندئذ ، وتعرفه كيـف تصـدّه .

- مطامحي لا يساعدني لتحقيقها ناصر ، فتباً لك أيهـا الدهر الـذي حلت بيني وبيـن كـل مساعد ، فجازاك القدر شراً أيهـا العصـر . يا شر العصور ، بما قابلتني بـه من شقاء .

- كل شيء فيـك عدوّ لي أيهـا الزمن ، وكـل شيء يحقد علـى فيـك أيهـا المكـان .

- لماذا يحسدني الحاسدون ؟ أعلى شيء عظيم نفيس ؟ إذن لجدت بـه على من يستحقه من اصحاب الحاجه .

- لكن الحاسدين يسرفون فـي حسـدي علـى حياتي . ليأخذوها إن استطاعوا ، لا خير فيها فهي خاليـة من المسرّة .

- وأنت يا ابن كروّس ، يا شؤم الحاسدين ، الا تنظر الى حقارة نفسك ، وبشاعة خلقتك ؟ فتكفّ عن التعرض لاعاظم الناس .
أنت نصف بصيـر إن تفخر ، ونصـف أعمى إن تهجَ .

- عداوتك لي لأنك مغلق وأنا فصيـح ، وأنـي مبصر وأنت أعور .

- أنت حقير لا تستحقّ أن ألتفت إليك فأهجوك ، فانا لا أنصب هجائي إلا لاصحاب المكانة المرموقة ، سواك ، فكيفه يتسنى لي أن أسير في مسافة لا تتجاوز طول الأصبع ، فالسيـر معقول في الاماكن الرحبة ، كالهجاء لا يسري الا على أصحاب المقامات .

❋ ❋ ❋

مقدارها :

طبيعة حب الحياة فينا أقوى الطبائع ، تليها غريزة حفظ النوع ، الجنس .

من الناس من يغالون في تحقيق نوازع واحدة من تلك الغرائز ، ومنهم من يصعّدون .

التصعيد يجيء بالامعان في جو الدين ، أو الرياضة ، أو العمل الاجتماعي ، أو أي موضوع يهتم له البشريّ ، فيوجّه اليه طاقاته الحيويّة ، فيصبح هذا الموضوع حالاً محلّ الأنثى ، يعوض به عن شره الشهوة

* * *

النؤاسيّ أصبحت الخمرة أنثاه الكبرى .

ابن الرومي حلّت الطبيعة عنده محل المرأة .

المتنبي هام بالمجد والقوة مكان هيامه بامرأة .

المتنبي قال في موضع آخر من ديوانه :

وغير فؤادي للغواني رميّة

وغير بناني للزجاج ركاب[9]

تركنا لأطراف القنا كل شهوة

فليس لنا الاّ بهن لعاب

هذا المعنى يوشك أن يكون كوكب المتنبي الدرّي ، يخطفه

---

٩ ــ الديوان ص ١٣٥ جـ١ وهي آخر كافورياته سنة ٣٤٩ هـ القرن العاشر الميلادي تقريبا .

بريقه ما للنجوم الاخرى في فلك وجوده .

المعنى الثاني الذي يتردد في شعره ، ويبرز في هذه القصيدة بشكل مستحوذ على الشؤون الاخرى هو السفر الموصول ، فقدان الاستقرار ، نكران الوطن ، الشكوى من القلق والوحشة ، وهو القائل في سواها من القصائد :

يقولون لي ما انت في كل بلدة

وما تبتغي ؟ ما ابتغي جلّ أن يسمى ،

قال :

غنيّ عن الاوطان لا يستفزني

الى بلد سافرت عنه إيابُ

ايضا :

اذا ترحّلت عن قوم وقد قدروا

ان لا تفارقهم فالراحلون همُ

الثالث غيوب ، ومجاهل طموحه ، هذا السراب الذي أسره بريقه وتموجه فحمل اليه بين اهدابه عطشاً لا يرتوي ، وسعاراً لا يهدأ ، ولهبا لم ينطفىء .

وعي المتنبي وجوده ، وعي الفنان الذي لا تخفى على بصيرته عبر الماضي ، ولا مصاير الآتي ، فاللعبة الكبرى على مسرح الكون فَهِمَ دقائق حركاتها هذا الشاعر العبقري ، وصوّرَ فكره وشعوره ازاءها .

بذا مشى ، المتنبي في الصف الأول من كبار الموهوبين ، وتلاقت نظرته مع العظماء من الشعراء ، والمسرحيين ، والروائيين ، والمجسّمين ، والفلاسفة والرسل . وبذا عدّ واحداً منهم ، متميّزاً بشاعرية نادرة على الدهور .

أما الشكل الشعريّ في هذه القصيدة ، فهو لا يختلف عن

سائـر شعره ، مفردة مختارة ، ذات دقـة فـي الدلالة ، والاشتقاق ، وذات صحو في التركيب ، الى جانب ضجة جليلة توزّعها كموسيقى الحـرب على الجواء ، في وزن شعري يلائم زحف الجيوش ، وتفجير كوامـن النفس القلقة ، الحانقة على العالم ، والكـون •

ولولا أن الشاعر ، ختمها بثلاثة ابيـات في هجاء دعيّ اسمه « ابـن كروّس » لجاءت قصيدة ذاتية ، وجدانية ، تعبر عن اعماقـه ، ومشارفه ، باكتمال يشبه اكتمال السمفونية الڤچنريّة ، ولرسمت خطوط وجوديّة كانها من لهاث العصر الراهـن •

اذا كانت الآثـار الفنيّة تقاس بمقدار ما توحي ، وترسم بصـدق ، وتتناول المحدود واللانهائيّ ، فـإنّ هـذه القصيدة عمارة تجلـو للعين جماليـات التّعميـر ، وتفتح للخيـال كوى على الابعاد ، وتعقد بينه وبين كامو ، وكافكا ، وبيكت عقود اسرة واحدة ! عكست أصداء بعيدة الغور من صوته الداخليّ ، كشفت لنا عن صورة مجتمع فيه الظالم ، والدعيّ ، والحاكـم المتسلط ، والطامع الذي لا يلتفت الى سـواه ، وعصر قلـق ، سوفسطائيّ ، متمزّق •

الى رؤيا مصيرية للحياة ، مثلما هي رؤية في واقع الناس •

مسرحيات اليونان ، فلسفات الشـعوب ، الرّيشات ، والأزاميـل ، والالحـان ، حتى والكتب الدينية لم تقـل اكثر مما قاله المتنبي ، واشـار اليـه ، أو كتمـه في أعمـاق أسفه ، فهل كانت رحى الصراع في مسرحيات سوفوكل ، واسخيلوس سوى هـذه الرحى المتنبويّة ؟ القدر ، هذا هو رعب الفنان ، والمتنبي جابه قدره ، مجهولـه بكبرياء نيتشوية ، فرضهـا على التاريخ ، وفلسفها صاحب «هكذا تكلم زردشت» بعده بمئات السنين، فهو وحده ، وإن كان مسبوقا بجورجياس ، وبروطاغوراس ، مع اختلاف ، فهـو مبدع فكرة الانسان الاعلى ، ومجسّدها في شخصه كمحاول ، وشعره كمبيـن ، فنـان ؛ ولـذا استحق ان يكون واحـداً من اعظـم شـعراء الدهور ، وأخطـر خصماء القـدر •

* * *

بقي أن نشير الى تميّز استخدامه حروف الجرّ استخداماً مرعياً ، متعدداً ، ذا دلالات ( من عذارى ، من امور ) ( كأني منه في قمر ) ( على شغفي بها ) ( الى خسيس ، على نظير ) ( على حياتي ، بلا سرور ) .

كذلك اللجوء الى جمع التأنيث السالم ، وهو في اللغة يشير الى جمع القلّة ، مثلما يشير الى الامتداد ، والقوة ، ( ومبتسمات هيجاوات ) ومنه كثرة استعمال الالف اللينة ، كناية عن المدى الفسيح ( مبتسمات ، هيجاوات ، الاسياف ، الرماح ، ظلام ) فهل تأثر المتنبي بسيمائيات ابن حيّان ؟

أمّا ظهور الاسم النكرة في شعر المتنبي بكثرة ، حتى أنه لا تخلو منه قصيدة من قصائده ، فهذا عائد الى هاجس المتنبي الموصول ، اللصق بذات دخيلته ، والمعبّر ببلاغة ملحوظة عن مجهوله ، والبلاغيون يجعلون استخدام النكرة لغرض سامٍ ، شعريّ ، موحٍ ، وذلك كي تذهب النفس في تفسيرها كلّ مذهب .

ثم إن النكرة مبهمة من جانب ، موسيقية من آخر ، وهي من ملائمات الشعر ، والرمز فيه ، اكثر من المعرفة .

اطاعن خيلا من فوارسها الدهرُ

وما ثبتت الا وفي نفسها أمر

يقولون لي ما أنت في كل بلدةٍ

وأني لمن قوم كأن نفوسهم

ومثلها في هذه القصيدة :

عذيري من عذارى ، من أمور

ومبتسمات هيجاوات عصرٍ

فقل في حاجة لم اقض منها

ثم إن تسمية الاشياء ، صدىً لشخصيّتها كما يقول فقهاء اللغة ،

أو محاكاة أصواتها ، والصوت من جوهر الشيء ، لذلك قرر ابن حيّان ، وهو احد عباقرة العرب أن الاسماء جواهر المسميات .

وفي الشعر الرمزي ، اعتماد هام ، أصيل على موسيقية اللفظة ، وما توحيه ، حتى أن بعض الفنانين غالى في تقدير المفردات ، فقال : « هنالك لفظة شعريّة ولفظة غير شعرية » وإن كان المفهوم الحديث للشعر يجعل الالفاظ متساوية والعبرة بقدرة الشاعر على الانتقاء ، والرصف .

أما اصحاب الدادائيّة ، والكولاّج ، فهم يعتبرون ان كل شيء في الوجود صالح للشعر ، والفن ، يريدون شعرا يشمّ ، ويلمس ، ويشرب .

من هنا بدا لنا ما في انتقاء الفاظ خاصّة ذات دلالة في شعر المتنبي ، ليبوح بمعناها ، وشيء آخر يترك المجال فيه للسامع ، مثل اختياره لفظة « عذافر » لراحلته التي تحمله بصبر ، وقوة ، وتمادٍ .

واهم ما في لفظة « عذافر » حرف الذال ، مقرونا الى العين والفاء ، والعين حرف حلقي ، حاد ، والفاء حرف إطباقٍ ضاغط ، اما الذّال فهي حرف راعش ، ديناميكيّ ، متفجّر .

كما ظهر أثر المنطق والرياضيات ، ظهوراً دقيقاً يسمح به الشعر ، وإن كانَ أقل منه لدى « ابي تمام » استاذ هذه المدرسة :

فيا ابن كروّس يا نصف أعمى
وإن تفخر فيا نصف البصير

والحجاج البرهاني في :

تُعادِينا لأنا غيرُ لُكْنٍ
وتبغضنا لأنا غير عُور

والجملة الشرطية في :

فلو كنت امرءاً يهجى ، هجونا
ولكن ضاق فتر عن مسير

* * *

في الطبيعة فصول ، كـذا في التاريخ ، ولدى الامكنة •

سهل ينتهي بواد ، والوادي يسند الجبل ، وقبالة علو الذرى ، مثلها في عمق البحار •

اثنان وعيا الوجود في حضارتنا بشمول ، ذاك مشى فيه مجلجلاً ، شاغلا الاسماع والعقول ، والثاني همست خطواته حتى ما كاد يسمع ، روّى ، شكّ ، أملى ، ثم رفس الدنيا بقدميه ، ومطّ فمه ساخراً ، مشمئزاً ، فاتحا ذراعيه لموتٍ يُريحه من الحياة والاحياء •

أبو العلاء ، أو خصم الحياة الاكبر ، هدم الكون ، ثم بنى في قسة من قممه صروحاً ، من أشلائه ، والمتنبي صانع حياة فوق الحياة •

الشاعران وجوديّان ، عدميّان ، ضجّ في شعرهما لا معنى السوفسطائيّة ، ، وباطل سليمان ، وضلال فاوست ، وقلق هملت ، وعدمية شوبينهور ، وتلاقيا بكبار المستشرفين في تاريخ البشر ، اولئك الذين اتّهموا الانسان والحياة ، ورفضوهما ، واعلنوا عن بديل ، ولكنه ــ للاسف ــ لا يأتي ، ولن •••

* * *

# فخــر المتنبــي

(أ) كلمة فخر ــ الفخر والاسطورة ــ الفخر والملحمــة ــ الفخــر في الشعر العربي •

(ب) التعويض ــ التخطّي ــ رؤيا في المطلق ــ فــرع من المــدح ــ موضوعات الفخر : الذات ــ النّسب ــ الفهم ــ الشمائل ــ الأمّة •

(جـ) دواعيه : موقــع من الوجود ــ المــزاج الفسيولوجي والمنــزع الاخلاقيّ ــ الحقد على الآخرين ــ الغلاب السفسطيّ ــ الدهــر العدوّ ــ العُقد ــ رفض الواقع ــ تهمة الوجود ــ الإنكار •

(د) المثل الاعلى في الفخر : المثال الافلاطوني ــ الإمــام القرمطــي ــ الإلــه الاولمبيّ ــ الشّعر ومطلقه ــ السّيطرة على العالم ــ وعــي الوجود الشمولي ــ الانسان المتفوّق مطلقا ــ تأليــه الذات •

**مراجــع :**


١ ــ فخره مبثوث في قصائــده ومقطّعاته من الديوان • (البرقوقيّ)

٢ ــ نموذج : الرائيّة ذات المطلع : « أطاعن خيلاً » ج ١ من الديوان ص ٣٥٢ قالها في مدح « عليّ بن عامر الانطاكيّ »

٣ ــ فخر أبي نؤاس وابي الطيّب : لعبد الغني باجقني ص ٥١ •

٤ ــ فيض الخاطر : لاحمــد اميــن ــ القوة فى شــعر المتنبي ص ٤ و ٧٣ و ٩١ •

٥ ــ مجلة الرسالة : المتنبي وسر عظمته لعبد الرحمن شكري جـ٧ ص ١٥٣

٦ ــ مجلة الكاتب المصري : لعلي ادهم ــ ابو الطيــب بيــن الغرور ، والطموح ، والحزن جـ١ ص ٤٩٧

٧ ــ مجلة الأمالي : لانيس المقدسي ــ الفتوة العربية في شــعر المتنبــي وحياته جـ٤ ص ٣٢

## الفخر

### في شعر المتنبي

مادة « فخر » تفيد التعالي ، والتزيّد ، فحرف الفاء للصّفير الممتدّ من داخل الصدر ، إلى الشفتين ، والخاء حرف يخرج من جوف الفم الاعلى ، وكأنه عكس الفاء التي لها استطالة فوق ما للخاء ، اما الراء فهي للتموّج الحادّ الراعش .

شخصية الحرف ، ملموماً الى سواه ، تصوّرُ المعنى المقصود من كل لفظة . فالفاخر تبعاً لذلك متعالٍ ، مستطيل ، معتدٌّ بماله ، تأكيداً لذاته .

وقد درج النقّاد ، والرواة على اعتبار الفخر فرعاً من المدح ، إنه مدح الذات ، وهو يتنوع الى فخر الشاعر بنفسه ، بعشيرته ، بأمته ، وفخره بنفسه يتناول نسبه ، وشمائله ، وبطولته ، وفهمه .

فخر عنتره بنفسه ، وبطولته ، وشمائله ، وحاتم بكرمه وفروسيته . وفخر عمرو بن كلثوم بقبيلته تغلب ، وقبالة ابن حلزة اليشكري البكريّ من عمومته . والفرزدق التفت الى ماضي بني تميم ، وفعل جرير مثله ، وجاراهما بشار ولكن بأسياده المضريّين ، وقومه الشعوبين .

أما ابو نؤاس فقد هان عليه الناس فيما يريده ، وأبان اللاّحقيّ جمع الفضائل في شخصه ليزهو في عَيْنَيْ سيّده البرمكيّ ، وقلّده ابن الرومي بعد ذلك ناسجاً على منواله بأنه يتقن الصناعات والفنون جميعها ، وفوق ذلك فهو أبرع الندماء والطفهم .

أما فخر شاعرنا أبي الطيب ، فهو من ذلك جميعه ، وأبعد من ذلك جميعه ، فالرجل لم يعتمد على سابقةٍ من مجد القبيلة ، او لاحقةٍ من سلطان الولاية ، أو مكارم يوزعها في الناس ، إنّما هو كائن حيّ وعى عصره ، وأدرك سر اللعبة الكبرى ، تلك الحياة ، فعرف أنها تبدأ من

الصّغر ، وتنتهي الى الصّغر ، وأنه مع كل عدميّ مصيريّ متوافق لكنه يتوانى عن أن يلتهم الحياة جملة إذا رفضها سواه جملةً ، ثم تلفّت ، وروّى فوجد الناس تأسرهم شهوات الحسّ الاغبى ، وأن الاخلاق براقع ذئاب تلبسها ليسهل عليها الغدْر بالآخرين ، وهؤلاء الحكام :

أرانـــب غيـــر انهـــم ملـــوكٌ

مفتحـــة عيـــونهـــم نيـــام[1]

فلماذا لا يـرى نفسه أسمى من هؤلاء جميعـاً ؟

ينساق الملهم الى التغني بمزاياه ، ساعة يُضام ، أو يغفل الآخـرون عن تقدير شمائله ، ويرى سهام الغربة تلسـع جبينه ، واقدار الوحشـة تنهش عينيه ، فيصيح ، ويدقّ صدر الارض بقدميه قائلا : « أنـا هنا » لا ليسمع الناس ، بـل ليُسمع نفسه .

في ديوان ابي الطيـب قصيدة ميميّة ، استهل بها شاهداً من قصائده المزروعة بالفخر ، لا لزمنها ، أو لتفردّها ، بـل لأن المتنبي نفسه حـدّد فيها شرط الفخر ، وهل استطيع أنا ابن القرن العشرين أن اقوّله ما لا يريد هو أن يقوله ؟ ربّمـا .. وإني لأكمل ما ألمح اليـه ..

لا افتخـــار إلاّ لمـــن لا يضـــام

مـــدركٍ او محـــاربٍ لا ينـام[2]

الفخر للبطـل الذي تعالى على قَدَرِه ، وفاق سائر الناس ، فلـم يقدروا على الحاق الضيم بـه ، ثم الذي ادرك مرماه البعيد في المجـد ، سواء كان مستحقاً او غيـر مسـتحق ، فهيـماً ام مغلقاً ، والثالث ذلـك الفارس ، الذي يصارع زمنه ، وأعاصيـر الناس ، ومكائدهم ، يفترش الصراع ، وينهض مع الكر والفرّ ، وينام وعيناه مفتوحتان عـلى معركة ،

---

١ ـ الديوان جـ٢ ص ٣٣٩

٢ ـ الديوان جـ٢ ص ٣٥٦

فهـــو ابداً يفتش عن ميدان جديد لسلاحه ، ومشارف عزائمه .

أعتقد أن المتنبي صنّف نفسه من هــذه الفئــة الثالثة الاخيرة :

ومــا انــا غيــر سهــم في هــواءٍ[٣]

على قلــق كــان الريـــح تحتـــي[٤]

ولــولا انتــي مــن غيــر نــوم[٥]

ثم ينتقل الشاعر من فنن لاهب بنــار العزّة ، الــى ذروة جاحمــةٍ بقواذف الكبرياء البركانيّة ، ويستطيــل حتى يصل نفسه بالملإ الاعلى ، ناظــراً الى الناس من فــوق وكأنه « سوپرمن تتيشه » الذي استعلى على نفسه ، وعلى العالــم ، وبدا كأنّه الاول والآخــر ، ذلــك الذي ترتعــد الارض من خطواتــه .

هذه القصيدة مدحيّة" وجهها الى علي بن احمد المــرّي الخراساني" ، وقــدّم لها بتلــك الشعلة الأبيّة ، كانــه مشرع يضع نصوص القانون الذي بــه يكــون الفرد البشري مفتخــراً ، يبرّر فخــره ، ويستحقّه ، توصلا الى مدح ذلك الرجل المجيــد الذي أتاح له صاحب ميزان الفخر ، المتنبي ، أن يكون كما أراد لنفسه ، وكما رضي عنه الشاعر .

لكن ما للمتنبي يستأنف ضجيجه ، ودويّ جناحيه علــى أعاصيــر الغضب ، ويسرف متحدثاً عن نفسه قبل ان يصل الى ممدوحه ؟

هذا شأن من شؤونه ، هو الأول ، وهــو الآخر ، وهــو الكــلّ ، والآخرون يكفيهم أن يكــون لهم نصيب من عطفه ، فيضعهم حيث شــاء من سجل المحامد ، والرجل على عظمة شاعريته في نفوس معاصريه وعلــى ما الشعــر المدحــي مــن قيمة آنــذاك يقبلــون منــه مــا لا يقبلــون

---

٣ ــ الديوان جـ٢ ص ١٧

٤ ــ الديوان جـ٢ ص ١٦٠

٥ ــ الديوان جـ٢ ص ١٥٩

من غيره ، بل هم ملزمون بالمصانعة ، والصبر ، والتغاضي ، والسخاء .

ضاق ذرعاً من ان أضيق به ذرْ
عاً ، زماني ، واستكرمتني الكرامُ[6]

ميزة المحارب الذي لا ينام الحذر ، والصبر ، وهو هذا الذي طلبت الكرام منه أن يزيد في عطائه ، فنخبة الناس عرفت قدره ، وتمنت عليه ان يزيد في محامده ، فهو فوق الزمان ، وأقدر منه ، وأعظم مدىً في مطلق الكون :

واقفاً تحت أخمصي قدر نفسي
واقفاً تحت أخمصيّ الأنامُ

— لا ادري كيف كان ممدوحوه يستسيغون منه كل هذا التفاخر . وبعض ذلك التعاظم ؟

— يعرفونه ، ولا يجدون غضاضة في ذلك ما دام هو في موقف المادح ، وهم في مشرف الممدوح .

هذا البيت وحده يرسم لنا صورة المتنبي التي ارادها لنفسه ، ورسمها كمثل أعلى لكل بشريّ ، فماذا اراد أن يقول ؟

— نفسي أعلى شيء في الوجود

— أنا كانسان موزع في نفس وبدن ، أقف تحتها .

— البشر جميعاً تحتي .

* * *

استخدم كلمة أخمص ، وثنّاها ، والاخمص باطن القدم ، فجعل للنفس قدمين لهما أخمصان توصلاً الى كل هذه المعادلة الرياضيّة ، ليثبت

---

٦ ـ الديوان : جـ٢ ص : ٣٥٧

لنــاأنه فوق البشر ، وليذكرنا بأن المتمذهب بالقرمطيّة يؤمن بعنصر الهي كامن في الإمــام ، وأن هــذا العنصر الالهي بوح عن بعض فروع المذهب الشيعي ، وأن الشيعة تأثرت بالحلول الهندي من جهة ، وبمثالية افلاطون من جهة أخرى ، فعنــد أفلاطون الجمهوريّة أن القمــة هــم الفلاسفة ، والوسط هم المدافعون ، والاسفل اولئك الصناع والعمال والتجار .

فانظر كيف استخدم الهرمية الهندسية ، الملحوظه في مثالية افلاطون ، وعددية فيثاغورث لا لشيء الا ليشغل الناس ببيــت من شــعره اراد أن يفتخر بــه على كل حيّ في هــذا العالم .

ــ هنا ، قد يسأله أحد الناس : « لماذا تمعن في تعاليك يا ابا الطيّب ؟ »

ــ فيجيــب :

أقــــراراً ألــــذّ فــــوق شــــرار
ومرامـــاً أبغـــي وظلمـــي يـــرامُ ؟

استفاد المتنبي من أسلوب ابن الرومي النثريّ ، الذي عرف بالتقرير ، والتفصيل ، والشموليّة ، فبعد ان قرّرَ أن الفاخر الحــق أحد ثلاثة : من لا يضام ، ومدرك المجد ، والمحارب الذي لا ينام جاء يردّ على السـؤال بسؤال آخــر : « كيف أبغي سوى الحرب ، وفي الدنيا من يــودّ أن يظلمنــي ؟ »

ــ وماذا أخذ منك هؤلاء الظلاّم ؟ وكيف جعلوا هَمَّهُمْ أن يظلموك ؟

ــ لأنني انا المدعوّ للسيطرة على العالم ، وما داموا قد أخذوا منــي منصــب الذروة ، عرش الامام المطلق التصرف بأقدار الناس ، فلن اكف عــن النضــال .

واخذ يفصح شيئاًفشيئاً عن هــذا المقصد المتقرمط ، وكانه ينفخ في بوقــه فيقــول :

دون أن يشــرق الحجــاز ونجـــد
والعــراقــان بالقنـــا والشـــآمُ

بذا نجد أن فخر « احمد الجعفيّ » مشوب بالسّياسة ، تكاد تكون محور نثاره ، ومثار غبـاره ، ومعركة ليلـه ونهاره ، ألـم يقـل فـي مقصورته المشـهورة :

لِتعْلــم مصــر ومـــن بالعـــراق
ومــن بالعواصــم أنـــي الفتـــى[7]

ومــن يـــك قلـــب كقلبـــي لــــه
يشـــقّ الـى العـــزّ قلب التّــوى[8]

هذا المعنى ، المطمح ، الغاية التي يرضى المتنبي بها علـى مضض أن تلين له ، الا وهي حكـم العالم ، مردد في شعره الفاخر ، ولعل ميميّته التي منهـا الابيـات التالية تفصح عما رمينا إليــه :

ليـس التعلــل بالآمــال مــن أربـــي
ولا القناعــة بالاقــلال مــن شيمـــي[9]

ولا اظـــن بنـات الدهـــر تتركنـــي
حتـى تســـدّ عليهــا طرقهــا هممـــي

* * *

سيصحب النصــل منــي مثـل مضربــه
وينجلــي خبــري عــن صمّــة الصّمم

---

٧ ـ الديوان جـ١ ص ٢٨
٨ ـ هذه القصيدة قالها يهجو كافورا بعد أن خرج من مصر ، وفيها يبدو أثر قرمطيته من جهة ، وجنون مطامحه التي لا تحد من جهة اخرى ،
٩ ـ الديوان جـ٢ ص ٣١١

لقـــد تصبّـــرت حتـــى لات مصطبـــر

فالآن أقحـــم حتـــى لات مقتحـــم

لأتركـــنّ وجـــوه الخيـــل ساهمـــة

والحـــرب اقـــوم مـــن ســـاق على قـــدم

الى : بكـــل منصلـــت مـــا زال منتظـــري

حتـــى ادلـــت لـــه مـــن دولـــة الخـــدم

شيخ يـــرى الصلوات الخمـــس نافلـــة

ويســـتحلّ دم الحجـــاج فـــي الحـــرم

تنســـي البـــلاد بـــروق الجـــوّ بارقتـــي

وتكتفـــي بالـــدم الجـــاري عـــن الديـــم

وقوله عن نفسه :

ان لـــم اذرك على الارمـــاح سائلـــةً

فـــلا دعيـــت ابـــن ام المجـــد والكـــرم

* * *

ميعـــاد كـــل رقيـــق الشفرتيـــن غـــداً

ومـــن عصـــى مـــن ملوك العرب والعجم

فـــإن أجابـــوا فمـــا قصـــدي بهـــا لهمُ

وإن تولـــوا فمـــا راض لهـــا بهـــمِ

* * *

روى « البديعي » ، « صاحب الصبح المنبي » : قال : قال ابو عبدالله معاذ بن اسماعيل : قـــدم المتنبي اللاذقية ســـنة نيفٍ وعشرين وثلاثمائة

وهو فتىً فأكرمْتُهُ وعظمته لما رأيت من فصاحته وحسن سمته ،
فلما تمكن الأنس بيني وبينه ، وخلوت معه في المنزل اغتناماً لمشاهدته ، واقتباساً من أدبه ، قلت والله إنك لرجل خطير تصلح لمنادمة ملك كبير ، فقال : ويحك اتدري ما تقول ؟ أنا نبيٌّ مرسل ، فظننتُ أنه يمزح ، ثم تذكرت أني لم اسمع منه كلمة هزل قطّ منذ عرفته ، فقلت له ما تقول ؟ فقال انا نبي مرسل كما ذكرت ، فقلت مرسل الى من ؟ فقال إلى هذه الامة الضالة المضلّة . قلت ماذا تفعل ؟ ، قال املأ الدنيا عدلاً كما ملئت جوراً . قلت بماذا ؟ قال بادرار الارزاق ، والثواب العاجل والآجل لمن اطاع وأتى ، وضرب الاعناق لمن عصى وأبى ، فقلت له إن هذا أمر عظيم أخاف عليك منه أن يظهر ، وعذلته على ذلك ، فأنشد يقول بديهاً ، وذكر الابيات . »[١٠]

لا مرية في أن البديعيّ صاحب كتاب « المبني عن حيثيّة المتنبيّ » من أولئك المحافظين ، الذين لا يرضيهم رجل « كأحمد الجعفيّ » متّهم في السياسة ، والدين ، ومتطاول في الاخلاق ، وعبقريّ في الشعر يثير الحسد ، والتنافس ، والقيل والقال ، والرواية ظاهرة التّهافت خاصّة أنه يشير الى الابيات السابقة وأنها قيلت على البديهة وهذا محال نظراً الى أثر الرويّة ، والاعمال فيها ليتسنى لها أن تعبر عن خطّه السياسيّ ، ومكنون أمره الذي يعدّ نفسه له . على أن لنا في الأبيات غنيةً عن رواية البديعي ، وشرح كل واحديّ ، او عكبريّ ، ونقد أيّ عبّاديّ ، وتوسط أيّ جرجانيّ ، فنحن على بعد الشقّة بيننا وبين القرن الرابع الهجري ، نعي بفضل أساليب النقد الحديث ما قاله وباح به الشاعر ، وما أضمره وأفصحت عنه حواشي السطور .

فالشاعر « حسب الرواية يود أن يملأ الدنيا عدلاً كما ملئت جوراً » وهذا قول رسميّ ممن أخذ بمذهب الشيعة ، وفروعه القرمطيّة ، وما يمكن أن ينتظره أولئك الناس من الإمام المرتقب[١١] ... كذلك فإن

---

١٠ـ حاشية البرقوقي على الديوان ص ٣١٨

١١ـ من الشائع المقرر أن بعض فرق التشيع تنتظر محمد بن الحنفية الذي لم يمت ، والذي سيعود ويملأ الدنيا عدلا كما ملئت جورا ( انظر فجر وضحى الاسلام لاحمد امين وزكي محمود ) .

« إدرار الارزاق ، وتعجيل الثواب أو تأجيله » من ملامح ذلك المذهب ، وهو يشكل منطلقاً اقتصادياً يشبه ان يكون أحد منطلقات الاشتراكية الحديثة ، أو توطئة لها •

في الابيات السابقة فخر بالذات ، ولكن هذه الذات مسؤولة عن قدر اجتماعي ، وسياسيّ ، تحملت تبعاته ، وسعت الى غاياته ، وتوسلت لذلك بتلك الوسيلة التى حام حول محورها شعر المتنبي الفاخر ، والمادح، والحكيم في مختلف مراحله ، الا وهي « السيطرة بالحرب » • « ولا أظن بنات الدهر » وهي مصائبه ، وعقباته ، تلك التي ارصد لها همه بالجمع ، لا بالمفرد ، فشؤون حزبه الباطني مُنْدغمة في شأنه ، وسيقتحم ، ويعلن إذ قد طال أمَدُ اصطباره ، وستكون الخيل معبّرة على صراعه في سهومها ، وذهولها لانها تعلم أيّ خطر يدفعها القائد اليه ، ومعه كل شجاع منصلت كالشهاب ، كان ينتظره طويلا ليمحق به دولة الخدم في بغداد والامارات المختلفة في عصر الدويلات ذاك ، بالاضافة الى غيبيّة التعبير بـ « ما زال منتظري » وما فيها من ارهاصة مستمدّة من المسيحية القائلة بالرجعة ، والظهور ، وتبني الباطنيات الاسلامية لها كبعض مذاهب الشيعة •

- ومن هو ذلك المنصلت القحام الذي سيمشي في زحوف المتنبي ؟

- إنه شيخ قرمطيّ ثائر ، لا يتبع مذهباً من المذاهب المعروفة المألوفة ، بل هو مشترع مذهباً جديداً به يرى الصلوت الخمس التي هي من أركان الاسلام نافلة لا تستحق كل ذلك العناء ، وهو يضحك من حماقة الحجاج ، والحج فرضٌ أصيل من فروض الدين كالزكاة ، والقتل محرّم ، لكن أتباع المتنبي يستحلّون القتل ، ويهزأون بمن حجّ وصلّى ، فمذهب جماعته الجديد لم يعد اسلاماً ، أو مسيحية ، او مجوسيّة ، إنه شيء قرمطيّ متميّز ، نبع من السياسة والاقتصاد ، ولبس ثياب الدين ، وتوخى حكم العرب والعجم •

- وماذا يستطيع ان يفعل مغرور نفّاج كابن سقاء الكوفه ؟

تنســي البــلاد بــروقَ الجــو بارقنــي

وتكتفــي بالــدم الجــاري عــن الــديم

تأمّل كيف يحشو هؤلاء الدعاة دماغ شاب كأحمد الجعفيّ ، وكيف يستغلّون عُقده ، ونزوة شبابه ، وشاعريته العبقريّة ، فــلا يكفّون ، ولا يكفّ عن التغنّي باراقة الدماء ، هذه التي سيجريها انهــاراً وبحاراً ، تغني عن السحــب .

وما دام الامر كذلك فلا بأس من التنازل للقــدر فيما لــو أخفق ، عندئذ لن يكــون ابن عبدان السقاء ابن امّ المجد والكرم ، وهو قمين بأن يحقق الوصول الى أغراضه ، استجابة لابويــه العظيمين : المجد والاصالة .

ــ هــذا فحســب ؟

ــ كلاّ !! فإن ملوك العرب والعجــم ، فــي القارات المعروفة آنذاك ، اوروبة وافريقيا وآسيا ، سينالهم من احمد الجعفيّ عقاب أقله قطــع الرؤوس اذا لم يذعنوا .

غير أن كل ما سبق لا أهتمّ له لوضوحه ، اهتمامي للبيت الاخير ، خاصةً « بهــا » في الشطر الاول ، و « لها » في الشطر الثــاني ، فإلــى من يعود ضمير المؤنــث ؟

لا يجيــب على ذلك شرّاحه ، كما انّه لم يشــأ ان يجعل الامــر ميسور الاستكناه ، وقد علمنا أنّ الرجل ســوف لا يقف عنــد حــدود السّيطرة على ملوك العرب والعجم ، فإذعانهم له ليس كــل مــا يريد ، واذا تولّوا ولم يستجيبوا فلا يرضى بسحقهم تحقيقاً « لهــا » فمــا هي هذه ؟ وهل أفصح طه حسين ، أو سلفه بلا شيــر عنها ؟

يجيب عنها المذهب القرمطيّ ، وما هي غير « ألوهة الانسان » تلــك التــي وطّأوا بهــا لمــا يسميه الفرنسيون :« SUR HOMME وما يدعوه الالمان « السوبرمان » وما انطلق متلملماً كالرعشات العصبيّة في ثنايا البحر ، ليتحامل موجــة ، ثم يتعالى عــراماً ليفقش علــى الشّطّ .

وذلك أحد مواقف المسلمين من الامام المعصوم ، والانسان الكامل ، ومن عدوى الفكر الأفلاطوني من جانب ، والسوفسطائي من جانب آخر . ولكنها عدوى أصبحت مذهبا لشاعر شاب القي في حضن وجود قلق ، وهامت نفسه بمثل أعلى بعيد .

ثم أيكون المتنبي قد شرح « بها » و «لها » بقوله :

أي مكان أرتقي أي عظيم أتقي[١٢]

وكل ما قد خلق الله وما لم يخلق

محتقر في همتي كشعرة في مفرقي ؟

* * *

واذا كان هذا الجعفي متخطياً الانسان ، تخطي سليمان النبي ، حيث وصلت عناصر الطبيعة ، وحيواناتها ، ووسائل الحرب ، والفكر ، انى معرفته :

فالخيل والليل والبيداء تعرفني

والسيف والرمح والقرطاس والقلم[١٣]

فانه من جهة أخرى صخرة الوادي اذا ما زوحمت ، وكوكب السماء الذي يخفى على العين العشواء ، او العمياء وانه نجم تهتدي به رفقته ، وهو غني عن الاستقرار في وطن ، وعن شرب الخمرة ، ومغازلة الغواني ، وانه كالمسيح بين اليهود ، وصالح في ثمود ، وتارة مفترشه صهوة الحصان ، او موج الريح ، وأن فخره بنفسه هذه الذي يغير الدهر كل شيء سواها ، إلا ها ، وما يكمن في هذا القول من استيحاء نظرية الجوهر الفرد لدى الكلاميين والمناطقة ، وليس هو ممن يفخر بجدوده ، وما تعزيه الا لايمانه بعظمة نفسه ، رافضا الانصياع الى أي امير من امراء

---

١٢ــ الديوان جـ٢ ص ٤٨٢

١٣ــ الديوان : جـ٢ ص ٢٦٢

عصر الدويلات ، فهو لا يرى غير الله حاكما له ، واذا كانت جدته لا تفخر باكرم والد نماها ، فحسبها مجدا أن تكون جدته هو ، وذلك نسب يغني عن كل نسب .

المتنبي شاعر ملتزم . اتبع مذهباً من مذاهب الباطنية . آمن بقدرته الهائلة ، عرف الدنيا ، طمع بتحقيق السيطرة ، فتصدت له الاقدار ، ولم يجد سوى شعره يصارع به تلك الاقدار ، فهو ابدا يسكن الغضب والريح والغبار .

لعل القائد العسكري ، والشاعر العبقري ، والسياسي المناضل ، والوجودي الرائي ، اجتمعوا في شخص المتنبي ، فاذا به شيء آخر سوى السيد الحميري ، ومروان بن أبي حفصة ، ملتزم بخط سياسي كوني لا يقف عند حدود امة بعينها ، بل يرمي الى تبديل العالم كله .

ربما اجتمع في شخصيه ارسطو ، واسكندر ، وهومير ، ورسول ، وآفاق . ربما وشيء آخر ..

حسبي من كل فخر المتنبي مطالع رائية نادرة ، جليلة تختصر أبعاد احلامه ، ومقاذف طموحه ، وتغلف الكون بلهب كبريائه ، لا أحاذر اذا قلت إنها اضخم شعر في الفخر لا عند العرب وحدهم ، بل عند الامم قاطبة ، لا أستثني من ذلك ملحميات هومير أوفيرجيل ، ولا أضع آلهة الاولمب في صف هذا المريد الفريد أبداً .

هذه الرائية قالها يمدح « علي بن أحمد بن عامر الأنطاكي » وتوقيتها لا يتعدى زمن الثلاثين من عمره ، هذه الفترة التي زار فيها شبابه ، وترامت على الآفاق مداركه العميقة المستطيلة في هذا الكون بمعلوماته ومجهوله . وفيها يظهر أثر باطنيته ، وعصره ، ومطامحه :

أطاعن خيلاً من فوارسها الدهر
وحيداً ، وما قولي كذا ومعي الصبر[14]

---

١٤ـ الديوان جـ١ ص ٣٥٢

واشجع منّي كلّ يوم سلامتي

وما ثبتت إلاّ وفي نفسها أمرُ

تمرّست بالآفات حتّى تركتها

تقول أمات الموت ام ذعر الذعرُ

واقدمت إقدام الآتي كأنّ لي

سوى مهجتي او كان لي عندها وترُ

ذر النفس تأخذ وسعها قبل بينها

فمختلفٌ جاران دارهما العمرُ

ولا تحسبنّ المجد زقّاً وقينةً

فما المجد الا السيف والفتكة البكر

وتضريب اعناق الملوك وان ترى

لك الهبوات السود والعسكر المجر

وتركك في الدنيا دويّاً كأنما

تَداولُ سمع المرء أنمله العشرُ

* * *

من هذا الطراز قوله في مدح المغيث بن عليّ العجليّ قصيدة يستطرد فيها الى التحدّث عن ذاته ، او أنه ينصرف عن الممدوح الى التطلع نحو آفاقه البعيدة ورسم رؤياه المماردة :

وان عمرت جعلت الحرب والدة

والسمهريّ أخاً والمشرفيّ أبا(١٥)

---

١٥ـ الديوان جـ١ ص ٨٧

بكل أشعث يلقى الموت مبتسماً

حتى كأنّ له في قتله أربا

قحٌّ يكاد صهيل الخيل يقذفه

عن سرجه مرَحاً بالغزو أو طربا

فالموت أعذر لي ، والصبر أجمل بي ،

والبرّ أوسع والدنيا لمن غلبا

وعلى نسقها ، وفي جوّها النفسي والزمنيّ قوله في ميميته الصبيّة :

سيصحب النصل مني مثل مضربه

وينجلي خبري عن صمّة الصمم(١٦)

لا تركن وجوه الخيل ساهمةً

والحرب اقوم من ساق على قدم

بكل منصلت ما زال منتظري

حتى ادلت له من دولة الخدم

ميعاد كل رقيق الشفرتين غداً

ومن عصى من ملوك العرب والعجم

* * *

لم يكن المتنبي شاعراً فحسب ، بل مناضلاً في سبيل أمة جديدة ، وبالاحرى أرض جديدة .

لكنه لم يرسم لنا مذهبه السياسيّ ، لعل ذلك راجع إلى أنّ ذلك

١٦ـ الديوان جـ٢ ص ٣١٤

المذهب المشوب بالرؤية الدينية الغيبيّة رسمه له اساتذته القرامطة ، ثم رأى أنّ لـه القدرة على تخطّيهم ، والسير وحده ، فريداً في عالم لا يشاكله أحد فيـه ، وأن الآخرين لا يستحقّون أن يصحبوه ، لأنهم سقطوا عن مرتبته ، ولـم يعـوه ، إذ هو معطى ذلك الزخم الالهيّ ، فليقتحم وحده ، وليمض فليـس إلاّه الموجـود ..

* * *

# نمـاذج مـن فخـره

**فخره بشعره :**

ولكنّـه طـال الطريـق ، ولـم أزل
أفتّش عـن هـذا الكـلام وينهـب[17]
فشـرّق حتـى ليس للشـرق مشـرق
وغـرّب حتـى ليس للغـرب مغـرب
اذا قلتـه لـم يمتنـع مـن وصولـه
جـدار معلّى ، أو جـدار مطنّـب

* * *

في البيـت الأول إشارة الى رأيـه في نظـم الشعر ، ومعاناته ، فهـو ميدان تفتيش ، واختيار ، وكشفه . ويشير الى الطريق ، طريق طموحه .

أمّا « هذا الكلام » فاسم الاشارة يوضح خطر « الكلام » وانه الكلام المعهود ، لا أيّ كلام ، وهو لغناه وخصبه مطمـح انظار الطامعين الذيـن لا يتورعـون عن أن ينهبـوه .

في البيـت الثاني تجاوز للمكان ، شرقه وغربه ، وأنّه تعبيـر عـن الصوت ، والصوت جوهر خالد يتخطى كـل مكـان وزمـان ، إنـه من الالوهة ، فهـو لا يفْنى على دهر الاداهير .

والبيت الثالث يرسم السحر الشعريّ ، الفنّيّ ، حيث يستلب جمالـه

---

١٧ـ من مدحه له في كافور سنة ٣٤٧ الديوان جـ١ ص ١٣١

الشخص البشريّ ، وينقله الى عالمه هو رغم الحدود والقيود .

* * *

وقال :

وما الدهر الا من رواة قصائدي
اذا قلت شعراً أصبح الدهر منشدا[18]
فسار به من لا يسير مشمّرا
وغنّى به من لا يغنّي مغرّدا

* * *

مقاصد المتنبي بعيدة المرمى من رؤيته الشعريّة ، فالدهر لا يروي قصائده وحده ، فهنالك رواة كثيرون لعل الدهر أعظمهم ، لكن ما هو هذا الدهر ؟ أهو الزمن ؟ ربّما ، ولكن النبيّ محمداً عليه السلام يعظ أتباعه بقوله : « لا تسبّوا الدهر ، فان الدهر هو الله . » فهل غاب هذا الحديث عن بال المتنبي ؟ أو هل أن المتنبي يعني بالدهر ، اللّه ؟

ثم اذا كان الدهر من رواة قصائده ، والدهر هو الله ، فمن هم الروّاة الآخرون سوى الدهر ؟

لم يقف الامر بالشاعر عند رواية الدهر لشعره ، بل إن هذا الدهر ينشده ، ويترنّم به ، وهو مصدر زهوه ، وطربه .

البيت الثاني خطير جدّاً ، وغيبيّ باطنيّ ، وصوفي ، بل رياضيّ فيزيائي ، فمن ، وما هو الذي يسري بشعره ولا يسير ؟

الريح تسري ، والشعاع ، والكهرباء ، والفكر ، والخيال ، والصوت . والإنسان يسير ، والحيوان ، طيره ، سمكه ، هوامّه ، وسائر فروعه .

---

١٨ـ الديوان جـ١ ص ١٩٣

فهل كان المتنبي على علم بما يقول ؟ أو أنه متلقٍّ ، لَدُنيّاً ، يوحى إليه ، على طريقة الدّينيّين ، والغيبيّين الصوفيين ، وآخرهم السورياليين ؟ وسائر الباطنيين ؟

التشمير أهبة وسرعة ، فهل يرمز الى مكتشفات العصر الحديث من تلفزيون ، وراديو ، ورادار ، والا فما معنى كلمة « مغردّا » هنا ؟

* * *

لم يكن المتنبي في استشرافه الرؤيويّ ، وما يحدسه او يهجس به ، ويحلم ، شيئا هيّنا ، بسيطاً في شعره ، بل هو في فنّه ، وثقافته ، ورؤياه هائل مريد .

أنا تراب النّدى ، وربّ القوافي
وسمام العدا ، وغيظ الحسود[١٩]

* * *

وعندي لك الشّرّد السائراتُ
لا يختصصن من الأرض دارا[٢٠]
قواف اذا سرن عن مقولي
وثبن الجبال وخضن البحارا
ولي فيك ما لم يقل قائلٌ
وما لم يسر قمر حيث سارا

* * *

وما قلت من شعر كأن بيوته
اذا كتبت يبيضّ من نورها الحبر[٢١]

---

١٩ـ الديوان جـ١ ص ٢٠٩
٢٠ـ الديوان جـ١ ص ٣١٣
٢١ـ الديوان جـ١ ص ٣١٣

كأنّ المعاني في فصاحة لفظها
نجوم الثريّا او خلائقك الزّهر
وما انا وحدي قلت ذا الشعر كلّه
ولكن لشعري فيك من نفسه شعر

* * *

ما يهمّني من هذه النماذج، البيت الاخير، ليبين: الأول أنه لم يقل الشعر وحده، الثاني موضوع الشعر الذي يشكل جانباً مهمّا في الشعر، كالإطار من الصورة.

عرفنا في عصرنا الراهن من القرن العشرين، ما سمّي بالكتابة الآليّة، والنّقطة العليا، والأنا العليا، والصدفة الموضوعيّة.[٢٢] وكل هذا من مصطلحات «أندره بروتون» نبيّ السورياليّة، تلك التي ترمي الى الكشف عما تحت الوعي، وفوقه، وأبعد من العقل المباشر، إذ أن معنى هذه الكلمة بالفرنسيّة «فوق الواقع» من SUR و REEL.

شاعر من طراز المتنبي، يرسم صوراً عن رؤيا كونية بعيدة لا تتسنّى لسواه، والشعر عقل هائل من جهة، وهذيان محيّر من جهة، وحالة ثالثة لا تستلين للتحليل.

**الفخر والانسان السامي:**

تغرّب لاستعظما غير نفسه
ولا قابلا الا لخالقه حكما[٢٣]

---

٢٢ــ مصادفة معجمية. صدفة ليست معجمية. ولكن المعاصرين يستعملون صدفة كثيرا فهي شائعة، والحياة اعظم معجم.
٢٣ــ الديوان جـ٢ ص ٣٦٨

يقولون لـي: ما أنـت فـي كـل بلـدةٍ
وما تبتغـي ؟ ما أبتغي جـلّ أن يُسمى
وإنـي لمـن قـوم كـأنّ نفوسهم
بهـا أنـف" أن تسكـن اللحـم والعظما

* * *

سبحـان خالـق نفسـي كيـف لذّتهـا
فيمـا النفـوس تـراه غايـة الألـم(٢٤)
الدهـر يعجـب من حملـي نـوائبـه
وصبر جسمـي علـى أحداثـه الحُطـم

* * *

١ـ تغرّب من الغربة ، والغرابة ، والغرب ، والاغتراب ، والتغريب ، وهي جمعهـا تفيـد التفرّد ، والإنتقال ، والتعالي .

٢ـ المتنبي مؤمن بإله ، ولكنـه حسـب سيره لا يؤمن بالأديان .

٣ـ يسأله الناس « ما أنـت » في كـلّ بلدة ؟ ما لغير العاقل ، أيّ خطر هائـل أنـت ؟ في بلاد كثيرة مررت بهـا ، وما تبتغي ؟ يجيب المتنبي : ما ابتغيـه جـلّ ، وعظـم عن ان اسمّيـه ، فما هو ؟ لعلـه مركـز النيابة عن الله فـي الكـون !!!

٤ـ يؤكـد الشاعر أنه من فئة أفلاطونيّة تجد مقام نفوسها في الجسـوم مهانة ، لأن تلك النفوس من عالم المثل ، الآلهه .

٥ـ يقف المتنبي من اللّذة والالم موقفاً يخالف به معظم النـاس ، فهـم

---

٢٤ـ الديوان جـ٢ ص ٤١٥

يتألمون من الحرب ، والجـوع ، والعطش ، والغـربة ، والعـداوة ، والاقتحام ، والمتنبي يجد لذته في التعـب ، والتّغرّب ، والصـدام ، والخصومة ، إنهـا لذّة المتسامي ، المتخطّي شـؤون الناس ، وهنـا تحضر تجربته لترسم لنا لذّتـه ، كتلك التي يجـدها الانسان فـي الأفيـون ، الكحول ، وسائـر انـواع السّاديّات ، وما يختـاره القحامـون المغامرون ، وأصحاب الهوس العسكريّ ، حيث تضيع المقاييس المألوفة فيما ارتضوه ، وانتقلوا إليـه ، ألم ، ولكنه باعث لذّة هائلـة !!!

٦ ـ الدهر يعجب من صبره على النوائـب ، هـذا الوجوديّ الآخـذ نفسـه بالتزامات كـل متمرّد ، مقتحم ، مثلـه مثل الذي يسـكن عناده ، وجبروت الارادة ، مذكراً «بسيزيف» وصخرته ، تلك التي هي رمز العذاب الموصول ، والتحدّي المرير ، والمكابرة التي لا تلين .
من هذا الأفـق صبيّة" من قصائده الطالعة في أفـق الشباب ، إبّان السعار الـى المجد ، والسيطرة :

عـذيري مـن عـذارى ، مـن أمـور
سكـنّ جوانحـي بـدل الخـدور[25]
ومبتسـمات هيجـاوات عصـرٍ
عـن الاسـياف ، ليـس عـن الثغـور
ركبـت مشمّـراً قدمـي إليهـا
وكـل عذافـر قلـق الضّفـور
أواناً فـي بيـوت البـدو رحلـي
وآونـةً علـى قتـد البعيـر

---

٢٥ ـ الديوان جـ١ ص ٣٤٧

أعـــرّض للرّمـــاح الصّـم نحـري
وأنصـب حـُـرّ وجهـي للهجيـر
وأسـري فـي ظـلام الليـل وحـدي
كأنـي منـه فـي قمـر منيـر
ونفـس لا تجيـب الـى خسيس
وعيـن لا تـدار علـى نظيـر

ألمتنبي أحيـا خلـق الفروسيّة بتمرده ، وثورته ، وطماحه ، ولكنهـا فروسية حضاريّة ، انقلبت إلـى بطولة فكر راء ، وعزيمة قحّامة ، كتلـك التـي عرفناها للإسكندر ، ويوليوس قيصر ، ونابليون .

لنلاحظ في هـذه الأبيـات التي يطيـب لي تردادها ، خاصة البيـت الخامس ، فهـو وحده عنـدي ناقوس يجلجل بصوت الانسان المـارد ، الـذي رفض عالمـه ، وصال ، وجال يفتّش عن عالم جديد .

ولنتأمل هـذا الجناس الايقاعي بيـن عذيري وعذاري ، وتنكير كلمة أمور ، وهيجاوات عصر ، لندرك أن الرجل استلبه حب الكفاح ، وطلـب المجـد ، واستعاض به عن كل حـبّ ، وكيف أن اقدار عصره حملته علـى التوسل بالبدو إنفاذا لخطّته ، لقرمطيّته ، فهم عجينة صالحـة للقولبـة والتّكييف ، وكيف أنـه كـان يتعرض لمناوئين يتربصون بـه ليمحقـوا محاولاته ، ويسددون رماحهم الى وجهه الحرّ الكريـم الذي لقـي من لفح الهواجر فـوق ما لقـي مـن رماح المحاولين .

وتلك الثقـة بالنفس التي تتعدّى حدود « النرجسيّة » وجنـون العظمـة ، وعقـد الذات ، لتصبح غايـة الغايات في انسانية عصـره ، إذ هو وحده ، ولا نظيـر له يمثل هـذه الأحديّة ، هـذا الانسان المتفوّق .

* * *

ولكـي يؤكـدّ ذاته ، ينفي شـرف النسـب الذي تعلـق بـه

معاصروه ، على الرغم من أنه نبيل المحتد ، شريف المنابت .

ما بقومي شرفت بل شرفوا بي

بنفسي فخرت لا بجدودي[٢٦]

وبهم فخر كل من نطق الضاد

وعوذ الجاني وغوث الطريد

حسن ، ومقنع أن تكون يا ابا الطيب مفخرة الدنيا ، ولكن فخرك بجدود لم نعرفهم يبقى موضع سؤال ، فمن هم ؟ بنو حمدان ، أم بنو تغلب ؟ أم من تميم ام قريش ؟

لم يجب ابو الطيب ، وما ترانا نجيب !!!

إليّ لعمري قصد كل عجيبة

كأني عجيب في عيون العجائب[٢٧]

هذا البيت ، والابيات التالية ، مما يسجّل ولوع شاعرنا بالاغراق متجاوزا حدود الاسطورة ، أملاً في الافصاح عن دخيله ذاته ، ومطارح نيّته .

أفكر في معاقرة المنايا

وقود الخيل مشرفة الهوادي[٢٨]

زعيم للقنا الخطّيّ عزمي

بسفك دم الحواضر والبوادي

* * *

٢٦- الديوان جـ١ ص ٢٠٨
٢٧- الديوان جـ١ ص ١٠٩
٢٨- الديوان جـ١ ص ٢٢٥

تتابع العجبيات ينبئنا ان الشاعر راضخ لمؤثرات صخابة في دمه ، لم يجد سوى الجناس العجيبي تنفيساً لها ، ولكن السّفك بدون غاية ، ولا شروط مقدمة ، مما ينقل الشاعر الى نوع من السّاديّة ، ولذة الـدم للدّم ، وليس بعيداً ان يكون المتنبي في حقده على كل الناس ، الآخرين، الذين يقفون حواجز في طريقه ، بل يسدّون عليه الابواب ، ويحولون بينه وبين النفوذ . هو هو ذلك السادي الدموي في هذه الفترة ، فاتحاً طريق الوجوديّة بألفه سنة قبل أن توجد ، هذا العجيب المناضل كلّ الآخرين .

ساطلب حقّي بالقنا ومشايخٍ

كأنهم من طول ما التثموا مُرد[٢٩]

اذا شئت خفّت بي على كل سابحٍ

رجال كأن الموت في فمها شهدُ

هَوّنْ عليك يا أبا الطيب ، فما انت سوى مخدوع ، وما هؤلاء المشايخ والرجال إلاّ باطنيّون همهم أن يصلوا بك او بسواك الى غاياتهم، وما عرفناهم واصلين .

ولكنّ قلباً بين جنبيّ ما له

مدىً ينتهي بي في مراد أحدّه[٣٠]

ولهذا الطموح اللانهائيّ اختارك الذين يقفون خلفك .

وما تسع الازمان علمي بأمرها

ولا تحسن الأيام تكتب ما أملي[٣١]

---

٢٩ـ الديوان جـ١ ص ٢٣٧
٣٠ـ الديوان جـ١ ص ٢٥٨
٣١ـ الديوان جـ٢ ص ٤٩

فلتكتب أنت !!! وكيف تستعين بما هو خارج عنك ؟ سيجيب قائلاً هنالك الآخرون ، حواجز ، نفايات :

أفي كل يوم تحت ضبني شويعر
ضعيف يقاويني ، قصير يطاول(٣٢)

ثم ينتفض مستهيناً بهؤلاء الآخرين ، عثرات الطريق ، متحدّياً ، مقتحماً :

أمثلي تأخذ النكبات منه
ويجزع من ملاقاة الحمام(٣٣)
ولو برز الزمان إليّ شخصاً
لخضّب شعر مفرقه حسامي
اذا امتلأت عيون الخيل منّي
فويل في التيقّظ والمنام

ولو قدّر ـ ولا سمح الله ـ أنّ الزّمان عاجلك بطعنة كتلك التي سدّد اليك « ضبّة » في دير العاقول ، فماذا تفعل ؟

يحاذرني حتفي كأنّي حتفه
وتنكزني الافعى فيقتلها سمّي(٣٤)
طوال الردينيّات يقصفها دمي
وبيض السّريجيّات يقطعها لحمي

* * *

---

٣٢ـ الديوان جـ٢ ص ٩٣
٣٣ـ الديوان جـ٢ ص ٣١٩
٣٤ـ الديوان جـ٢ ص ٣٢٣

عفوك يا أبا الطيّب ، اذا قلنا إن لك شخصين : واحداً مزّقته ردينيات وسريجيات ضبّة ، وفاتك بن جهل ، وثانياً لم يستطع الزّمان ولا أقدار الرماح والسيوف أن تطاله ، ذلك هو شعرك ، الذي زرعت فيه لهب ذاتك ، فامتدّ على الأداهير ، لكان ذلك أحجى ، على أنّ هذه الصورة تذكرنا «بأخيل» الذي لا تقطع الحراب في جسمه ، و «بعوليس» ذلك الذي لا يقدر واحد على استخدام قوسه لشدته ، ونحكم بعد التذكّر أنّ المتنبيّ رسم لشخصه صورة بطوليّة شبه اسطورية تفوق الصورة التي رسمها هومير لبطلي طروادة .

* * *

# الحكمة في شعر المتنبي

(أ) كلمة حكمة بكسر الحاء من الحكمة بفتحها ـ تغيير العالم ـ تصعيد الحياة ـ الشاعر والحكيم ـ يكملان الحياة ـ المثل والحكمة .

(ب) شعر الحكمة قبل المتنبي ـ بعده ـ تفرّده ـ مميزات حكمته . شخصيته ـ مواقفه ـ رفضه العالم ـ تجاوزه ـ كآبته ـ كونيّته ـ رؤياه ـ

(جـ) روافد حكمته : المثل والحكمة في الادب العربي قبله ـ التراث الاسلامي ـ في الفلسفة اليونانية ـ شؤون عصره ـ إشرافه على التاريخ ـ بصر بأقدار البشر ـ المصيريّة والزمن ـ مواقف متشابهة في التاريخ ـ منازع حكمته ـ مقدارها .

(د) الفرد ، المجتمع ، الناس ـ الزمن ، الوطن ، الجسم ، النفس ـ القيم ـ الدين ، الشرائع ـ الحياة والموت ـ الزواج والنسل ـ الحرب والسلم ـ

* * *

**مراجع :**


١ ـ الديوان بشرح البرقوقي ـ حكمه مبثوثة غير مستقلّة .
نموذج : ( صحب الناس قبلنا جـ٢ )

٢ ـ حصاد الهشيم لإبراهيم عبد القادر المازني .

٣ ـ الصبح المنبي عن حيثيّة المتنبي للبديعي .

٤ ـ النهج العربي الى شرح حكم المتنبي لابراهيم عبد الخالق .

٥ ـ الرسالة الحاتمية في سرقات المتنبي ، وتوارد معانيه عن

ارسطو للحاتمي .

٦ ـ أمثـال المتنبي وحياته بين الالم والامل لاحمد سعيد البغدادي .

٧ ـ مجلة الحديث : فلسفة المتنبي وآراؤه في الحيـاة لبطـرس البستاني عدد ٩ صفحة ١٣٨

* * *

**الحكمة في اللغــة :**

يقال « حـَكـَمـَة » بالحاء والكاف المفتوحتين ، للحديدة التي تعترض لجام الفرس كيلا تجمح ، لانها تحكم الفرس ، بمعونة الفارس[1] .

أمّــا الحِـكمة في المصطلح الأدبيّ فهي قولٌ منطقيٌ ، عامّ ، تأخذ به الشعوب جميعها ، لتعبيره عن مبدإ عقليّ لا ينكره بشريّ ، ولا يتّصل بحادثة خاصّة .

اصل الحكمة مَثَلٌ ، لكنّ المثل تبقى عالقة بــه آثار الحادثة التي لاجلها نُطق به ، أما الحكمة فقــد تُنوسِيَ فيها أي علــوق بالمكان ، والحادثــة .

والحكمة تنشد في القول الموجز ، والقصة ، والمسرحية ، والقصيدة ، ولكن دلالتها تنصب على الكلام القليل ذي المعنى الكثير ، والعرب مــن أغزر الامم عطاءً للحكمة ، وهذا يشير إلى حب المقارنة ، والتطلع الــى النواميس الكونية العامة ، والعبر من تصرفات الافراد والشعوب .

* * *

أيّ شعر ، أي فنّ لا يخلو من المغزى ، وهذا المغزى حكمة . لكن الفرد متى استوفى تجاربه ، والشعب عندما يصل الى قمة عطائه الحضاري ، فقد أصبح ميسوراً لهما أن يبوحا بالحكمة ، التي هي خلاصة معاناة فــي الزمان والمكان ، وصدى لما سبق ، وإرهاصة لما سيأتي .

والحكمة من جهة الفرد ، تشير الى موقفه من الجزئيات . والكون . الشعوب البدائية ليست لها حكمة ، والجاهليات مطلّ رحــب على

(١) لسان العرب مادة حكم .

الحكمة لان عقل الشعب الشاب يبدأ بالعمل على اختصار الكون .

**حكمة المتنبي :**

للوقوف على الحكمة في شعر أبي الطيب المتنبي ، لا بدّ لنا من توطئةٍ ندرك بها مقدار وعيه الكون ، وشهوده عصره وتأمله في كل ما حوله ، وموقفه من كل ذلك ، ولذا نجري حسب الترتيب التالي :

١ ــ عانى المتنبي من بؤس المنشأ ، وضعة المنبت ، وغفلة الزمان عن ذويه .

٢ ــ تعلّم ، مارَسَ ، تثقّف ، تلفّتَ ، تأمل .

٣ ــ اقتحم ، غامر ، فشل ، صبر . وقلق ويئس .

٤ ــ رأى عصره يدين بمبدإ المغالبة السّوفسطائيّ ، وأنّ القيم لا تحيا في عالم المتكالبين على المظاهر ، والمكاسب .

٥ ــ تَقَرمَطَ . وللقرمطية مخطط دموي لا يذعن الاّ للقوة ، وتبشير بإمام منتظر ، وتأثّر بالباطنيات وبمختلف التيارات الدينية ، والغيبية ، والفلسفية التي وصلت إليهم .

٦ ــ عاش في محيط نمت فيه حضارة السريان من جهة ، وحضارة الفرس وخلفها حضارة الهند من جهة أخرى . فمدارس السريان الاديرة كانت ممتدة من « أنطاكية » الى « جند يسابو » ، والفرس أعطوا تناجاً دينيا فلسفياً تمثل « بزردشت ، وماني ، ومزدك » ، وللهند تراث ضخم يكمن في اليوپنشاد ، والرامايانا ، والماهابهاراته ، وتعاليم رسلهم ، وكانت الكوفة بلدته جسراً تعبر عليه الافكار الفلسفية ، والسياسية من فارس الى بغداد ، ولم يكن العرب يجهلون ما يحويه الزندفست ، واليوپنشاد .

٧ ــ جاء المتنبي الى العالم بعد اليهودية ، والمسيحية والاسلام ،

ولكل دين من هذه الأديان جدل ، وكتب ، ونظام ، واحكام ، خاصة أن عصره كان قد تلقى ممّا قبله تراثاً ضخماً من الفرق، والمذاهب .

٨ ــ المثل والحكمة في شعر العرب قبله ، على جانب كبير من الغنى، والامتداد .

٩ ــ الفكر اليوناني بما فيه الفيثاغورية ، والافلاطونية ، والارسطية ، والسوفسطائية ، والقورينائية ، وهذه جميعها تمثل تجارب ، ومواقف ذلك الشعب العظيم الذي نظم كل تيارات الفكر الشرقي والعالمي قبلهم في مدارس او مذاهب .

١٠ــ أحمد بن الحسين الجعفيّ ، واحد من هذه الكائنات الحيّة الواعية ، ألقي في حضن حياة لم يطلبها ، ورأى نفسه مسحوقاً بقدر لا يرحم ، محكوماً بقوانين لا يقدر على تخطّيها ، مدفوعاً بمطامح قد لا يظفر بتحقيقها ، فنخل وغربل ، وفحص ومحّص، فعلم أن هذه الحياة لا تستحقّ أن تعاش كما يقول « هملت » « شكسبير » فهل يرفضها جملة ، أو يزهد فيها زهد ديوجين ؟ أم يطمع فيها طمع الاسكندر ؟

**موقفان !!!**

طبيعته ، ونسيج ذاته أن يقتحم ، ويلتهم ، ويستحوذ : « فما المجد الا السيف والفتكة البكر » لذا فقد نشد طيلة حياته تحقيق ذاته في السيطرة ، تعويضاً عن فراغ نشأته ، واستجابة لرغباته ، فلم يجد غير السراب الذي يظنه الظمآن ماءاً ، فبقي طيلة عمره الكافح يجري وراء ذلك السراب ، وكأن فيه امواجاً يحضن بعضها بعضاً وهي تتراقص بصندوق قمقميّ سليمانيّ ، وعليه تاج ، وكلما دنا منه ابتعد ، وكلما اظهره له المعلوم ، غيّبه عن ناظريه المجهول ، فليسبح اليه ، وإن كانت الامواج قد انصبغت بالدم ، والشفار ، والزرد ، وضَبْحِ الخيل ، وفوق ذلك جميعه

افق من الغبار ، والريح ، والمطر ، والضباب ، وليطلق صياحه الأحمر المدوّي . لتقذفه أخيراً موجة من ذلك السراب الزئبقيّ على الشاطىء جثةً مثخنة بالجراح ، مثقوبة بآلاف الخناجر ، والأكذوبات .

فهل كان الشعر ، وكانت الحكمة في الشعر خلاصاً لنفسه من مصارعة الامواج ؟ وهل تراه قبض على الصورة بجفنيه وخزّن فيهما لمعان الدرّة المتوهجة فوق التاج المغازل ، المرائي ؟ أم تراه كان يطمع في اكثر من ذلك ويظن أنه سيخرج من أقطار السماوات والأرض دون سلطان ؟ لنقل عنه ، والافضل ان نتركه يقول ، فهو كفنان زاده الشعر ، يحمل جوازاً للخروج من ذاته ، وتخطّي كل زمان .

* * *

**(أ) حكمة الزمان والانسان :**

صحب الناس قبلنا ذا الزمانا
وعناهم من امره ما عنانا[2]
وتولوا بغصّة كلهم منه
وإن كان سرهم أحيانا
ربّما تحسن الصّنيع لياليه
ولكن تكدّر الإحسانا
ولو أنّ الحياة تبقى لحيٍّ
لعددنا أضلّنا الشّجعانا
كلّما أنبت الزمان قناةً
ركّب المرء في القناة سنانا

* * *

---

٢ ـ الديوان جـ٢ ص ٤٧٢

ولــو بــرز الــزّمان إلــيّ شــخصاً
لخضّــب شــعر مفرقــه حسـامي[٣]

* * *

اريـد مــن زمنـي ذا أن يبلغنّــي
مـا ليس يبلغـه مـن نفسـه الـزمن[٤]

* * *

أطـاعن خيـلا مـن فوارسهـا الدهـر
وحيداً ومـا قولي كـذا ومعي الصبر[٥]

* * *

اذا مـا تأملـت الزمـان وصرفـه
تيقّنـت أن المـوت ضرب مـن القتل[٦]

* * *

وما الدهـر أهـل أن تؤمّـل عنـده
حيـاة وان يُشتـاق فيه الـى النّسل[٧]

* * *

أذمّ الـى هـذا الـزمـان أهيلـه
فأعلمهـم فـدم واحزمهـم وغـد[٨]

واكرمهـم كلـب وأبصرهـم عـمٍ
وأسهدهـم فهـد ، وأشجعهـم قـردُ

٣ ــ الديوان جـ٢ ص ٣١٩
٤ ــ الديوان جـ٢ ص ٤٦٧
٥ ــ الديوان جـ١ ص ٣٥٢
٦ ــ الديوان جـ٢ ص ٤٩
٧ ــ الديوان جـ٢ ص ٤٩
٨ ــ الديوان جـ١ ص ٢٣٨

مـا هو الزمن الذي يعنيه ذلك الكوفي البدوي ، في مدينة جامعة حضارية ، بعد الفلسفة اليونانية ، وقرآن محمد بن عبد اللـه ؟ وجدليـة البيزنطيين والمعتزله ؟ وإيماءات التشيّع ، والباطنيّه ، والتحول أو الحلول الهندي . واهتبال الفُرص لدى المزدكيّة ؟

قالت قولها الفلسفة القديمة عن الزمن إنـه افتراض وهمي ، لحـل مشكلة الوجود ، و تَبَالَه الكثيرون من المفكرين فلم يجهدوا أنفسهم في تفسير جوهره ، وأعلنت المسيحية عن أن هـذا الزمن معبر الى ذلـك العالم حيث الأب لجميـع الناس ، وجاء الاسلام ليعلن أن الدهر هو الله ، وان الدنيا دار ممر ، والآخرة دار مقر ، فمتى ولد هذا الزمان ؟

كذلك فإن الفلسفة القديمة جسّدتـه في « كرونوس » والاسـلام حوطه بالأزل ، والأبد ، وأطلق عليهما كلمة السرمد ، لكن الفلسفة الحديثة الممثلة « بهيدجر الالماني » ، « وكيركجرد السكنديناڤي » مهزهزي حلقات الوجودية في سلسلة طويلـة تشعبت فروعها الـى إباحية ، وجودية ، وأخلاقية ، ومسيحية ، وشخصانية ، والتزامية ، تزيد المسألة تعقيداً : هل الزمن قبل الوجود ؟ أم أن الوجـود قبل الزمن ؟ وهـل أنهمـا معـاً ؟ وكيف ؟ وهل الزمـان حركة ؟ والمكان مادة قابلة للتحول ؟ يدرس هـذا الموضوع بالعربيـة الدكتـور « عبـد الرحمـن بـدوي » فـي كتابه : « الزمان الوجودي » وقبلـه سئل الدكتور شبلي الشميل مـن اللبنانيين المتمصّرين عمّن هزّ الحلقة الأولى فى تيار الحركة ؟ والحركة هي الزمان ، فيجيب : « حسبنا ان تقف هنا يا بُنيّ » .

على أنني لسـت هنا في معرض تتبّع أفكار الباحثين حول الزمان ، بمقدار ما انا مأخوذ بـه لجلاء غرض شاعر في عصر الدويلات ، فللفلسفة المادية جواب ، وللكيمياء ، والفيزياء ، والرياضيات جـواب ، وللـدين والصوفية مثله ، وجميـع هؤلاء واولئـك عصافير ضمن قفص ، والزمان يلهو بمقادير الزقزقة ، والرّفيف ، والنقر ، والحسْو ، والوجود والعدم .
الزمنُ في عرف المتنبي هو حركة الانسان بيـن الإرادة والعقل ، أي

الغريزة ، العمياء ظاهراً ، والفكر الهادف .

( إقرأ لتفصيل هذا في كتاب « أرثر شوبينهور » « العالم كارادة وفكرة » واذا لم يتيسر ذلك لك فاقرأ عنه في كتاب « قصة الفلسفة الحديثة » « لأمين ومحمود » و « شوبنهور » لعبد الرحمن بدوي )

❋ ❋ ❋

زمن المتنبي هو الناس في قدَرٍ ظالم . فما هي مقاييسه ومسافاته ؟

❋ ❋ ❋

« صحب الناس قبلنا ذا الزمانا » وجد الناس في فترة سابقةٍ ثم زالوا، فكانوا يعيشون ، ويتصرفون ، ولكنهم لم يكونوا كما يشتهون ، فلماذا وجدوا إذاً ؟

لعل هذا السؤال خليق بالمعرّيّ بعده ، ولعل « النؤاسي » أجاب عليه باهتبال اللذة عمليّاً ، أو بالتزهّد ، وعبّر عنه « العتاهيّ » بالخوف من المصير بين يدي الله ، ورآه ابن الرومي « مضعضِعاً » أي مفنياً ، وقابل الأوقات بالاقوات في بيته المشهور :

« تضعضعه الأوقات وهي فَناؤه
وتغتاله الأقوات وهي له طعمُ »

أمّا « عناهم من امره ما عنانا » فما هو هذا الأمر ؟ إنه العيش وكل ما يدور في فلكه من أمان ، ومطامح .

فماذا كانت النتيجة ؟

- تولوا بغصّة كلهم منه ، من الزمان ومعنى ذلك أن العيش مركب للشقاء وهذا الشقاء نتيجة لعاملين : تركيبُ الإنسان فسيولوجيّاً ، وحركة الانسان عقليّاً .. تركيب الانسان عقليا ، بحدود الجسد ، ورغبات الجسد ، ومطامع النفس ومطامحها، وإلاّ فأين هي أنامل ذلك الزمان الوهمي لتفعل فعلها ؟ لكن هذا الزمن « سرّهم أحيانا » فمتى ، وكيف ؟
- ساعة يغفل الانسان وهو في اللذّة ، او تكافؤ المطلب والحالةِ عن المصير ، والمصير واقع لمّا يحن وقتُه بعد .

ثم يحكم على هذا السرور الوقتي العارض بأنه خدعة ، يقدمها الزمن كحسنة ، ثم يكدّرها ويفسدها ، إذاً لا خير في الزمن ، والحياة في جوهر الامر ، بل هو شر كلّه .

ويؤكد هذا المعنى بقوله بعدئذ : إن الانسان هو مصدر الشرّ ، ويفصل قوله السابق بأن يجعل الزمان ممهداً للشر ، فهو ينْبت القناة ، ليجيء الانسان الشرّير بطبعه ليركّب فيها السنان القاتل ، وربما أفصح عن هذا ابن الرومي القائل :

« والنفس تبصر أين حبّتها
لكنها تعمى عن الشبك »

ولا جدوى من هذه الحياة في نظره ما دامت تَفْنى ، ولا قيمة للشجاعة او الجبن فيها ، فكلاهما على تساوٍ في اللاّجدوى .

* * *

هذا الزمان يبدو لعيني المتنبي الشابّ ، الذي تتصور الحياة لجفنيه سيوفاً ورماحاً ، ودماً وغباراً ، ويرى في عصره مظهرين : الذهن المهتبل كل فرصة للسيطرة والفتك ، والحكم الذي اخذ غلابا ، وما دام المتنبي لم يسلب ، فليزأر في وجه الزمان ، وبطلبه للبراز ، ليقتص منه ، ولينتقم ، وليفرغ حقده على اولئك الذين وقفوا حجر عثرة في طريقه :

ولو برز الزمان اليّ شخصاً
لخضّب شعر مفرقه حسامي

اذاً ليس هذا الزمان الا مجموع الناس ، وهؤلاء لا يقدر على الفتك بهم كلهم ، فهنالك موانع جغرافية ، وحدود لطاقته ، وقصر في العمر ، فما عليه الا ان يتمنى عليهم لو أنهم اجتمعوا في شخص واحد ليبارزه ، ويكتفي من شر الشعوب التي لاتلين له كلها ، وحسنا فعلت الشعوب ، ونجت من حسام المتنبي ...

لكنه يريد من ذلك الزمن شيئا ، والزمن ذاته لا يستطيع أن يـؤدي المهمة التي يطلبها منــه ابن السقاء الكوفي ، فللزمن حدود ، كما للمكان. وهذه الـ « مـا » الموصولية ، المتهمة الى أين تؤدي ؟ وماذا بقي من مطلب ينال إلاّ مصدر كـل وجود ؟

الزمن همّ همومه كما صار هماً من هموم سارتر ،وهيدجر ، وكيرجرد، وكمـا كان قبلا لدى سوفوكل وإسخيلوس ، والفلاسفة • فهـو يطاعنه ، ولايني عن صراعه ، لكن الزمن كثير العدة والعدد ، فهذه خيله تزاحمـه ، وهو يقودها ، او أنـه احد فرسانها ، بينما المتنبي وحيد ، إذاً فليشتق مـن نفسه قوىً ، ولينظـم نفسـه جمهرة كمـا ينظم الزمـان نفسه خيـلا وفوارس هو احدها ، وليكن الصبر ، ولتكـن السلامة مـن مؤيديه ، وناصريه ، ثم اليس هو ذلك الانسان ، والانسان عالم هائل في عالم أشـد هولا ؟ واخيراً يزهد ، أو يَكِلّ عن التفكير في هذا الزمان ، وحركتـه في الذين يحتويهم من الناس ، فلا يجد في حربه ، والتغلب عليه جدوى ، وينتهي سعار السيف وظمأه الى الفتك والسحق ، ينتهي الى تخريب الحياة التي هي ميدانه ، فليحرم الحيـاة من التمادي بهـذا النسـل المسترسل ، وليقدم لتلميذه ، وأحد مريديه المعري فكرة العدم ، ولشوپنهور عزيمـة الانتحـار •

وانظر اليه كيف يذمّ « أهيل الزمان » فهم مصغرون معنىً ولفظاً ، وهو يسخر من كريمهم ، وعالمهـم ، ومعتزمهم ، وحذِرهم ، وبصيرهم ، وشجاعهم •

ذكرهم بصيغة التصغير ، وهبط بهم ــ بدلا من الارتفاع ــ عـن مرتبة الانسان الى مرتبة الحيوان ، أخسّ الحيوان ، والعجيب في هـذه المقارع من حديد أنه صبّ ذلك جميعه في مدحةٍ لمحمد بن سيار التميمي • ذلك هو الحقد ، والضياع ، في عالم لا يخلو من فضلاء !!

**(ب) الحكمة والموت :**

نحـن بنـو المـوتـى فما بالنـا
نعـاف مـا لا بـد مـن شـربـه

تبخــــل أيـدينــا بـأرواحنــا
علــى زمــان هــنّ مــن كسبه
فهـــذه الارواح مـــن جـــوّه
وهـــذه الاجســـام مـــن تـــربـه
لـو فكّـر الانســان فـــي منتهى
حسـن الـــذي يسبيـه لـــم يسبه
يمـــوت راعـي الضـأن فـي جهلـه
ميتـــة جالينـــوس فـي طبـــه
وربمــا زاد علـــى عمـــره
وزاد فـي الامـــن علـــى سـربه
وغـايـة المفـــرط فـــي سلمـــه
كفايـــة المفـــرط فـي حربـــه(٩)

* * *

الزمن رمز الفناء عنوان المـوت ، المـوت وحـش راعـب يهـدد الاحيـاء ، ويتضعضع له الفنانون . وعندما يوغـل الفرد في تأمّل الوجود بين ظهور وخفاء ، ينتهي الى الصّفْر ، وساعة يلتفت الى وراء يرَى منطلقه من الصفر ، وهذا الصّفر كما يقال اختراع الرياضيين العرب ، فهو ليس خطّاً وهمياً فاصلا بيـن الوجود والعدم ، بل هو غاية الفلسفة في الحياة ، إنــه شيء في اللاشيء أو وسيلة مفترضة لحـلّ مشكلة كل وجود ، فهل هو الذرة ، أو الجوهر الفرد ، الذي لا يدرك إلاّ بالذهن ؟ أو أنــه حالـة برزخ بيـن السكـون والحركـة ؟

---

٩ ــ الديوان جـ١ ص ٦٢

ومن تفكّر في الدنيا ومهجته
أقامه الفكر بين العجز والتعب[10]

وكأن المتنبي وهو في عصر العقل ، والسيف ، لا يرى الا ما رآه « طرفة » قبله :

فان كنت لا تستطيع دفع منيّتي
فدعني أبادرها ( الخرب ) بما ملكت يدي

فاذا أعلن سلفه المعري عن أن الناس أبناء الموت ، وأنّ هذا الموت لا بد منه ، فلماذا نخشى منه ؟ وهنا لا يستطيع معاصر « أبي النصر الفارابي » أحد شراح ارسطو ، والمولعين بأفلاطون ، إلا أن يستمدّ من الحكيمين اليونانيين اللذين شغلا بال المفكرين العرب في العصر العباسي بمختلف شؤونه ، عقلاً يفكر بطريقة العلل الحركية ، والماديّة ، والغائية ، كما ينظر إلى أنّ مثالية « صاحب الجمهورية » تدله على مصدر النفوس ، وعلى هبوطها الى عالم المحسوس ، فكيف نأسى ونرتعد هلعاً فيما لو عادت هذه النفوس الى منبعها ؟ وهنا يدرك الشاعر نهاية المصير ، وسرّ اللعبة الكبرى بين الحضور والغياب ، فيحكم على أجمل جمالات الحياة ؛ الحب ، والجمال ، بالموت ، ومعنى ذلك اللاّجدوى من الحياة وما فيها من حبّ : وجمال اذ ما قيمة الذي يأتي ويذهب ، فالأفضل أن لا تكون الحركتان .

تأمل كيف صوّر المحبوب الجميل مصيرياً ، وكيف هدّم جدران الحياة على رؤوس الاحياء ، فشخّص لك الجميل المعشوق ، ثم موّته ، ثم جعله جيفةً ، فهيكلا عظميا ، لا يكسوه لحم ، أو تفوح منه نضرة ، فهل يبقى الحبّ ؟ الا قاتل الله الفكر !!! ولخير للانسان أن يتغافل ، و « الكيّس المتغابي » !!!

---

١٠ـ الديوان جا ص ٦٩

غير أن الطبّ وسيلة لقتل المرض ، بابِ المــوت ، كما يقتل الفــنّ الزمان ، باب الفناء ، فهل في الطب أو الفن خلاص ؟ ما دام ابــو الطــب يرى « جالينوس » يموت في علمه ، وخبرته ، ونطاسته ، كما يموت الراعي الأمّيّ الجاهل ، فما قيمة الطبّ والعلم ؟

والأدهى من ذلك جميعه أن ذلك الراعي ربما عاش عمراً أطول مــن عمر جالينوس ، وتمتع بالعيش خيراً مما تمتع به ، فما هي قيمة العقل إذاً ، والحــب ، والجمال ، بــل الحياة بأسرهــا ؟

وما الجدوى من حب السلام ، أو الاندفاع نحو الحرب ، بالاحــرى ما تفــع الحضارة بنت السلام ، والمجد الغازيّ ابن الحرب ، ما دامــت الغاية واحدة للفريقين ، ألا وهي الموت ؟ !!! هذا الذي هو :

ومــا المــوت الا ســارق دقّ شــخصه

يصول بــلا كفٍّ ويسعى بــلا رجــل[١١]

* * *

وفي قصيدة الحمّى ، تلك التــي شرّقت وغرّبت ، وافصحت عــن وجدان الشاعر ، وعميــق كآبته ، ونضج رؤيته ، وتلك الفترة التي يشعر فيها الكائن الواعي وُجُودَهُ أنه مسحوق بمطرقة القدر ، مهدّد بغــول الموت لذا فهو لا يني عن أن يعطينا فكرة فلسفية عن هذا الموت :

وإن أسلــم ، فمــا أبقــى ولكــن

سلمــتُ مــن الحمــام الى الحمــامِ[١٢]

تمتّــع مــن سهــادٍ أو رقــادٍ

ولا تأمــل كــرىً تحت الرّجــامِ

---

١١ــ الديوان جـ٢ ص ٤٦

١٢ــ الديوان جـ٢ ص ٤٠٣

فإن لثالث الحالين معنىً
سوى معنى انتباهك والمنامِ

* * *

كان الشاعر يشكّ في أنّه سيشفى من مرضه ، وهو في حالتي المرض والشفاء ، يرى جسمه هو الذي يعتريه ذانك العارضان ، أما عزيمته فهي فوق المرض والشفاء ، إنها جوهر ثابت خالص . بيد أنّه ــ وهذا مرعب ــ يضحك بصمت القبور ، ويجلجل هادراً في سمع الواعين قائلاً : ما نفع شفائي من مرض ؟ فاذا سلمتُ فانني على الحالين ميّت ، فأنا محصور بين موتين : حياتي ، والقبر ، فيا أيها المحب للحياة ، المتهالك على العيش ، تمتّع بسهرك مع من تهوى ، ونم ملء جفنيك قريراً ، حالماً هانئاً ــ اذا قدر لك ذلك ــ وأنت لا تملك حياتك ولا موتك ، ولكن يخيل اليك ذلك ، فاغنم تلك اللمعات السرابية بين الحالتين ، لأن الحالة الثالثة حيث يهال عليك التراب ، أو تلقى نهايتك بشكل من الاشكال ، تختلف شؤونها عن اليقظة والغفوة ، وهما مظهران من مظاهر الحياة ، فهنالك النهاية التي لا حسّ فيها ولا حركة ، إنها القضاء المحتوم الاخير ، ولا رجعة بعده ، وبذا يكون المتنبي قد أفصح عن شكّه بحياة أخرى تجيء بعد العيش في هذه الدنيا ، وذلك بعد سؤال وجواب ، إلى نعيم او عذاب ، وندرك إلى أيّة درجة كان الشّاعر إنكاريّاً يرى « الموت بيضة العقر » كالجاهلي ، أو الفيلسوف الذي تصعقه واقعية الوجود ، مثلما يفجعه المصير ، ويزلزل جبال كيانه وارد الموت .

ما أشبه المتنبي بالمعري في حالات الايمان ، فالإنكار ، فالتردّد !!!
وما اعظمه رائداً من رواد الفكر الوجودي لدى المعاصرين !!!

**(ج) الحكمة وحب الحياة :**

ولذيذ الحياة أنفس في النفس
وأشهى من أن يملّ وأحلى[١٣]

١٣ــ الديوان جـ٢ ص ١٠١

واذا الشيخ قال أفٍّ فما ملّ
حياة وإنما الضعف ملاّ
آلة العيش صحة وشباب
فاذا وليّا عن المرء ولّى

* * *

ابداً تسترد ما تهب الدنيا
فيا ليت جُودها كان بخلا
فكفت كون فرحة تورث الغمّ
وخِلّ يغادر الوجد خلاّ

* * *

أرى كلّنا يبغي الحياة لنفسه
حريصاً عليها مستهاماً بها صبّا[14]
فحب الجبان النفس اورده التّقى
وحب الشجاع النفس اوردها الحربا
ويختلف الرزقان والفعل واحد
الى ان يرى احسان هذا لذا ذنبا

* * *

لعلّ تركيب لفظة الحياة كيميائيّاً ، أو فيسيولوجيّاً يوحي بحقيقتها ، فهذه الحاءُ ، وبعدها الياء ، فالألف الليّنه ، فالتاء المربوطة ، صدىً للرغبة ، والتمادي ، واللّين ، والتأنّث ، وكل ما فيها

---

١٤ــ الديوان جـ١ ص ٤٥ ــ ٤٦

يبوح باللذة ، وما اللذة الا تناسب وتكافؤ في قوى الجسد ، ليحدث عنها تناسب في قوى النفس ، وهذا الانسجام بين المادة ، وإطارها ، كذلك الانسجام بين عناصر الجميل الذي يمكث في الجمال ، وليس عدم التناسب ، او ما نسميه التنافر سوى الالم ، والبشاعة ، وليس صحيحاً أن اللذة هي انتفاء الالم ، فللذة حقيقة ، وليست حالة خلو .

لذيذ الحياة ، أنفس متع الروح ، والروح لا معنى لها بلا جسد ، فهي قمة المشتهى ، وأحلى الحلاوات ، لذلك لا يُمل منها ما دامت تزخر في العصب ، وتشتعل في الدم ، وما تضجّر الشيخ الهرم الا من ضعفه ، وامعانا في حبه الحياة ، وعندما سئم زهير من الثمانين ، والتكاليفه ، انما سئم من نقصان عزمه عن الاستفادة من مباهج الحياة ، وما تمنحه من احساس بالمتع .

والمتنبي يخلص من مقدماته عن الحياة ، لذتها ، شهواتها ، حلاواتها ، وقصور الشيخوخة عن استحواذها إلى منح القاعدة العامة بشكل نتيجة منطقية ، وحكم كلّي عقليّ ليقرر على طريقة المسكين ابن الرومي الذي بكى شبابه في عهد الشباب واكثر من النواح عليه ، فقال الصحة ، والشباب هما الحياة النفسية ، الشهيّة ، الحلوة ، فاذا ولى الشباب ، فالكائن الحيّ يسكن الموت .

وما دام الشراع الذي يحتويه يجري في بحر العقل ، والحكمة ، والهواء ، الذي حوله يلفتّه الى الشاطىء ، مثلما يرمي بلحظه الى ما بعد العباب ، المصير ، فليطلق لموهبته وإلهامه العنان كي يرى المصدر والمنتهى ، وليدرك سرّ الحياة في خدعتها المومس ، حيث تعطي أنوثة سطحيّة مغرية ، لتأخذ البهجة التي هي تفجر حياة في المغرى ، ونوال مال ربما أضناه جمعه ، فماذا يبقى بعد تلك الطفرة سوى الاسف ؟ فيا ليت البخل كان أصلاً ، اذاً لما ولد الجود المكذوب ، ولما حصلت فرحة تورث كمداً ، « وعجلة تهب ريشا » .

والمتنبي هو القائل :

أشد الغمّ عندي في سرورٍ
ترقّب عنه صاحبه زوالا[15]

وأصل المعنى لابن الرومي القائل :

إذا طاب لي عيش تنغّصت طيبه
بصدق يقيني ان سيذهب كالحلم[16]

فما شأن هذه الحياة ؟ وما امر ذلك الزمان ؟ واية جدوى في عالم الترّهات ؟ !!!

* * *

ليس من مهمّات الشعر أن يُشرح ، فهو اللفظة الموحية ، والإيماءة الشاردة ، والخاطرة اللاّمعة لمحةً ثم تنساح ، فالحياة شدّت قوائم وجودها على ركائز سمّها اذا شئت مع النفسانيين غرائز ، أو طبائع ، وكل غريزة تطلب شبعها وتطمينها دون حدود ، فيجيء العقل ليكبْحَ من جماحها ، ويسيّرها في طريق المدنيّة ، والتربية ، وتبقى غريزة حب البقاء أقوى غرائزنا على الاطلاق ، وعنها تصدر باقي الغرائز كحب النوع ، وحب الاطلاع ، وحب التملك ، وحب الحياة هو الحب الاحبّ الاغلى ، في سبيله تبذل كل جهود البشر ، ولاجله مختلفه أشياء الحرب ، ومتنوّع مظاهر السلام .

وبما أن المتنبي ربيب غبار ، ودم ، وشفار ، وصهيل ، فتجربته تملي عليه أن يلتفت توّاً الى ما يعانيه ، فيحكم أن الجبان والشجّاع ، ويريد ان يقول بين السطور التقيّ والمرتكب ، البخيل والجوّاد ، وشتى تناقضات الاخلاق انما هي في جوهرها شيء واحد ، المكوث في الحياة

---

١٥ـ الديوان جـ٢ ص ١٥٩

١٦ـ الديوان الرومي ص : ٣٦٤

وفي مظهرها ما نراه من تباين ، كالبذرة في الجذع ، وكالغصون من تلك البذرة .

حب الجبان للحياة يجمّده في عزلته ، والتقائه ، وحذره ، وحب الشجاع الحياة التي هي تمادٍ ، واستطالة ، وطماح ، يدفعه الى الحرب لكسب المزيد منها .

وما اختلاف الرزقين ، الا لاختلاف الحصيلتين ، أما الحكم على هذا بالفضل ، وعلى ذاك بالذنب ، فذلك موضوع أخلاقيّ ، ينسرب الى الدين ، فالقانون ، وهكذا نرى الشاعر يقول بكلمةٍ ما تقوله الاعراف بكتب ومجلدات .

التعبير بالرزق الذي هو ماديّ معيشيّ من دقة الشاعر المفلسفة ، فعيش الجبان برزقه ، وكسبه ، وكنزه الماديّ . وعيش الشجاع ، بكبريائه ، بتسلّطه ، بوصوله الى القمة ، وهنا تتصعّد كلمة الرزق ، فتصبح مجداً .

تعوّد الناس ان يذمّوا الجبان ورزقه المهين ، وأن يتمدّحوا الشجاع ومجده الصاعد ، لكن مهلاً أيها المسطّحون ، فكلاهما انطلق من نقطة واحدة هي حب الحياة ، ومعنى ذلك أن لا فرق بين الاثنين ، وأن لا معنى لهذه الحياة .

**(د) المتنبي والناس :**

هم الآخرون ، عثرات فى طريق الارادة ، حتى الأبناء ، وسائر الاقرباء ، « أفواه لا مجدية » حسب تعبير سارتر ، وسيمون ده بوفوار ، فكيف يحيا فالموت والحياة يستويان ما دام الحسّاد ينظرون إلى هذا المنكوب المتنبي معهم ؟ بدونهم ؟ وكيف يسيطر عليهم ؟ ولماذا يحيا بينهم ؟ إنّه فوقهم جميعاً . هذا فحسب ؟ كلاّ بوجودهم :

وما موت بأبغض من حياة
أرى لهم معي فيها نصيبا[١٧]
وما ليل باطول من نهار
يظلّ بلحظ حسّادي مشوبا

* * *

ومن عرف الأيام معرفتي بها
وبالناس روّى رمحه غير راحم[١٨]

* * *

ولمّا صار ودّ الناس خبّاً
جزيت على ابتسام بابتسام[١٩]
وصرت اشك فيمن اصطفيه
لعلمي انه بعض الانام

* * *

صديقك انت ، لا من قلت خلي
وان كثر التجمل والكلام[٢٠]
ودهر ناسه ناس صغار
وان كانت لهم جثث وهام

---

١٧ـ الديوان جـ١ ص ١٠٠
١٨ـ الديوان جـ٢ ص ٣٧٢
١٩ـ الديوان جـ٢ ص ٣٧٢
٢٠ـ الديوان جـ٢ ص ٣٥٠

وما انـــا منهـــم بالعيـــش فيهـــم

ولكـــن معـــدن الذهـــب الرغـــامُ

* * *

فأحسن وجه فـي الـورى وجـه محسن

وأيمـــن كـــف فيهـــم كـــف منعـــم[21]

لمـــن تطلـــب الدنيـــا اذا لـــم تـــرد بهـــا

ســـرور محـــب او إســـاءة مجـــرم

* * *

وانمـــا النـــاس بالملـــوك ومـــا

يفلـــح عـــرب ملوكهـــا عجـــمُ[22]

ألنّاس في حياة المتنبي هم الآخرون ، كما لدى الوجوديين المعاصرين.

عثرات فـي الطريـق ، سوءات في العيـون ، حسّاد" خدّاعون ، ذئـاب ساعرة الشهـوة الى الفتك ، منسوجون من رؤيته واقعه ، مـن عصره المنشغـل بالغلاّبيـن ، كالافاعي ينهش بعضها بعضاً ، من غرائـز الحيـوان :

والظلـم مـن شيـم النفوس فـإن تجـد

ذا عفّـــةٍ فلعلـــة لا يظلـــم[23]

— فلماذا لا يظلم ؟ ومـا هو السبـب المانـع ؟

---

٢١ــ الديوان جـ٢ ص ٣٣٩

٢٢ــ الديوان جـ٢ ص ٣٩٦

٢٣ــ الديوان جـ٢ ص ٣٨٣

ـ آفي الخلق ؟ أم في الدين ؟ ام أن ذلـك عجـز" .. ، وجبـن ، أم مرض ، وجهـل ؟

واذا مـا خـلا الجبـان بـأرضٍ
طلب الطعـن وحـده والنـزالا[٢٤]

* * *

فلمّـا صـار وُدّ النـاس خبّاً
جزيت على ابتسـامٍ بابتسـام[٢٥]
فلـم ار ودّهـم الا خـداعـاً
ولـم أر دينهـم إلاّ نفـاقـا[٢٦]

* * *

يقول النفسانيون إن كل غريزة تطلب إشباعها لذاتها ، ثم تنصب هـذه الذّات جسوراً بين مختلف الغرائز ، أو تعقد صلحاً بينها ، لتعمـر مملكـة الذات ، وتجيء القوانيـن ، والاعرافه ، والدين ، والمصالح ، لتعقد صلحاً آخر بين الذّات ، الفردية ، والمجموع ، ولكن الى حدٍّ لا يمحـو تلـك الفردية الأُفعوانيةِ الشهوة ، تلك التي من مطالبها حـب التملك ، وحـب التملك أشهى مشتهياته السيطرة ، ولا أفعل ، وأفخم لـدى السيطرة مـن ظلم الآخرين الذين يحذرهم ، ويقلاهم ، ويتلذذ بحريقهم وهو يغني ساعة يعزف ودخان روما النيروني يتصاعد تعاريج ذات الوان بهيجة ، أو يستمع الى أنين الجثث الحطيمة تحـت قدميـه ليقطف تفاحةً ساعة يتخذ منهـا سلّما ولم يجد سواها مرتفعاً الى القطف « البروطاغوراسيّ » .

أليـس المتنبـي ذلـك الطامـح الطمّـاع ، الـذي يحتـرّ فـي ذاكرتـه حريـق البصـرة بأيـدي الزنـج ؟ وفتك القرامطـة

---

٢٤ـ الديوان جـ٢ ص ١٠٩
٢٥ـ الديوان جـ٢ ص ٣٩٨
٢٦ـ الديوان جـ٢ ص ٢٩٢

المجنون الساعر في سبيل التسلط ، وفي باله الحجاج ، والخوارج ، وابو مسلم ، ونكبة البرامكة ، وفتك الخيزران بابنها الخليفة الهادي ، ومؤامرة المنتصر على ابيه الخليفة المتوكل ، ومقتله ليقعد مكانه ؟

هؤلاء من الناس ، بل هم كل الناس في نظره ، والنظم تخفف من حدة الغرائز في طباع الناس ولا تزيلها ، فما تفع التربية ، والتعليم ، والدين والخلق عند هذا ؟ ثم ان المتنبي راوية شعر ، وهو ممن لا يغيب عن باله قول ابي نؤاس :

واني وان كانت من الناس واثق

لنفسي منها بالدوام على العهد

والمتنبي ليس المعري ، ولا ديوجين ، انه من فصيلة الاسكندر ، وسيف الدولة ، وكافور ، وعضد الدولة ، ومعاوية ، وكل متسلط يصل ، ويحب أن يقف الناس عند مواقعهم فلا يصلون لأنه أحاط مجده وشرفه بالدم ، والنار ، والحرب :

لا يسلم الشرف الرفيع من الاذى

حتى يراق على جوانبه الدم[٢٧]

لذلك فهو يحقد على الناس ، ويمقتهم لانهم لم يمكنوه من الوصول ، فالحياة بينهم ، وحتى الموت بينهم ، بغيض كريه :

وما موت بأبغض من حياة

أرى لهم معي فيها نصيبا[٢٨]

وما ليل بأطول من نهار

يظل بلحظ حسادي مشوبا

---

٢٧- الديوان جـ٢ ص ٣٨٣
٢٨- الديوان جـ١ ص ١٠٠

إنـه من اولئك العدميّين الذين يعملون على هدم التّجمّع البشري ، ما دام لا يقيم عرشـه على ذروة هرمه • ولكن مهلاً ، فهو في حاجة إليهـم كدرجات للسلّم ، فعسى أن يتيسّر لـه الصّعود •

ويمعن المتنبي كفاحاً ، ويمعن الناس عناداً فيثـور ، ويستّل حقده غضباً ، وجنون عظمتـه لهبـاً ، ولا يجد من سبيل لإسكات « سيكلوب » غرائزه الا بالسّفك ، والسحق ، والتخضيب :

ومـن عـرف الايـام معرفتـي بهـا

وبالناس روّى رمحـه غيـر راحـم[٢٩]

« الرحمة خَوَر في الطبيعـة ، وضعف في المُنّة ، ما رحمـت شيئاً قط » هذه كلمة محمد بن عبد الملك الزيّات صاحب الجاحظ ، وصاحـب « التنّـور » الذي كان يحرق فيه أعداءه من الناس ، فجـاء القاضـي « احمد بن ابي دؤاد » وأحرقه فيه ، مثلما صنع المتنبي جوّ حياته مـن الحرب ، وسكن الغبار والريـح واللهب ، فجـاء خال « ضبة » « فاتك بن ابي جهل الاسدي » وأسكنه الدم الذي اراد أن يُسكن المتنبي ناسه فيه •

واذا سالَمَ ، فانمـا يسالم الناس على دخَن ، فهـم يضمرون لـه الشر ــ كذا رأى ــ وهـو يبادلهم شـعوراً بشعور ، وابتساماً خدّاعـاً بابتسام خدّاع ، ويجزيهم ببضاعتهم ، شكّاً ، وحذراً ، وبغضاً ، حتـى هؤلاء الذين يظهرون له الصداقـة :

وصـرت أشـكّ فيمـن أصطفيـه

لعلمـي أنـه بعـض الأنـام[٣٠]

ــ فهل في الناس صديـق ؟

ــ كلا ، أنـت وحدك صديق نفسـك دون سائر الناس ، حتى عوالـم

---

٢٩ــ الديوان جـ٢ ص ٣٧٢

٣٠ــ الديوان جـ٢ ص : ٣٩٨

نفسك الداخليّة تقوم على التّضادّ ، والصراع ، والحياة كلها ميدان تضـاد وصـراع :

صديقـك أنـت ، لا مـن قلـت خلّـي
وإن كثـر التجمّـل والكـلام[31]

وصفيّك ، وشارحك ، « إبن جنّي » يا ابا الطيّب ؟ والذي ترك خلفه وما تركت وأبى إلاّ رفقتك والمغامرة معك ؟ هو كذلك منهم ، لانه ليس منّي ، ليس أنـا ، أنا هـذه التي هي كل شيء ، والآخرون صغـار صغار في النفوس ، ولو كانت لهم أشكال تملأ العين ، وتخزى في القلب ، فهم آخرون دائمـاً وانا لسـت منهم :

ودهـر ناسـه نـاس صغـار
وإن كانـت لهـم جثـث ضِخـام[32]
ومـا أنـا منهـم بالعيـش فيهـم
ولكـن معـدن الـذهب الرغـامُ

عجيب أمرك يا ابن سقّاء الكوفة !!! ألست تذكر أن نشأة « محمد إبن عبد الملك الزيات » كنشأتك ومطامحه كمطامحك ، واحقاده كاحقادك، ونهايته كانت نهايتك ؟

— بلـى !!!

وهذا الذهب أليس ترابا مكثّفاً بفعـل الزمن ؟ فلماذا تَنْعت الناس الاحياء بالجثث ؟ وهل فعلت خلاف ما فعلوا ، أو انك صنعت لهم خيـراً مما صنعوا لك ؟ فلماذا ترسـم لبالك على حدود كل أفـق ، وأمام أيّـة نظـرة هؤلاءالطمّاحين الطمّاعين ، ولا تتذكر بوذا ، وسقراط ، وعيسـى

---

٣١ـ الديوان جـ٢ ص : ٣٤٠ .
٣٢ـ الديوان جـ٢ ص : ٣٢٩

ومحمداً ، اولئك الذين رفعوا الواقع الى سمّو الفضاء ، وأجروا في ذلك الفضاء نجوم السماء . والسماء في غياباتها مدىً الى مطلق الجمال والجلال ؟

— حسناً ، فليهدأ المتنبي قليلا ، وليستمع الى وخز ضميره ، وليبتسم عن رضا لا عن خبيئةٍ تقابل ابتساماً بابتسام :

فأحسن وجه في الورى وجه محسن
وأيمن كف فيهم كفّ منعم[٣٣]

أتخدعنا يا ابا الطيّب ؟ إنك لم ترض عن بعضهم الا لانّهم لَبِنات في مدماك عمارتك ، ولم تنظر إلاّ إلى جهة فائدتك « محسن ، منعم » المهم أن تأخذ ، فماذا أعطيت ؟

يجيب شاعر الدهور : ما نفع الدنيا اذا لم يتوفّر فيها سرور محب ممّن أحبه ، أو الإساءة الى من أجرم ؟

وهنا يقرّر المتنبي موقفه من الاخلاقيّين ، وارباب الاديان ، فليس لديه أي اتجاه اليهم ، او طريق يسير فيه معهم ، « فأحسنوا إلى من أساء اليكم ، واحبوا مبغضيكم ، وباركوا لاعنيكم » ليس في قاموسه وما هو الا بروطاغوراس ثان . « والعافين عن الناس ، وادفع بالتي هي احسن » لا ترد في كتاب سلوكه .

المحبّ هو ذلك الذي يضع حبه ، ويقدمه لمن أحبّ : وكل وسيلة للسرور لا يجوز أن تمنح الا لمحسن أو منعم ، ومن عدا ذلك فهم إمّا لا وجود لهم أو أنهم مجرمون يجب ان يعاقبوا . فهل معنى هذا أن المتنبي يعود بالحياة الى طبيعتها من صراع الاقوياء ، وسحق الضعفاء ، وترك الميدان للغرائز أن تلعب وهو هو الذي ينادي بسلطان العقل ، ويشنّع كل تشنيع على الجاهلين والاغبياء ؟ !!

---

٣٣ـ الديوان : جـ٢ ص ٣٩٦

مــــارد !!!

ولا يُسأل الجبابرة عمّــا يفعلون !!!

لكنه يرجع الى حكمة عقله فيقرر أن الناس لا يصلحون الا بالملوك ، وأنّ العرب لا تصلــح بملوك أعجام ، تلــك واقعية الحياة ، والعصر ، والرؤيــة المباشرة ، همّه دائماً أن ينظر الى فوق ، اذ لا قيمــة للنــاس • الا بكونهم تحقيقاً لوجود الملــوك ، فللملوك وحدهم الوجــود الحــقّ ، ولقاعدة الهرم العفاء • وكأنيّ بــه يقرر أن العرب هم الذيــن يصلحون للملك ، وسواهم همل" ، أو نفايات ، لا ادب عندهم ولا حسب ، ولا عهود ولا ذمم ، وأنّه يرى في كل أمــة من الشعوب الاخرى عبداً يسوسها ويكاد يُبْرى بظفره القلـم[٣٤]

(هـ) الصديق

المتنبي واقعيٌ ، عابس لا يؤمن بمألوف الصداقة ، ولا يرى خليــلاً للانسان خارج ذاته ، فاذا كانــت لفظة خليل تفيــد تداخل كائــن واع بآخــر ، واندغامهما كأنهما كائن واحد ، فالمتنبي يردّ التخلل الى اجــزاء الشخص بمفرده ، وبما فيــه من قــوى ، وعناصر بها تقوم شخصيته :

خليلُك ، أنــت ، لا مــن قلــت خلّــي

وإن كثــــر التّجمّــل والكـــلام[٣٥]

والتجمّل مــلاءة اجتماعيــة يستر بهــا الانسان عــري نفسه إزاء الآخرين ، ويخفي مطامعــه وشهواته ، بتزويق الكلام وتنميقه • لكن المتنبي لم يعدم أنصاراً في حياته ، رأى فيهم شبهاً لذاته ، وتناغماً داخلياً مــع دخيلته ، فاعترف بمقدارهم ، ولكنه نعتهم بالقلة ، فالنبّلاء الشرفاء قليلون كالخيل الأصيلة الكريمة ، وهم لا يعرفون الا بالتجربة ، وحكّ جوهــر

---

٣٤ــ الديوان جـ٢ ص ٣٣٠

٣٥ــ الديوان جـ٢ ص ٣٤٠

نفوسهم ، إذ ربّما يظهرون بسطوحٍ زَريّة ، واشكالٍ تتخطّاها الرؤيه، ويتجافى عنها العيـان :

*ومـا الخيــل الا كالصديــق قليلـة*

*وان كثرت فـي عيـن من لا يجرّب*(٣٦)

*إذا لـم تشاهـد غيـر حسـن شياتهـا*

*وأعضائهـا فالحسـن عنـك مغيّـبُ*

للصداقة جمال ، وللخيـل جمال ، لكنّه قد يخدع في ظاهر الملامح ، ساعة يخفي بشع الخلائق ، لأن الجمال الحقيقي ، ما نبع من الداخل كرماً ، وعطاءً ، ونبلا لا تقيّـده مطامـع .

في هـذه الحالة النادرة ، يرسـم لنا المتنبي شخصية الصديــق الحقيقي ، ولعلّه ، استعارها من كلام الصوفيّين ، اولئك الذين يرون المحبة في تسرب الصديـق الى داخـل صديقه ، والفناء فـي الحـب ، استجابة لدواعي الوحدة ، وحدة لوجود ، فلا يكون الصديق صديقاً الا ساعـة يكـون لأخيـه عينه التي بها ينظر ، واذنه التي بها يسمع ، ويده التـي يحركها ، وقدمه التي يسعى بها :

*مـا الخـلّ الا مـن أودّ بقلبـه*

*وأرى بطـرفٍ لا يـرى بسـوائـه*(٣٧)

ربّما كان هذا الاعتراف الاخير بإمكانيّة التخلّل من صديق في آخر ، من آراء المتنبي في مطلع شبابه ، ساعة كان يقلّد ، ويمدح ليرضي ، ويكرر معاني السابقين ، وأنّه عدل عن هـذا الـرأي في مقبل أيّامه ، فالبيـت السابق من قطعة مدح بهـا سيف الدولة في مستهـلّ تعارفهما بحلـب ، مطلعهـا :

---

٣٦ـ الديوان جـ١ ص ١٢٨

٣٧ـ الديوان جـ١ ص ٤

القلب أعلم يا عذول بدائه

وأحق منك بجفنه وبمائه[٣٨]

وساعة اصطدم بالوجود ، وعرك الناس وعركوه ، وتكشّفت له دخيلة الاسود المخصيّ كافور ، وارمضته الحمّى ، والوحشة ، والضياع في عباب الأوقيانوس المهول ، الحياة ، قال :

وصرت أشكّ فيمن اصطفيه

لعلمي أنه بعض الأنام[٣٩]

قالها ساعة جفاه كافور ، وانقلب الغوى الاخضر ، الشلال في نظره الى سراب في بيداء الرمال ، وخضّته الحمّى في مصر خضّاً .

**(و) حكمة الحب والجمال**

**ألحب** : كلمة مركبة من الحاء وهي حرف حلقيّ حادّ يرمز الى العاطفة الحارّة . والباء المضاعفة التي هي حرف إطباق ، وذلك يفيد الشدّة وحبّ الاستحواذ . مثلها لفظة LOVE الانجليزية ، أما AMOUR الفرنسية فحرف A فيها حلقي أيضا ، والميم كذلك إطباقية ، لكن حرف اللين يفيد التمادي ، وحرف الراء للرعشة ، والاهتزاز .

من هنا يبدو لنا أن الكائن البشري رمز إلى مشاعر الجنس بحروف تكاد تكون واحدة في لغاته المختلفة أو أنها تصور حالة واحدة في مواقفه من الجنس ، وممارسة النوع ، واشواق الذات .

ليس من محبّ الا وهو يرغب في امتلاك محبوبه ، فاذا فشل ، التجأ الى كائن أعظم ليعوض به ما خسره . ثم ان

---

٣٨ـ الديوان جـ١ ص ٣

٣٩ـ الديوان جـ٢ ص ٣٩٨

موضوع الحب هو الجمال حسب مقاييس الافراد ، والعصور ، والشعوب ، والمواقف .

**الجمال :** كلمة تفيد الجمع ، من جمل اذا ألّف المتفرق ، ومنه الجمل وناقته لانه يجمع المسافات البعيدة فيقرّبها ، وكذلك الجملة التي تضم كلمات متباعدة كثيرة في تعبير واحد .

والجمال في علم الإستطيقا هو الانسجام أو التّناسب .

وهذا الحب الذي موضوعه الجمال ، يدفعنا الى ايجاد موضوع للجمال يتسلط عليه الحبّ ، وليس غير المرأة .

بيد أن المرأة قد تنحرف الى سواها ، فتنحدر الى ما هو أدنى منها من الحيويات ، او تسمو الى ما هو ارحب واشمل في الذهنيات .

واذا كان المتنبي شاعراً ، والشاعر فنان ، والفنان يجد في جسد المرأة أبجديّةً يعبّر بها عن هوسه وابداعه ، فهل كانت للمرأة تلك الاهمية فى شعر المتنبي ، خاصةً شعره الحكميّ ؟ وما موقفه منها ، وماذا أعطته من رؤية ليقف مواقف متمازة ؟

على العموم مطلقاً لم يكن المتنبي ممّن تستهويهم المرأة كانسان له عقل وحرّية ، وشخصية ، بل هي وعاء للنسل ، واحدى الوسائل لتطمين الجسد ، ولا عبرة بما أثر عنه في رثاء أخت سيف الدولة ، فتلك حالة عابرة اقتضتها ظروف المدح لاخيها وربما .. سوى ذلك .. لكن المتنبي لم يجهل العشق ، ولم يكن عاجزاً ، أو منحرفاً ، او ساديّاً ، ليضل في فهم الهوى ، وإن كان يتجاهل حقيقة الهوى ، وما تخفيه النفوس من مشاعرها أزاء المحبوب :

لهوى النفوس سريرة لا تعلم
عرضاً نظرت ، وخلت أنّي أسلم (٤٠)

---

٤٠ـ الديوان جـ٢ ص ٣٨٠

فعنده أن الهوى يتمّ من النظـرة الأولى ، فيعاب الناظر بسـهام العيـون ، فتسلبه سلامته .

والمتنبي المملوء هوساً بالمجهول ، بما يطل في آفاقه من لمع المجد، لا يجد الوقت الكافي لحبّ النساء :

وللخـود منّـي ساعـة ثـم بيننـا

فـلاة إلـى غيـر اللقـاء تُجـاب(٤١)

فبماذا إذن يلهو ، وما الذي يجده في الفـلاة يقطعها ومـا هي غايتـه خارج نطاق المرأة ؟

وغيـر فـؤادي للغوانـي رميّـة

وغيـر بنانـي للزجـاج ركـاب(٤٢)

تركنـا لاطـراف القنـا كـل شهـوةٍ

فليـس لنـا الا بهـن لعـابُ

ويفصح أكثـر عن موقفـه مـن العشق ، فيطلق صوتـه بحكـم شمولي قائـلا :

ومـا العشـق الا غـرّة وطماعـة

يعـرّض قلـب نفسـه فيصـابُ

لماذا ؟ لأن العاقـل ساعة يفكر في مصير كـل جمال يسلّط عليـه الحـبّ ، يعـدِل عنـه الى سواه :

لـو فكّر العاشـق فـي منتهـى

حسـن الـذي يسبيـه لـم يسبِـهِ(٤٣)

---

٤١ــ الديوان جـ١ ص ١٣٤
٤٢ــ الديوان جـ١ ص ١٣٥
٤٣ــ الديوان جـ١ ص ١٤٧

حتى هذا العاشق الذي أخذ بالحب غرّة ، فطمع في أشياء المحبوب ، واستحوذ عليه الجوّ ولو الى لمحات لذّيّة ، فان تلك اللذة تزول لمجرد تفكير العاشق العاقل بالزوال ، عندئذ ينقلب الفرح الى ترح ، فيا ليته لم يعشق ، ولم يدر ما الهوى :

أشدّ الغمّ عندي في سرور

ترقّب عنه صاحبه زوالا[٤٤]

كذا يتبدل الجمال الى منتهى البشاعة ، والسرور الى أكثف الغمّ . فكأن الشاعر هنا يخرج عن دائرة حكمته ، ورويّة عقله ، إلى نوع من المرضيّة ، ساعة لا ترى نفسه الا دنيا مصبوغة بالسّواد ، والكآبة ، وإن كانت شفافيّة النفوس الموهوبة ، والرؤيات الفنيّة تنفذ الى ما وراء الحوادث والاشياء ، فترى المصير الراعب ، يغلّفُ الكون بملاءات العدم .

لكنك يا ابا الطيب فوّقت حبّك للنساء اللواتي تقول فيهن :

ومن خبر الغواني فالغواني

ضياء في بواطنه ظلام[٤٥]

الى حبك للمجد ، والفتكة البكر ، فهل فكّرت في منتهى حسن الذي استباك لتتنكّب عن ذلك الحبّ المدلّه بالمجد ؟

ربّما أجاب المتنبي : إنني لا اكره النساء ، ولا اكره المجد ، ولكن الذي يستهويني يلوح لي بين الاسنة والشّفار ، ولكي احدد موقفي من المرأة ، فلتكن بدويّةً غميسة الوجه بسمرة الشمس ، والغنج ، ونظرتها من لفتات الغزال :

---

٤٤ـ الديوان جـ٢ ص ١٥٩

٤٥ـ الديوان جـ٢ ص ٣٤١

حسن الحضارة مجلوب بتطرية
وفي البداوة حسن غير مجلوب(٤٦)

أما الحسن في الوجوه ، فليس غاية الحسن لدى الشاعر ، اذا لم يرافقه شرف الخصائل ، ونبل الفعائل :

وما الحسن في وجه الفتى شرفاً له
اذا لم يكن في فعله والخلائق(٤٧)

وأحيانا ينصف المتنبي العشّاق ، ويرثي لحالهم ، فقد أصيب قلبه اصابة بالغة ولو انها جاءت عن غرة وطماعة :

وعذلت اهل العشق حتى ذقته
فعجبت كيف يموت من لا يعشق(٤٨)

* * *

وعذرتهم وعرفت ذنبي أنني
عيّرتهم فلقيت منه ما لقوا

ماذا لقيت يا أبا الطيب ؟

لولا مفارقة الاحباب ما وجدت
لها المنايا إلى أرواحنا سبلا(٤٩)

كلّ ما قدّمه المتنبي من احكام على العشق والعاشقين ، والهجر ، نقضه الآن ، وأصبح عاشقاً يعاني جهد الصبابة ، ويتحدّث عن تجارب الحبّ :

---

٤٦ـ الديوان جـ١ ص ١١٦

٤٧ـ الديوان جـ١ ص ٤٦٩

٤٨ـ الديوان جـ١ ص ٤٧٨

٤٩ـ الديوان جـ٢ ص ١٣١

فمن شاء فلينظر إليّ فمنظري
نذير إلى من ظن أن الهوى سهل[٥٠]
وما هي الا لحظة بعد لحظةٍ
اذا نزلت في قلبه رحل العقلُ

عندئذ يعيش العاشق الناظر في الجمال بارادته ، برغبته ، بلحمه ودمه :

جرى حبها مجرى دمي في مفاصلي
فأصبح لي عن كل شغل بها شغلُ[٥١]

كيف يكون هذا الشاغل أيها الشاعر المتيّم ؟ وما هي حالتك آنذاك ؟

ألحبّ ما منع الكلام الألسنا
وألذّ شكوى عاشق أن يعلنا[٥٢]

العاشق الذي تدلّهه جمالات الجنس يجد في التحدث عن حبه كأن الحديث نوع من الوصال .

**(ز) الدنيا واليأس والموت**

الدنيا ، هي الحياة ، والحياة هي الناس ، والناس يعيشون في مكان وزمان ، وقد عرفنا مختلف رأي الشاعر في كل ذلك ، فارتسم في شكله العابس ، اليائس ، ولكنه يصارع ، ويطمع ، ولا يخفض جناحيه عن مكافحة الاعاصير ، وقد يرقّ ويلين ساعة يلمح بارقةَ أملٍ بمغنم ،

---

٥٠ ـ الديوان جـ٢ ص ١٣٢ .

٥١ ـ الديوان جـ٢ ص ١٣٢ .

٥٢ ـ الديوان جـ٢ ص ٤٣٨ .

وينزل من على عرش كبريائه ليقعد بين يدي عبد أسود يحكم أمبراطوريّة: ويمدحه ، متوسّلاً كالعابد في محرابه أمام الله :

ولكنّك الدّنيا إليّ حبيبة

فما عنك الا لي اليك ذهاب (٥٣)

فتن المتنبي بهذه الدنيا ، فتنة الصوفيّ بمالىء الكون جمالاً ، وتعبّد لها ، بهيام ، ومنح وجود ، وقد تسنّى للمتنبي أن يجمع من المال ، ومباهج العزّ الدنيويّ ما لم يتيسّر لسواه ، فقد كان لا يمدح الا الملوك والامراء والكبراء فينال سخيّ عطائهم ، ويستزيد ، وهذا شعره المادح ، يدور اكثره على العطاء والكرم ، وعنده « أن الملوك لا يُستحى من مسألتهم » فهذه حالُ النّاس ، وحال عصره ، وسائر عصور البشر ، إنما تختلف الوجوه ، والأعتاب ، والطّرق ، وها هو يتقرّر عن تجربة وحرص :

فلا مجد في الدنيا لمن قلّ ماله

ولا مال في الدنيا لمن قلّ مجده (٥٤)

وقد حظي المتنبي بالمال فكاد يكتفي ، ولكنه لمّا يحظ بالمجد ، فليطلب هذا المجد ما دام في سراج العمر زيت ، وفي رغبات الذات شرر يتطاير ، ولمّا يخمد بحال .

بيد أن المال فضلة ، وهو من علائم مجد الماجدين ، وهذا المجد صعب ، بعيد ، لا يُمنح بل يؤخذ عنوة واقتداراً ، والمتنبي لمّا تتوفر له هذه القدرة ، وهو القائل :

---

٥٣ــ الديوان جـ١ ص ١٤٠ .

٥٤ــ الديوان جـ١ ص ٢٨٥ .

مـن أطـاق التمـاس شـيء غلابـاً
واغتصـابـاً لـم يلتمسـه سـؤالا[55]

فما باله يشكو قائـلاً :

مـاذا لقيـت مـن الدنيـا وأعجبـه
أنـي بمـا أنـا باك منه محسـود[56]

لقيت المال ، ومجد الشعر ، والتمتّع بالزّوجة ، والولد ، والحاشية ، والرفاق ، لكنك لم تصـل الى الولاية التي تنشدها لاشباع نهمـك الـى السيطرة ، وسَتْر الضّعة التي نشأتَ في حضنها بالكوفة ، فـي محلـة كندة ، لأن الناس يقفون حجر عثرة في طريـق هذه الولاية ، ولم تستفـد من المصانعـة ، والتجمّل ، وإظهار الحبّ للبُغَضاء ، والألفة لمـن تنفـر نفسـك منهـم :

ومـن نكـد الدنيا على الحرّ أن يـرى
عـدوّاً لـه مـا مـن صداقتـه بـدّ[57]

فالدنيا كلها نكد ، وهؤلاء الممدوحون ، آخرون ، فكلّهم أعداء ، وإن كنت سترت عداوتك لهم ، واخفوا عنك احتقارهم ، ومدّوا لك بسـاط المالقة ليكسبوا مدحك ، ويضيفوا مجداً الى مجدهم ، وانت تذيب نفسك سعياً ، وحسرات لتنيْل بعض هذا المجد ، ولـم تلق الا الكذب والمداهنة :

ومـن صحـب الدنيـا طويلاً تقلبـت
على عينـه حتـى يرى صـدقها كذبـا[58]

---

٥٥ـ الديوان جـ٢ ص ١١٢ .
٥٦ـ الديوان جـ١ ص ٢٧٢ .
٥٧ـ الديوان جـ١ ص ٢٣٨ .
٥٨ـ الديوان جـ١ ص ٤٠ .

وربما عزّاك أن الناس جميعاً ، من قمة الهرم الاجتماعي الى ادناه ، من الملوك الى الصعاليك ، لم يصلوا الى كل ما يبغون ، فالشهوات لا يطمئنّ سعارها ، وحب السيطرة لا يخبو أواره ، والناس في ذلك سواء ، ألست انت القائل :

كثير حياة المرء مثل قليلها
يزول وباقي عيشها مثل ذاهب[٥٩]

وتقرّر :

فما قضى أحدٌ منها لبانته
ولا انتهى أربٌ إلاّ إلى أرب[٦٠]

إذا فأنت يائس أيّها المخلوق ، الشاعر ، الطامح وانت لما تتخط العشرين اذا كان سلفك زهير سئم في الثمانين :

وما أربت على العشرين سنّي
فكيف مللت من طول البقاء[٦١]

وأنت تكاد تضيع في عباب هذا الخضم الرحيب ، وقد جبت الشواطىء ، والمحيطات ، وصحت وقد يئست من كل شيء وانت بعد الخمسين من العمر ، في نهاية مطافك بشيراز :

وما انا غير سهم في هواء
يعود ولم يجد فيه امتساكا[٦٢]

قالها قبلك سليمان : « باطلُ الاباطيل ، كلّ شيء باطلٌ » وقالها

٥٩ــ الديوان جـ١ ص ١٠٨ .

٦٠ــ الديوان جـ١ ص ٦٩ .

٦١ــ الديوان جـ١ ص ٧ .

٦٢ــ الديوان جـ٢ ص ١٧ .

هملت شكسبير « هــذه الحياة لا تستحق أن تعاش » كما صاح ڤاوســت غوته « ليتني لــم أولد » وهــذا المعريّ حطم الحياة بعدك بمنع النسل ، وقادها شوپنهور الى العدم ، وسواهم الآلاف عرفوا ، وزهدوا ، أو عرفوا وطمعوا ، وأنــت أنــت القائل :

ومــا الــدهر أهــل ان تؤمّــل عنــده
حيــاة وان يشتاق فيــه الــى النســل(٦٣)

فكيف لم تقصر ، وقد انتقلت من جهــد الى جهد ، وتعــب موصول بتعب ، لم تطمئنّ ، ولم تهــدأ :

علــى قلــق كــان الريــح تحتــي
أوجّههــا يمينــاً او شمــالا(٦٤)

* * *

كيف تهدأ أيها المسكين المحكوم بقدره ، وهذا القدر آفة سيكلوبيّة تلتهم الاحيــاء ، وتتلهى بالعبث الموصول بهم ، ثم تقهقه وهي تلقيهم بيــن أشــداق المــوت ؟

كفى بــك داءً أن تــرى المــوت شافيــا
وحســب المنايــا أن يكــن أمانيــا(٦٥)

ولكنك تمضي كالنعجة تهزهز الارض بيديها ، لتكشف عن السكّين التي بها تُقتل ، وتضجّ ، وتملأ الدنيا ، وتشغل الناس ، وتجلجل قائلا :

---

٦٣ـ الديوان جـ٢ ص ٤٩ .

٦٤ـ الديوان جـ٢ ص ١٦٠

٦٥ـ الديوان جـ٢ ص ٥٠٩ .

واذا لم يكن من الموت بد

فمن العجز أن تكون جبانا[٦٦]

فماذا أفادتك قدرتك ؟ وماذا أجدت عليك الشجاعة ؟ وما دام حكمك ما قلته :

فطعم الموت في امرٍ حقير

كطعم الموت في أمر عظيم[٦٧]

* * *

**(ح) العقل :**

للعقل نصيب كبير في شعر المتنبي ، والعقل هو ربط الأشياء بفكرنا عنها ، بذواتنا ، ثم التّمييز بين الموجودات كما هي ، كما تبدو ، كما تصير ، لكن عقل المتنبي كان تابعاً إرادته ، فنحن نحيا ـ كما يقول « شوپنهور » بالارادة والفكرة ، حسب كتابه النادر المسمّى بذلك الاسم « العالم كارادة وفكرة » وهو في مستوى كتاب « كانت » « نقد العقل الخالص » وفي عصره ، وعندي أن شعر المتنبي في عقلانياته ذو إيماءات تتوافق وما رمى اليه الفيلسوفان الالمانيان. ارادة المتنبي زأرت في عصبه ، فحتّت في دمه ، دفعته الى أن يجري على بساط الريح القلق ، ويملأ الدنيا صياحاً في الآفاق أنه ظمآن ، وكانت الدنيا تمنحه صوراً سرابيّة عن الماء ، فعاش وهمّته في زخم دائب ، ولكن نجم عقله ، أو توفيقه فيما أراد ما استطاع أن يصل .

أبداً أقطع البلاد ونجمي

في نحوس وهمتي في سعود[٦٨]

---

٦٦ــ الديوان جـ٢ ص ٤٧٣ .

٦٧ــ الديوان جـ٢ ص ٣٧٩ .

٦٨ــ الديوان جـ١ ص ٢٠٧ .

لذلك فإن هذا العقـل لم يكن طريقه ، وانّما عكس لنا صـــدى تجربته ، وتأمّله في حوادث الزمن ، ومعاناته ، وجعـل من كـل ذلك مبدأً عامّاً ، وحكمة مطلقة ، ولو أنصفه نفسه لأتعض بســواه دون أن يعرّض عمره كله للسرابيات ، اذاً لأمِنَ ، واستقرّ ، ولكن هيهات لشخصية فنان مثلــه ان يكون سوى ما كان ، وهل يحيا أصحاب العبقريات بالعقـل ، أو أنهم يستلينئون لسلطانه ؟ كلاّ وأيم الله ، فهم جميعاً كالمتنبي من القــواد العظام ، الى الرسل الكبار ، فالفلاسفة ، حتى الفلاســفة ، والصوفيين ، والأدباء ، ولماذا لا أغالي فأقول إن حضارة البشر لـم تكتب باقلام العقلاء ، بل بسطور المجانيــن وأنصاف المجانين ، وسأقتحم المحظور والمحذور وأقرر أن سائر النــاس ، الا القليـل الأقـلّ منهـم إنمـا يحيـون بالارادة ، والشهوات ، والمطامـع ، ونصيـب العقـل مـن وجودهـم أقـل مـن القليـــل ..

بيـد أني أردّ حكمة المتنبي حـول العقـل ، الى روافد نجدهـا مظهـراً لثقافته ، وتجاربه ، وعصره ، وما يصعب على الباحث المـروّي أن يرجـع معظـم حكـم المتنبي الى سوابقها مـن الفكر العـربيّ ، او اليوناني وسواه ، فالرّجل كان من الناس لحماً ودما وعصبا ، وعقلا وشعوراً ولا وعياً ، وإن امتاز بخصائص ، ومآتٍ فذلك لا يعــدو امتياز شجرة سامقة في الغابة ، أو بحر واسع بين البحار ، وجبل عال بين الشماريخ على ما ســوى ذلك .

أشرت سابقاً الى أثر العقل الارسطيّ في شعره الحكيم ، الى جانـب المثليّة الافلاطونية كخط للتفكير ، أو للبوح الشعريّ ، ولا اودّ أن أسرف في ذلك ، فالباحـث يستطيـع ان يزيـد إيغـالاً وشمولا متـى أراد ، أراد ، ودندنة المتنبي حول إخفاق العاقل الفهم ، ونجاح الجاهل المغلـق دندنة أو شنشنة سبقه اليها أخزم ، ولنسمعه يقول :

وما الجمع بين الماء والنار في يدي

بأصعب من أن اجمع الجَد والفهما[٦٩]

ما هذا الجد؟ هل له علاقة بالزمن؟ هل للزمن عقل؟ أم أن علاقته بالانسان، وأنه من اعمال الانسان وتصرفه بروية، أو نزق؟ لا شيء في الزمان الذي تتهمه، وانما «الصيد كل الصيد في جوف الفرا» فالانسان «مقياس كل شيء» كما يقول پروطاغوراس السوفسطائي، أو تقرر الجدلية المادية، فاعمل، وادأب، تلق، على شريطة أن تعرف كيف تعمل، وأن تستخدم الذكاء في الدأب، وأن تكون لذكائك عينان ترى بهما مصائر الاعمال، وغاياتها. فهل معنى هذا أن تتهم المتنبي بالسطحية، ساعة يلبس جبة أرسطية ويقول:

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله

وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم[٧٠]

نطلب من الشاعر أن يحدد معنى النعيم، ومعنى الشقاوة، عندئذ نصل به أو يصل بنا الى ما نسميه اللذة والألم، وهنا ينتحبك سؤال: هل اللذة في المادة نفسها؟ وكل ما نجمع منها؟ أم انه في الزهد بها؟ وهل كان الاسكندر اكثر سعادة من ديوجين؟ وهل اللذة إيجابية، او انها سلبية؟ أي تكون لذة ساعة ينتفي ألم، أو أن لها حقيقة؟

جوعي، وعطشي ألم، شبعي وارتوائي لذة، مدة الألم واللذة فترات قليلة، فأين يمضي الالم وتذهب اللذة ساعة تكون الحالة بين بين؟

ثم أليس المتنبي شاعراً، والشاعر كفنان يرى مصير كل لذة وكل ألم الى صفر، وعدم، فما معنى التمييز الآني بينهما؟ وهو هو القائل كما سبق:

---

٦٩- الديوان جـ٢ ص ٣٦٨.

٧٠- الديوان جـ٢ ص ٣٨٢.

كثيـر حيـــاة المـــرء مثـــل قليلهــــا

يــزول وباقــي عيشهــا مثــل ذاهــب[71]

لــو فكــر العاشــق فــي منتهــى

حســن الـــذي يسبيــه لــم يسبــه[72]

أَشَدُّ الغــمّ عنــدي فــي ســرور

ترقّــب عنــه صاحبــه انتقــالا[73]

* * *

مدح المتنبي كثيرين وأفرغ عليهم صفات العقــل ، والحكمة ، والمعرفة، فمــاذا كان نصيبه من عقلهم ؟ وهل جنوا هم انفسهم ثمــار ذلك العقــل ؟ وهذا أميره المفضل سيف الدولة الـ :

عليــم بأســرار الديانات واللّغــى

لــه خطــرات تفضح الناس والكتبــا[74]

كيف انتهى سيف الدولة ؟ وعلى أية حال انطفأ قنديــل عمر المتنبي وهو يسعى اليه في « دير العاقول » ؟ ولماذا تركه الى كافور ، وابن العميد، وعضد الدولة ؟ ولماذا أحبّ ان يرجــع الى حلــب ؟ دع هذا العقل يا أبا الطيّب فما هو غيــر طفل في يــد الارادة ، ما هو ســوى ارادة وشعور راســب ، يعــي ، ويوحي ، ويرافــق الارادة الفاعلة . وأنــت قد اخذت

---

٧١ـ الديوان جـ١ ص ١٠٨ .

٧٢ـ الديوان جـ١ ص ١٤٧ .

٧٣ـ الديوان جـ٢ ص ١٥٩ .

٧٤ـ الديوان جـ١ ص ٤٣ .

نصيبك من الدنيا ، فهل تشعر أن المجد الشعريّ الـذي بنيـت صروحه وقلاعه يقصّر عنه مجد الأباطرة ، وطغاة التاريخ ؟ وأن هذا جميعه ، وبعض هذا جميعه ، وأقـل من أقله ، ذهب أباديد ، ولـم يبـق الا فحيح هـذه الحياة التي ركّبتنا كيمائياً ، واذهبتنا كيمائياً ، ولا ندري الى متى تستمر اللعبة فـي مختبر الزمـان والمكـان !!!

* * *

# طائفة من حكمه

**عن الديوان / الجزء الاول**

صفحة

وكل امريء يولي الجميل محبّبٌ
وكل مكان ينبت العزّ طيّب ١٢٥

ولو جاز أن يحووا علاك وهبتها
ولكن من الأشياء ما ليس يوهبُ ١٢٨

أعز مكان في الدنى سرج سابح
وخير جليس في الزمان كتاب ١٣٥

ارى لي بقربي منك تفساً قريرة
ولكن قرباً بالبعاد يشابُ ١٣٨

وفي النفس أشياء وفيك فطانة
سكوتي بيانٌ عندها وخطابُ ١٣٨

إنني أصيد البزاة ولكنْ
أجلّ النجوم لا اصطاده ٢٨٠

* * *

إن القتيل مضرجاً بدموعه
مثل القتيل مضرجاً بدمائه ٥

وهبني قلت هذا الصبح ليل
أيعمى العالمون عن الضياء ؟ ٧

فإني قد وصلت الى مكانٍ
عليه تحسد الحدق القلوبُ ٥٤

صفحة

صفحة

صفحة

* * *

# غـزل المتنبـي

(أ) معنى غزل ـ موضوعها الحب والجمال ـ غايتها ـ الغزل بالجنس ـ الشاذّ ـ المصعّد .

(ب) الغزل قبله ـ غزل المتنبي ـ فواتح القصائد ـ رأيه في الجمال ـ نوع الجمال ـ البدوية ـ العذريّه ـ الغلمانيّه ـ الطبيعيه ـ الفرس ـ المجـد .

(جـ) المتنبي والقـوة ـ مقابلة النؤاسي والخمرة ـ ابن الرومي والطبيعة .

(د) النرّجسيّة ـ آفاق منبته ، وعصره ، وشخصه ـ عقده .

**مراجـع :**


١ ـ الديوان بشرح البرقوقي .

٢ ـ ابو نؤاس بين التخطي والالتزام لعلي شلق

٣ ـ ابن الرومي في الصورة والوجود لعلي شلق

٤ ـ في جوّ أبي نؤاس لعلي شلق

٥ ـ جميل بثينه لعلي شلق

٦ ـ مادة عـذريّ في دائـرة المعارف الاسلامية .

٧ ـ Patologie de la vie amoureuse 2 Nacht

٨ ـ Sept Visages de l,amour. standhal

٩ ـ طوق الحمامة : لابن حزم الاندلسيّ .

١٠ـ كتاب الزهرة : للظاهري ( ابن داوود ) .

١١ـ مجلة المقتطف جـ ٨٧ ص ٤١٩ ، غزل المتنبي لخليل شيبوب .

١٢ـ مجلة المقتطف جـ ٢٣ ص ٢٠٧ ، المتنبي والبهاء زهيـر لانيسة شرتوبيّ .

## غـزل المتنبي :

كلمة غزل تفيد في اللغة الاستدارة والحركة النّاشطة ، منـه الغزالـة التي هي الشمس لاستدارتها ، وتدافـع جريها فـي الفلك ، أمّا الغزالة ، حيـوان البرّيّة المعروف ، فقد سميـت كذلك لرشاقة حركاتها المتواثبة ، وحلاوة التفاتها الذي هو نوع من الاستدارة ، وكذلك المغـزل .

أما لفظة الغزل في الاصطلاح الادبيّ فهـي حـب التحـدّث الـى النساء ، او الحديث المشوق عن الذات التي تعشـق النساء ، لما في ذلـك من الحيويّة ، والدوران حول هـذا الموضوع ، الى ان اصبح الغـزل علمـاً على الشعر العاطفيّ ، والوجدانيّ .

الغـزل اذن موضوعه المرأة ، وحبهـا ، وموضوع هـذا الحـب الجمال ، والجمال وجهٌ متفرع من النوع الجماليّ الأعلى .

* * *

ألمتنبي انسان شاعر ، لذلك فحبّه للمرأة يستلزم تميّزاً مرموقاً علـى كل حال ، لكننا سنجد حبه الذي رسمه في شعره غريباً بعض الغرابة ، ولن نصل الى استكناه جوهره الا بالتدرّج من الحب ، الى الجمال ، فالغزل .

* * *

والحبّ رغبة في الامتلاك ، تنبع من الطّاقة الحيويّة فى الكينونة .

الجمال انسجام مختلف العناصر في شبه وحدة رياضيّة .

كما يكون الحبّ غايته الجنس ، يتصعّد فتصبح المرأة شيئاً لا يلتفت الى الجسد ومغرياته ، فيعوض عنها بالخمرة ، أو الطبيعة ، أو المجد ، أو الله، وكل ما هو وطن للهوس ، واللّهو ، فيسكب الفنان تعبيره عن ذلك بشتى وسائله ، وأساليبه .

حبّ النؤاسي ، وابن الرومي ، والمتنبي ، انحرف ، وعوّض ، وتصعّد .

وحبّ جميل ، وقيس ، تخلّى عن الفرد الى النوع ، أما حب ابن الفارض فقد تسامى ، الى مطلق الحبّ ، الله .

الدراسات حول موضوع الحب ، والجمال في مجرى الفكر البشريّ ، بدأ جانبية في مائدة افلاطون BANQUET وفي كتابي « طوق الحمامة » لابن حزم ، و « الزّهرة » لابن داوود ، شبه تامّة ، ولكنها مستقلة ذات وحدة رائعة ، أما عند النفسانيين « فسيچموند فرويد » مستطيل في هذا المضمار ، وقبالته « مكدوجل » وبعدهما تطور هذا العلم وترحّبت آفاقه(1)

الحبّ اذاً موضوع يبدأ ذاتياً ، من المحب ، ويصبح غيرياً في المحبوب ، والمتنبي ممعن في الذاتيّة ، والحسيّات ، يكاد يرسم بشخصه ، ومختلف أطوار عمره ، هذه « الأنا » المغرقة في الايحاء ، والسّيطرة ، والمعبّرة عن شتى الخطوط ، والملامح ، والنوازع لما نسميه اليوم « الوجوديّة » حيث « تمذهبت » وتركزت ، منطلقة من نقطتين رئيسيتين: الالتزام وهو الغير في الذات ، وأخذ الوجود كما هو ،
L'existence comme elle est" (2)

* * *

فما هي مواقف المتنبي ازاء الحبّ ، والجمال ، أعني المرأة ؟ وما هو متسام أبعد من المرأة .

---

١ ـ تحسن مراجعة كتابنا « ابو نؤاس بين التخطي والالتزام » لدراسة المقدمة عن موضوع الحب وانواعه الذي اعتمدنا فيها على كتاب الدكتور ناخت « أمراض الحياة الجنسية » وكتاب ستندال « سبعة اوجه للحب »

٢ ـ لا لانه مادة : existenee

تهوى النفوس سريرة لا تعلمُ

عرضاً نظرتُ وخلتُ أنّي أسلمُ[٣]

طبعاً أنت لا تعلم يا أبا الطيب منطلق الهوى ، لكنّ العلم الحديث يدرك أن كل حبٍّ طبعيّ ، أو منحرف ، او متسامٍ فانما يصدر عن الطاقة الحيويّة فينا ، وهو ما نسميه الغريزة ، وهذه تطلب تطميناً لها بكل وسيلة ، لكن الاخلاق ، والانظمة ، والاديان ، تحول بين الغريزة وبين حريّتها الإداريّة ، وترسم لها طريق الحلال والحرام :

يا أخت معتنق الفوارس في الوغى

لأخوك ثمّ أرقُ منك وأرحمُ

يرنو اليك مع العفاف وعنده

أن المجوس تصيب فيما تحكمُ

فالمجوس يبيحون ــ جرياً مع الطبيعة ــ تزوّج البنات والاخوات من الآباء والإخوة ، ومن هنا جاءت قولة « عبد الصمد بن المعذّل » :

أحبّ بنيّتي حبّاً أراهُ

يزيد على محبّات البنات[٤]

وشيئاً لست أذكره مليحاً

به يحظى الفتى عند الفتاة

أرى حكم المجوس إذاً لدينا

يكون أحلّ من ماء الفرات

---

٣ ــ الديوان جـ٢ ص ٣٨٠

٤ ــ شرح الديوان جـ٢ ص ٣٨١

وقول ابي تمــام :

يأبـــي مـــن اذا رآهـــا أبـوهـــا

شغفـاً قـال : ليـت أنّـا مجــوسُ

* * *

مطلع قصيدة المتنبي في هجـاء « ابن كيغلغ » كان البيت السابـق ، بـدأها بالغزل ، وكأنـه بالسؤال يشيـر الى هوى « اسحق بن كيغلغ » الشاذّ ، ويمشي على خطى « ابن الرومي » القائـل :

الـم تــر أنني قبـل الاهاجـي

أقـــدم فـــي اوائلهـــا النسيبا

لتخرق فـي المسامـع ثـم يأتـي

هجائـي كاويـاً يشــوي القلـوبـا ؟

لكن البيت على كل حال ـ شأن مطالع المتنبي الغزليّة ، التّقليدية ـ يلقي شعاعةً على منزعه ، وفكرتـه عن الحبّ ، فالعاشق عندما تذرّ بين جفنيه لمعـة من جمال ، فتدخـل قلبه ، ثم تحتلّ وجدانه ، لا يرضخ عندئذ للتحليـل النفسيّ ، والمقاييس العقليّة ، ولا يسأل هذا المسكين الـذي شغلته شواغـل الجمال والحـب بكيفه ، ولماذا ، ومتى ؟ فللنفوس حقـاً سريرة وخزين ولا وعي ، قـد لا يصـل اليهـا سـؤال العقـل ، وهي خاضعة للأمزجة ، والثقافة ، ووسائل إيصال تلـك الشرارة ، ومقدارها . وذا يدلنا على أن شاعرنا لم يكـن في الحـب والجمال علـى سـطوح الحقيقة أبداً ، بيـد أنّ حـبّ المرأة ، وجمالها ما كان أبـداً غاية حبّه وإيثاره ، بـل هو إلى لمحات ، كأنها حسو الطائـر ، ثـم يمضـي الـى غاياته ، فمـا هـي ؟

وللخـود منّـي سـاعـةٌ ثـمّ بيننـا

فـلاة الـى غيـر اللقـاء تجـابُ(٥)

هذا ظلم للجمال ، للأنثى ، أن يكون نصيبها من فحولة أبي الطيّب.. ساعة ، وربما كانت الساعة هنا رمزاً للزّمن القليل ، وليست ذات الستين دقيقة ، فهو إذا عطش يشرب بلمحة ، واذا جاع يأكل بفترة ، واذا اشتاق ، فبغطّةٍ ثم يطير .. هكذا « الاكسپرس » ولا مقاضاة لشاعر هو وحده قاضي قضاة نفسه ، وقدره ، فبماذا إذاً ينشغل اكثر من ساعة .. ؟ وما هي أنثاه الكبرى ، المعقدة ؟

وغيـر فـؤادي للغـوانـي رميّـةٌ

وغيـر بنانـي للزّجـاج ركـابُ(٦)

تركنـا لأطـراف القنا كـل شهـوةٍ

فليـس لنـا إلاّ بهـنّ لعـابُ

وما العشـق الا غـرّةٌ وطماعـة

يعـرّض قلـب نفسـه فيصـابُ

العشق ، جهل ، ورغبة عمياء لدى الشاعر ، جهل بمصير كل عشق وكل جمال :

لـو فكّـر الانسـان في منتهـى

حسـن الـذي يسبيه لـم يسبـه(٧)

— فهل تظلم الحياة أيها الشاعر الى هذا المقدار ، فتسلخ عنها أجمل جمالاتها على الاطلاق ، الحب للجمال ؟

---

٥ ــ الديوان جـ١ ص ١٣٤
٦ ــ الديوان جـ١ ص ١٣٥
٧ ــ الديوان جـ١ ص ١٤٧

ـــ فيجيب :

أشــــدّ الغـــمّ عنــدي فــي ســرور

تــرقّـــب عنـــه صاحبـــه زوالا[٨]

ـــ هذا شأن ابن الروميّ ، الذي نفـرت منـه زوجته ، ثـم صديقته ( خِلْمهُ ) لقصوره الجنسيّ ، أما أنت يا من تمرّس بالفروسيّة ، « ولم تهضّمه أنثى ، وتغتصب منه ضيعته جهارا » ومن يرسم صوراً للحرب وشراستها اكثر مما هي الحرب في واقعها ، كيف تأثم بحـقّ هذه الحيـاة إثمـك هــذا ؟

ـــ فيصيح : ويلكم أيّهــا الجاهلون ، العابثون

ومـــن خبـــر الغـــواني فالغوانـــي

ضيـــاء فـــي بـــواطنـــه ظـــلام[٩]

إنّ شهوتي الجنسيّة التي هــي منطلق غرامي ، انصرفت الى غوانٍ أخريـات ، هنّ وحدهنّ تطمئنّ بهنّ اشواقي ، وتهنأ رغباتي ، وتصل الى أسمى آفـاق الغبطـة ، ألا وهي أطراف الرماح ، حيث اللهـو الامثل . فقولوا لكل غانية تتصدّى لي أن ترمي بسهام عينيها قلبـاً غير قلبـي ، ولشرّاب الكؤوس ، وكـلّ قدحٍ شفيفٍ « يسبي القلـوب ، ويطبي النفوس »[١٠] : سوى أناملي مركب للزجاج البراق المغري ، والخمـرة المانحـة النشوة ، فهل من نشوة أروع من سفـك الدم ، وشمّ الغبار ، وسماع الصّياح ، وضج الخيـل ؟

ـــ عندئذ يبتسم المحاور ، ويقفـل راجعاً إلى خبراء « علـم النفس » ليقرّر في دراسة طويلة عريضة أنّ المتنبي مصعّد أتئــاه SUGLIME'

٨ ـــ الديوان جـ٢ ص ١٥٩

٩ ـــ الديوان جـ٢ ص ٣٤١

١٠ـــ الكلام لابن الرومي في وصف قدح .

إلـى الحرب ، ومعوّض Compensation عنها بالمجد ، وليس « هو أوّل سارٍ غـرّه قمـر » فهذا النؤاسيّ كانت خمرته أتاه ( شاطـرة ، مكرّهة ، خطبنا الى الدهقان بعض بناته ، فزوجنا منهن فى خدرها الكبرى • بنت عشر ، عجـوز ، الـخ ٠٠٠٠٠[١١] ) وهذا ابـن الروميّ يجـد في الطبيعة عوضاً بديلا عن المرأة ، فالشجرة لها قامـة ، ونهـد ، وجديلات ، وبستان المغنيّة ساعة ماتت لا يرثي جمالها بمقدار ما يرثي زهرها وثمرها :

بســتان يـا حسـرة علـى زهَـرٍ

فيـك مـن اللهـو بـل علـى ثمـر

والتاريخ يذكر لنا كيفه أن قيساً صدف عن « ليلى » وهي الى جانبه الى « ليلى » أخرى في ذهنه ، وكيف أنّ « بجماليون » نحـت لحبيبتـه تمثـالاً فلما فرغ صلّى له ، فنادته العارية الحبيبة أمامه ، فكاد يحطّمها سطرقته ، « وجميل » رمى كـلّ النساء المتصدّيات له جانبـاً وتثبّت في حـب « بثينة » كذلك الصوفيّون الذين طرحوا حـب البشريّ الى حبّ الالهـيّ ، ومن هؤلاء ، واولئك ، من يميلون الى الغلام ، أو الفرس ، أو البقرة ، أو يعبثون باناملهم لإحداث اللذّة ، أو ، أو الى ما هنالك من مظاهر ، وأسباب للانحراف ، أو الشذوذ ، أو التثبّت ، وأخيرا التّصعيد •

ذلك لم يمنـع المتنبي أن يعشـق ولو إلى أمـد ، ويختار الجآذر في زيّ الاعاريب[١٢] وأن يزورهن خلسة كما فعل عمر بن ابي ربيعة :

كـم زورة لـك في الاعـراب خافيـةٍ

أدهى وقد رَقَدوا من زورة الذيـب[١٣]

---

١١ـ من تعبير ابي نؤاس بصدد المراة المعوض عنها بالخمرة المتزوجه .

١٢ـ الديوان جـ١ ص ١١٤

١٣ـ الديوان جـ١ ص ١١٥

وأن يفدّي تلك الظباء الاعرابيات ، ويشير الى تدلّهه بهنّ :

أفـدي ظبـاء فـلاة مـا عرفـن بهـا
مضـغ الكـلام ولا صبـغ الحواجيب(١٤)

ولا بـرزن مـن الحمّـام مائلـةً
أوراكهـنّ ثقيـلات العـراقيـب

ومن هـوى كـل من ليسـت مموّهـةً
تركـت لـون مشـيبي غيـر مخضـوب

بذا يرسم لنـا المتنبي ليرضـي اعتدالنا فـي الحـب NORMAL شكل المرأة التي يحبها ، والتي يقلاها ، ولا يفديها ، ويساير ميولنـا ، ويُخَفِّف من عتبنا عليه ، أو عتبهنّ ، وربمـا ثورتهنّ ، ويعلـن بتقرير نهائـيّ :

حسـن الحضـارة مجلـوب بتطريـة
وفـي البداوة حسـن غيـر مجلوب(١٥)

و

مـا أوجـه الحضـر المستحسنات بـه
كـأوجـه البـدويّـات الرعابيـب

* * *

فالمتنبي اذاً يعشق مثل سائـر الناس ، ولنا الآن أن نحـدّد موقفه من الحـبّ كالتالـي :

١ً ـ عشقه ساعةً ثم يمضي الى فلواته .

---

١٤ـ الديوان جـ١ ص ١١٦ ـ ١١٧
١٥ـ الديوان جـ١ ص ١١٦

٢ ـ أنثاه الكبرى تصعّدت الى مجد الرماح والسيوف ، الى الحياة بكل ما فيها من علوّ .

٣ ـ الانثى التي يعطف عليها ويمنحها من وقته ساعةً هي بدويّة .

٤ ـ انه لجِدّه ، وصرامته ، وصدقه ، لا يحبّ التمويه ، والطلاء ، حتى في الانثى ، فهو قد اختارها بنت الطبيعة ، نضرة ، فارهة ، سمينة ( رعبوبة ، رعابيب ) خزّنت الشمس وفي وجهها غلال حرارتها ، وشعاعها ، وهذه الاشارات الصريحة جاءت في رائعته البائيّة التي مدح بها كافوراً ، فغزل المتنبي إما ان يكون في مطالع قصائده المادحة ، او الهاجية ، او الفاخرة ، أو يجري في ثناياها .

وفي كافوريّةٍ تاليةٍ يتسكّع ، ويتوسّل ، ويحنّ ، ويبكي ويقول :

يضاحك في ذا العيد كلٌّ حبيبه
حذائي ، وأبكي من أحبّ وأندب(١٦)

ليصل الى الضحك على كافور ، والمكر به ، مقرراً أن كافوراً « الاسود المخصيّ الذي نصفه شفة » هو الحبيب ، وهو أحلى واعذب عنده من الاهل والاحبّة ، ثم يضجّ في التصريح بعد التلميح لينشده في ثالثة رائعة :

ومـا انـا بالباغي على الحبّ رشوةً
ضعيفٌ هوىً يُبغى عليه ثواب(١٧)

---

١٦ ـ الديوان جـ١ ص ١٢٧

١٧ ـ الديوان جـ١ ص ١٣٩

وقوله :

ولكنّك الدنيا الـيّ حبيبة
فما عنك لي إلاّ اليك ذهابُ

* * *

بعد هذه الخطوط المعبّرة عن شخصه ازاء الجمال ، والحب ، والشهوة نسأل الشاعر عن رأيه في عشق الآخرين ، فلا يبخل علينا بجواب ، لأن الموضوع هامّ ، وخطير ، ولأنّه لا يَوَدّ أن تنعته بالتعالي والكبرياء ، فقد يتواضع المتنبي ، ويهبط من ذرى شماريخه ، الى سفوح الناس ، ساعة تميل نفسه الى الأنس بعد الغربة والوحشة ، فيقول :

وأغيد يهوى نفسه كلّ عاقل
عفيفٍ ، ويهوى جسمه كل فاسق[18]
وما الحسن في وجه الفتى شرفاً له
اذا لم يكن في فعله والخلائق

* * *

روى « ابن فورّجه »[19] وهو من شراح المتنبي أنّه بلا من المتنبي ثلاث خصال حميدة : ما كذب ، وما زنا ، وما لاط . وثلاث خصال ذميمة ، ما صلى ، ولا صام و .. »

فكما أن الشاعر كان يكره التمويه ، ويحب البدويات ، وينصرف عن المترهّلات من حسان الحضر ، وهن يخرجن من الحمّام متمايلات ، ثقيلات

---

١٨ـ الديوان جـ١ ص ٢٦٨

١٩ـ دائرة المعارف للبستاني مادة ( المتنبي ) ومقدمة الديوان للبرقوقي .

العراقيب ، مترجرجات الاوراك ، كذلك يعشق الوجوه الحسنة على ان تكون اخلاق اصحابها سامية ، والا ّ فقد تعطل حسن الوجوه ، بقبح الاخلاق ، وهذا فرع من مذهب افلاطوني في الجميل والجمال ، ومثله للغزالي ّ .

واذا كان لا يعير الخود الا ساعة حب ّ لا غير ، الا انه يعترف بقسوة العشق على العاشقين ويرحمهم ، ويرثي لهم :

جهد الصبابة أن تكون كما ارى
عين مسهّدة وقلب يخفق[20]

* * *

وعذلت اهل العشق حتى ذقته
فعجبت كيف يموت من لا يعشق ُ

وعذرتهم وعرفت ذنبي أنني
عيّرتهم فلقيت منه ما لقوا

* * *

غير أن ّ هذا القول هو من شعر الصبّا ، من مطلع مدحة له في « أبي المنتصر شجاع الأزدي ّ » ، وقد تبد ّل ثياباً غير هذه الثياب بعد أن اكتهل ، واشتوى بنار الطمّاح ، والإغراق في حب ّ الحياة والمجد . كذلك فهو يرى أن حب ّ العقلاء هو الحب ّ الاسمى ، الذي يجتاز حب ّ الغريزة الى حب ّ الروح ، فيهوى الأريب أخو ّة الناس ، ويسمو الى التصافي ، والاقلاع عن الشحناء :

يحب العاقلون على التّصافي
وحب ّ الجاهلين على الوسام[21]

---

٢٠ـ الديوان جـ١ ص ٤٧٧

٢١ـ الديوان جـ٢ ص ٣٩٩

فالشاعر هنا قد نضج ، واكتهل ، وشاب ، فهو يهتم للفضيلة ، وشؤون الخير ، اكثر مما يهتم لنوازع الجسد ، فتطمئن نفسه لسيادة المحبة بين الناس بعقله وحكمته ، اكثر مما يطمئن للعرض الزائل ، الا وهو حسن الملامح « والوسامة » في وجوه لا يعشقها الا الجاهلون ، المسطّحون.

واذا كان يقول في صباه أيضا :

لولا مفارقة الاحباب ما وَجَدت

لها المنايا الى أرواحنا سبلا[٢٢]

فهو يقول بعد ذلك :

ومن خبر الغواني فالغواني

ضياء في بواطنه ظلام[٢٣]

من غزله النسيب بيتان مستقلاّن ، من شعر الصّبا ، وفيهما يبدو التكلّف ، كما تلوح سمات المتصوّفة :

كتمتُ حبّك حتّى منك تكرمةً

ثم استوى فيك إسراري وإعلاني[٢٤]

كأنه زاد حتى فاض من جسدي

فصار سقمي به في جسم كتماني

وربّما عشقت الغواني « أحمد بن الحسين الجعفيّ » الذي لا وقت لديه يقضيه معهن ، الا ساعة ، ثم تحتويه الفلاة ، واخذن يترشفن ريقه الحلو ، الأحلى من التوحيد ، وذِكْرِ اسمِ الله ، وهنّ ذوات عيون ترمي بأسهم ليست كما نعرف في الاسهم :

---

٢٢ـ الديوان جـ٢ ص ١٢١
٢٣ـ الديوان جـ٢ ص ٣٤١
٢٤ـ الديوان جـ٢ ص ٤٣٦

راميات بأسهم ريشها الهدبُ

تشقّ القلوب قبل الجلود[٢٥]

يترشّفن من فمي قبلات

هنّ فيه أحلى من التّوحيد

ومن غزله التقليديّ في مطلع مدحه للكاتب « ابن ابي الاصبع » قوله :

قد كان يمنعني الحياء من البكا

فاليوم يمنعه البكا أن يمنعا[٢٦]

حتى كأنّ لكل عَظْمٍ رنّةً

في جلده ، ولكل عرقٍ مدمعا

تلاعب بالصور ، والافكار ، واغراق في تمثيل الحزن حتى لكأن العظم جفّ واخذ يرن كعظم القبر ، وما عداه من الاعضاء استحال الى عين تدمع .

كشفت ثلاث ذوائبٍ من شَعرها

في ليلة فأرت ليالي أربعا

واستقبلت قمر السماء بوجهها

فأرتني القمرين في وقت معا

هذان البيتان شرّق بهما البديعيّون وغرّبوا ، لما فيهما من صنعة تذكر باسلوب المقامات ، وتتكىء على علم الحساب .

---

٢٥ـ الديوان جـ١ ص ٢٠٤

٢٦ـ الديوان جـ١ ص ٤٢٤

ومن حسانه الجميلات ، وأجمل ما فيها خصرها الدقيق الرقيق ، بهذه الصورة البارعة لجارية أهداها سيف الدولة للمتنبي في حلب :

وخصرٍ تثبت الأبصارُ فيه
كأنّ عليه من حَدَقٍ نطاقا[٢٧]

والمتنبي قلّما يعشق ، أو أنه يصرّح بأن لا محل للعشق في قلبه ، لكنّ عينيها ، تحملانه على مخالفة عادته فهو يحبّ ، واحيانا يخلو بحبيبه ، فيحافظ على عفته ، لكنه يرضي الحب بالوصل ساعة تنشب معركة ، فهنالك حبّه الجوهريّ :

وما كنت ممن يدخل العشق قلبه
ولكنّ من يبصر جفونك يعشق[٢٨]

وما كل من يهوى يعفّ اذا خلا
عفافي ، ويُرْضي الحبّ والخيل تلتقي

أما كيف يكون التوديع والبكاء يحول بين العيون وبين الرؤية ، وما في التوديع من عناقٍ لذيذ يمنعه خوف التفرّق ، فانّ ذلك الموقف لا يلهم المتنبي أن يشبّه الم الفراق الا بالالم الذي يحدثه قنا سيف الدولة في فيالق الاعداء :

عشيّة يَعْدونا عن النظر البكا
وعن لذة التوديع خوف التفرّق

نودعهم والبين فينا كأنه
قنا ابن ابي الهيجاء في قلب فيلق

والقتل هو هاجس ابي الطيب حتى ساعة يرى فيها عيني الحبيبة الحائرتين عند الوداع :

---

٢٧ـ الديوان جـ١ ص ٤٥٢
٢٨ـ الديوان جـ١ ص ٤٥٨

ولـــم أر كالالحــــاظ يـــوم رحيلهـــم

بعثــن بكــل القتــل مــن كــل مشفق

أدرن عيونــــاً حائــرات كــأنهـــــا

مركبــةٌ أحــداقهــا فـــوق زئبـــق

ومن مطلــع قصيدة يمدح بهــا شجاعاً المنبجيّ :

فمــن شــــاء فلينظــر إلــيّ فمنظــري

نذيــرٌ الى من ظن ان الهــوى سهل(٢٩)

ومــا هــي الا لحظـــة بعــد لحظــةٍ

اذا نــزلــت فــي قلبه رحــل العقــلُ

جــرى حبهــا مجرى دمــي في مفاصلي

فأصبــح لــي عن كــلّ شغــل بها شغلُ

ومن جسدي لــم يترك السّقــم شعــرةً

فمــا فوقهــا إلاّ وفيهــا لــه فعــلُ

اذ عـــذلــوا فيهـــا أجبـــتُ بأنّـــةٍ

حُبَيِّبَتــا ، قلبــا ، فــؤادا ، هياجُملُ

* * *

أصابت نجل العيون ، أي واسعتها ، قلب الشاعر ، فقــلّ من لــم يمت من قبل بهــذا الداء ، والذي يريد برهانا « عيّنةً » على فتك العيون بالقلوب فجسد المتنبي النحيــل خير دليــل على ان الهوى صعب ، ساعة يرمي القلب بالنظرة تلو النظرة ، فاذا بالعقــل يرحــل من مكان الى مكان،

٢٩ـ الديوان جـ٢ ص ١٣٢

لان الحب ليس فيه مكان للرويّة ، والرشد ، وتلك النجلاء الحبيبة جرى حبها مجرى دم الشاعر في دخيلته ، وشغلته عن كل شغل ، حتى أن عينيها فعلتا في كل شعرة من شعر جسده ، لذلك لا يجيب على عذل اللوّام إلاّ بالأنين ، وترجيع الصوت من الالم قائلاً :

« حبيّبتا ، قلبا ، فؤادا ، فهو يصغّر لفظ حبيبته للامعان في التدليل وبندب قلبه وفؤاده ، من اجل الحبيبة البعيدة ، السيدة « جُمل » ويناديها بها إبعاداً للقريب .

* * *

المتنبي خبير بنفوس العاشقين ، يحبّ الجمال كأيّ بشريّ معتدل المزاج ، بل هو عندي بعد غزله هذا مولع بالنساء ولوعاً ساعراً :

شاميّة طالما خلوتُ بها

تُبْصِرُ في ناظريّ عيناها[30]

ولكنه كان مدفوعاً بطموحه الى المجد ، فصعّد حبّه ، وأصبح التوق الساعر في دمه الى الجنس ، متسامياً إلى ما رآه أهمّ ، فتحول شوقه الى طموحه ، وهام لتحقيق مآربه ، كما يهيم الصوفيّ بمثله الاعلى ، فالشاعر الذي يقول :

ألحبّ ما منع الكلام الالسنا

وألذّ شكوى عاشقٍ ما اعلنا[31]

ليس محبّاً منصرفاً عن شؤون الجنس وحسبنا أن نستعرض شؤون غزله بتتبّع شبه احصائيّ شامل في قصائده كلّها .

---

٣٠ـ الديوان جـ٢ ص ٤٩٩

٣١ـ الديوان جـ٢ ص ٤٣٨

## الغزل التقليدي :

تقصد بغزل المتنبي التقليدي ذلك الذي افتتح به قصائده ، وليس له غزل سواه ، فالعرب في جاهليتهم سنّوا سنة استهلال شعرهم بالغزل ، فجاءت المعلقات جميعها مفتتحة بالحديث عن المرأة ، ومثل المعلّقات سائر القصائد الجاهلية من مجمهرات ، وملاحم ، ومراثٍ ، ومذهبات ، وسواها .

على طريقة الجاهليين هذه ، جَرى شعراء العربية في عصورهم التالية ، كأنما هم مدينون بأستاذية منهجية للشعراء الجاهليين ، ولم يطور ، ويتخط هذا التقليد إلا الشعراء المعاصرون وقليل من العباسيين، نظراً لتأثرهم بروح الحضارة الحديثة ، ولحاجة التّبْديل ، والتجديد التي تنشأ في نفس كل آدمي يأخذ بخيوط العقل المتفاعل لينسج وجُوْدَه .

على أنّ هذه الافتتاحيات التي تعد غزلاً أحيانا ، أو نسيباً لنسبة العشق إلى القلب ، أو تشبيباً من شبوب النار أي ارتفاعها ، ومنه الشّبّابة ، والشّبّاب ، لم تخل في معظم مواقفه المتنبي من التعبير الصادق عن حالته النفسية ، ومناخات وجدانه الموّار بالانفعالات المختلفة ، بل أزعم أن غزله الإفتتاحي يضمن في ثناياه أعمق ، وأبعد خواطر المتنبي ، وأخفى اسراره .

صحيح أن المتنبي لم يقل قصيدة غزلٍ مستقلة ، وانما جاء غزله في المطالع ، غير أن الباحث المروّي لا يستطيع أن يصنّف شعره الغزلي في مرتبةٍ واحدة ، فالقسم الذي جرى فيه على أنه يشبه الدندنة في مستهل العزف ، والتمتمة قبل الغناء ، انما هو من قبيل تقليد اراد به المتنبي كما اراد سواه أن يفتح ابواب التذكار والحنين ليخلص الى أغراضه من مدح ، وهجاء ، وسواهما ، والقسم الثاني جاء من قبيل اللّمعات الوجدانيّة الخاطفة ، موضوعه المرأة

أو ما وضع موضعها للتعبير عن أعمق المواجيد ، شأنه في خطاب سيف الدولة حبيبه ، بلغة الانثى وهو بعيد عنه في شيراز ، ومطلع اللاّميّة التي هي من اروع شعره على الاطلاق :

« ما لنا كلنا جو يا رسولُ »[٣٢]

مع العلم أن العادة جرت على توجيه الخطاب الى الانثى بلغة المذكّر فجاء المتنبي وعكس الآية ، وكل ذلك لا يقدم أو يؤخر في مجرى الشعر الصافي وقيمته . وهنالك نوع ثالث جاء فرعاً من الغزل الا وهو الشرارات الوجدانية ، المتفرعة من الطاقة الحيوية ، وشراهة حبّ الانثى ، كبديل عنها ، ولكن في مثل الحديث اليها مشبوباً ، ملتاعاً ، أقصد به شعر الشكوى والألم ، والقلق ، والشوق الى مجهول .

هنا ، أجد من الملح أن نقوم برحلة في مطالع قصائده الشهيرة ، نستطيع تصوّر ملامح غزله في احواله المتباينة ، وتنفذ الى مضاميره ، سالكين أحياناً طريقة النظام الابجدي لقوافيه ، توصلاً الى رسمها :

في مدحته الهمزيّة التي قالها في «أبي عليّ الاوراجيّ» غزل شابٍ مهووس بالتّعمية[٣٢] ، والمحسنات البديعية ، والمبالغات :

وشكيّتي فقد السّقام لأنه
قد كان ، لمّا كان لي أعضاء[٣٣]

وفي همزيّة أخرى قالها استجابة لطلب سيف الدولة ، وكان آنذاك قد بلغ مرحلة النضج الشعري ، وخبر أمور الفن ، كما نفذ الى اغوار المجتمع والسلوكيّات البشريّة ، نراه يعرض إلى رسم مقاييس للعشق كمن قاسى ، وخلص الى أحكام تجريبية فيه :

---

٣٢ــ الديوان جـ٢ ص ١١٢

٣٣ــ الديوان جـ١ ص ١٠

القلب أعلم يا عذول بدائه

وأحق منك بجفنه وبمائه (٣٤)

أأحبه واحب فيه ملامة

إن الملامة فيه من أعدائه

لاتعذل المشتاق في أشواقه

حتى يكون حشاك في احشائه

إن القتيل مضرجاً بدموعه

مثل القتيل مضرجاً بدمائه

والعشق كالمعشوق يعذب قربه

للمبتلى وينال من حوبائه

* * *

لا شك أن هذه المعاني مطروقة ، خاصة البيت الرابع المنسول من بيت جميل بثينه :

لكل حديث بينهن بشاشة

وكل قتيل بينهن شهيد

وجميل بدوره كان قد نسله من الحديث النبوي القائل:

« من عشق فعف ، فمات ، مات شهيدا »

* * *

وفي بائية مدح بها سيفه الدولة ، ترنم فى مطلعها بذكر الرسم والربع ، وعرج على المدح ثم تواثب عائداً إلى الغزل .

---

٣٤ـ الديوان جـ١ ص ٣

فدّى ذلك الربع الذي كان شرقا للشمس وغربا ، وتساءل كيف يعرف رسوم الاحبة الممحوّة ، وذلك الحبيب لم يترك له قلبا أو عقلا يدرك بهما ، ثم هبط عن رحله تكرمةً لموضع الحبيب الذي هو سيف الدولة ، والتمعت في باله الحكمة فاطلقها في ذم الدنيا ، ثم وصف عيني فاتنته القاتلتين وأنهما تعيدان الشيخ شاباً ، لما لهما من جمال ، وبشرة ناعمة مشرقة كالدّر الذي في عقدها ، فهل رأيت بدراً يتقلّد شهباً ؟ كل ذلك على طريقة الزّخرفيين الذين شاعت أساليب البديع في شعرهم آنذاك[٣٥] .

من طراز هذه البائية ، أخت لها قالها في المغيث العجليّ قبل أن يتعرف الى سيف الدولة ، وهي لا تختلف في رتابة صورها الغزليّة عن البائيّة السيف دوليّة[٣٦] .

وثالثة مدح بها أبا القاسم العلويّ ، أعلن فيها أنه سهر ليله ، واسترسل فى صباحه عند الكواعب ، فالشاعر فيها يحبّ بالجمع والجملة ، أمّا رقاده فهو نعاسٌ كفتور عيون الاحبّة ، ثم يتمنى أن يكون ذلك الهجر الذي لحق به من أحبّته هجراً يلحقه من المصائب التي تلازمه .

وفي رابعة بائيّة أيضاً ، ولعلّها أشهر بائيّاته ، بل قصائده التي حدد فيها نوع الجمال الذي يغريه ، أو يغويه في النساء ، قالها وهو في مصر ، لمدح كافور .

بدأها بالسؤال عن نساءٍ تزيّين بزيّ البدويّات ، ولبسن ثياباً حمراً ، حتى حليّهنّ ، ومطاياهن كلّها حمراء ، فالبدويّ لم يتخلّ عن جفني المتنبي ، وقلبه ، فهو يلازمه ، ويلتصق به ، بل يقوم في كيانه جميعه :

---

٣٥ــ الديوان جـ١ ص ٤١

٣٦ــ الديوان جـ١ ص ٨٠

مـن الجـآذر فـي زي الاعاريـب

حمـر الحلى ، والمطايـا والجلابيـب[٣٧]

كـم زورة لـك فـي الاعـراب خافيـة

أدهـى وقـد رقـدوا مـن زورة الذيـب

فالمتنبي هنا يُقلّد « عمر المخزومي » في مغامرات اللّيـل ، لكنـه يختلف عنـه في حبّ الوحشـة ، والبدويّات الممعنات في البداوة ، كانهن مثل الريـح القلقه ارتحالاً ، وتجوالاً :

قد وافقوا الوحش في سكنـى مراتعهـا

وخالفـوهـا بتقـويـض وتطنيـب

واذا سأله سائـل : هل تستحـق بدويّاتك كـل هـذا العنـاء ، والاقتحام ، والتستّر ؟ فيجيب :

ما أوجـه الحضـر المستحسنات بـه

كـأوجـه البـدويّـات الرعابيـب

حسـن الحضـارة مجلـوب بتطريـة

وفـي البـداوة حسن غيـر مجلـوب

جمال البدويات بيّن في ملامح الوجه ، حيـث لا يظهر سـواه مـن جسد البدويّة ، سوى القـدّ ، والمشية ، واللفتة ، والحديث ، والرّنوات ، وفي هـذا الوجـه كـلّ شـؤون القلـب والنفس تتلامـح ، وتتلامـع وإشاراتها مفصحة ، شاغلة ، ساحرة ، فاتكـة .

ثم ان البدوّيـة صريحة ، واضحة ، كشمس فضائهـا ، ورمـال صحرائهـا ، وهواء آفاقها ، آن تتصنّع الحضرية ، وتتهـدّل ، وتشمئز منهـا الذائقـة الجماليـة الاصيلة .

---

٣٧ـ الديوان جـ١ ص ١١٤

وفي حائيته التي مدح بها « مساور بن محمد الرومي » يتساءل عن ذلك الرشاء الاغنّ ، الذي برّح به عشقه : هل غذاؤه الشيح ؟ ذلك الشجر الذي ترعاه الظباء . والذي مشيته كمشية المترنح من أثر الشمول من انتصاب قده كأنه صَنَمٌ لولا ما فيه من الروح ، وأنه عندما نظر إليه ، تلوّن وجهه بالحمرة مع أن فؤاد الشاعر هو الذي جرح ، ثم رماه بسهام عينيه ، ومن عادة السهام أنها تجرح او تقتل ، لكنّها هنا تريحه وتلذّه .

وبعد أن يشير الى موقف الوداع الذي جلا محاسن حبيبته كما أبرز المأتم « جنان » ابي نؤاس الثّقفيّة ، يرسم صورة بديعة ، فيها طرافة :

يجد الحَمام ولو كوجدي لا نبرى

شجر الأراك مع الحمام ينوح[٣٨]

* * *

قدّمنا في حديثنا عن مدح المتنبي ، إشارة الى وضع سيف الدولة موضع المعشوق . مشيرين الى بيتين بقافية الحاء فحواهما أنه والليل فى صراع على حب سيف الدولة وان انصرافه للنوم يعلن انتصار الليل عليه ، ومع ذلك فالمتنبي لا ينام من أثر حبه الموصول للمدوح[٣٩] .

* * *

وفي احدى دالياته المدحية لسيف الدولة ، يرسم الشاعر ملامح عفته ، حتى ازاء الطّيف :

يردّ يداً عن ثوبها وهو قادر

ويعصي الهوى في طيفها وهو راقد[٤٠]

---

٣٨ـ الديوان جـ١ ص ١٦٦

٣٩ـ الديوان جـ١ ص ١٧١

٤٠ـ الديوان جـ١ ص ١٧٧

والمتنبي يكرر المعاني التي تقرر عفّته ، وذلك مجاراة للخلقيّات المتمدّحة في عصره ، استجابة لما رسمه الدين ، وشمائل البادية ، ولما تميّز به المتنبي من انشغال عن امور العشق ، بمطالب المجد في معظم شؤونه .

يؤكّد لنا المتنبي فى مختلف شعره المتغزّل أنه طبيعيّ في حبّ الجنس ، بل هو من فحوله المجلّين يشهد بذلك هذا الهوس لافتتاح معظم قصائده بحب المرأة ، وتذكاراتها ، وشؤونه معها ، وتصويره نوع الجمال الذي يفضّل ، وتعيين المواقع والبلدان التي عاني ومارس فيها أمور الجنس .

أما داليّته التي قالها في « محمد العلويّ المشطّب » فهو يضع لنا الخطوط فيها للمرأة المفضلة عنده :

بانوا بخرعوبةٍ لها كفلٌ
يكاد عند القيام يقعدها[41]
ربحلة أسمرٌ مقبّلها
سبَحْلةٌ أبيض مجرّدها

* * *

ذائقته الجماليّه ازاء المرأة لا تخرج عن ذائقة البدوي التي تفضّلها خرعوبة ، شابة ، ناعمة ، وربحلة سبحلة اي طويلة ممتلئة ، سمراء الشفتين، بيضاء العري ، وهذه الصورة ردّدها فى أكثر أبياته الغزليّه ، كما في قصيدته الداليّة التالية :

فمضت وقد صبغ الحياء بياضها
لوني كما صبغ اللجين العسجد[43]

وفي رائعته التي قالها في مدح عضد الدولة ، وفيها مظهر لمراحه.

---

٤١ـ الديوان جـ١ ص ١٩٦

٤٢ـ الديوان جـ١ ص ٢١١

وامنــه ، وخيلائه ، كالاســد ظفــر بفريسةٍ دسمــة ، فهــو يــلاعبها ، ويختال في لهوه ، وتدفــق حيويّاته ، كانمــا هو فــي موضع الزهو من عمل جنسيّ فارع ، فهــو فيها يزيد على صفات المرأة السابقة بما يلي :

يــا طفلــة الكــفّ ، عبلــة الساعــد

علــى البعيــر المقلــّد الواخــد[٤٣]

ويزيــد في رائيّة مدح بهــا « جعفر بن كيغلغ » ولم ينشده إياها :

نعــجٌ محاجــره ، رعــج فواظــره

حمــر غفائــره ، ســود غدائــره[٤٤]

مثله في سينية مدح بها محمد بن زريق الطرسوسيّ :

بيضــاء يمنعهــا تكلّــم دلّهــا تيهــاً

ويمنعهــا الحيــاء تميســــاً[٤٥]

وفي مدحته لعليّ التنوخــيّ يقدّم لنا لوحــةً طريفةً شارحة :

منعّمــــــــةٌ ممنعــــــة ، رداحٌ

يكلّــف لفظهــا الطيــر الوقوعــا[٤٦]

ترفّــع ثــوبهــا الارداف عنهــا

فيبقــى مــن وشاحيهــا شسوعــا

اذا ماســت رأيــت لهــا ارتجاجــاً

لــه لــولا ســواعدهــا نزوعــا

٤٣ـ الديوان جـ١ ص ٢٩٥
٤٤ ـ الديوان جـ١ ص ٣٢٩
٤٥ـ الديوان جـ١ ص ٣٨٤
٤٦ـ الديوان جـ١ ص ٤١٨

ذراعاها عدو دملجيها

يظن ضجيعها الزند الضجيعا

كأن نقابها غيم رقيق

يضيء بمنعه البدر الطليعا

غدا بك كل خلو مستهاما

وأصبح كل مستور خليعا

وبين الجنية، والوحشية، والمتحضرة، يتبختر الشاعر بين ظلال، وغصون الجميلة الفاتنة، مقدما لمدحته في «أبي الفرج القاضي»:

لجنية أم غادة رفع السجف

لوحشية، لا، ما لوحشية شنف[47]

نفور عرتها نفور فتجاذبت

سوالفها، والحلي، والخصر والردف

* * *

ومن كلما جردتها من ثيابها

كساها ثيابا غيرها الشعر الوحف

وقابلني رمانتا غصن بانة

يميل به بدر، ويمسكه حقف

الى:

زيادة شيب، وهي نقص زيادتي

وقوة عشق وهي فى قوتي ضعف

---

٤٧ـ الديوان جـ١ ص ٤٣٩

وتارةً يلتفت الى عنترة في الطلب إليها أن تسأل عن بطولاته لتزيد في حبه :

سلي عن سيرتي فرسي وسيفي
ورمحي والهملّعة الدفاقا[٤٨]

وساعة يعيد الحديث عن عفّته لا ينسى مجد فروسيّته :

وما كل من يهوى يعفّ اذا خلا
عفافي ويرضي الحبّ والخيل تلتقي[٤٩]
والهج تقسي لغير الخنا
بحبّ ذوات اللّمى والنهود[٥٠]

* * *

ومن أغرب ، وأعجب معانيه العزلة قوله في احد داليّاته إبّان الشباب :

راميات بأسهم ريشها الهدب
تشقّ القلوب قبل الجلود[٥١]
يترشّفن من فمي قبلاتٍ
هنّ فيه أحلى من التّوحيد

ما هذه الحلاوة التجريديّة ، والسورياليّة في التوحيد الذي تعنيه أيها القرمطيّ ؟ ثم يجري في رسم الشّعر العطري الحالك الأثيث ،

---

٤٨ـ الديوان جـ١ ص ٤٥٢

٤٩ـ الديوان جـ١ ص ٤٥٩

٥٠ـ الديوان جـ١ ص ٢١٨

٥١ـ الديوان جـ١ ص ٢٠٤

والثنايا البَرود ، ولكنه يحيد هذه المرة ، عن بدويّته إلى تصنيع الحضارة بقوله :

أهْلُ ما بي من الضّنى بطل صِيْدَ

بتصنيف طُرّةٍ او بجيد

* * *

وقد بلغ المتنبي مرتبة المتصوّفة في بعض مواقفه العاطفيّة ، وحياته كلها نزوات مجد ، وطموح ، ورغبة ، وهذه الرغبة تحتل من شعره مكاناً مرموقاً ، والا فما معنى الالحاح على افتتاح قصائده بالغزل المتدرج من بيتين او ثلاثة الى ما يقارب العشرين ليخلص بعد ذلك الى غرضه ، واذا كانت حياته في ظواهرها تجعل شعره يجري بالحكاية عنه ان فؤاده لغير الغواني رميّة ، وان ادّعى أنّ « للخود منه ساعة ثم تنقضي الى فلاة » وأن الغواني لا عهد لهنّ :

أسَرُّ بتجديد الهوى ذكر ما مضى

وإن كان لا يبقى له الحجر الصّلدُ(٥٢)

ممثلّة حتى كأنْ لم تفارقي

وحتّى كأن اليأس من وصلك الوعدُ

وحتّى تكادي تمسحين مدامعي

ويعبق في ثوبيّ من ريحك النّدُّ

* * *

هذه الأبيات افتتح بها قصيدة يمدح بها « الحسين الهمداني » وهي في نظري من أجود شعره الغزلي ، ومن الممهّدات للشعر الصوفي ، يقول ، إنني أحيا في هوى موصول ، وذلك بالتذكار الذي يجدّد

---

٥٢ـ الديوان ج١ ص ٢٤٥

لي مشاعر الحب ، على أنّ هذا الموقف يشكّل حزناً مدمّراً لا يثبت له الحجر الصلد دون أن ينسحق .

وأنت أيتها الحبيبة تلازمين كياني كأنك لم تفارقيني ، وحتى أنّ يأسي من وصلك أمل تحقّق بالقرب ، والملازمة الى درجة انني في استحضاري عهدك يخيل اليّ أنك تمدّين يدك لمسح دموعي ، وتفيض على ثوبي عطورك فتملأ آفاقي .

* * *

الاستحضار تعويض عن الحضور ، وهو من مراتب الشهود الصوفيّ ، ودلالة على العشق المتجاوز .

لكن المتنبي يبدّد هذه الغيوم المحمّلة بالالوان ، والعطور ، والشفافيّة الساحرة ، ببيتٍ هدّامٍ يضع الانثى الجميلة موضع الغدر بمحبها ، بيد أنّه يسلكه فى نظام رائع يرسم فيه خطوط المرأة في دروب العشق ، وينفذ الى اعماق كيانها :

اذا غدرت حسناء وفّت بعهدها
فمن عهدها ان لا يدوم لها عهد[٥٣]
وان عشقت كانت أشد صبابةً
وإن فركت فاذهب فما فِركها قصدُ
وان حقدت لم يبق فى قلبها رضىً
وان رضيت لم يبق في قلبها حقدُ
كذلك اخلاق النساء وربّما
يضلّ بها الهادي ويخفى بها الرشدُ

---

٥٣ــ الديوان جـ١ ص ٢٤٥

ولكنّ حبّاً خامر القلب في الصّبا

يزيد على مرّ الزمان ويشتدُّ

وأن هذا الحب نوع من الخدر الذي يحدثه السُّكر الموصول :

قالت الا تصحو فقلت لها

أعلمتني أن الهوى ثمَلُ(٥٤)

ليس هذا العشق منحرفاً ، او شاذاً ، او سادياً ، إنه عشق الانثى ، حبّ الحبيب الأول ، كما يقول استاذ المتنبي أبو تمام ، والمتنبي يطلق أحكامه عن خبرةٍ ومراس ، وإن كان يقرّ بعجزه كسائر الناس عن فهم دخائل النساء ، والغرام .

* * *

وربما نادمه وسقاه جميل ما كان يطمع المتنبي أن يحظى بتلماحه ، فغالى مفتوناً بهذا اللقاء المصادف :

نجني الكواكب من قلائد جيده

وننال عين الشمس من خلخاله(٥٥)

وطمعه بوصاله طمعاً لم يحقّق ، لذلك أعلن :

إني لأبغض طيفه من أحببته

إن كان يهجرنا زمان وصاله

ويستشيط ، حاقداً ، منتقماً ، فيتخذ موقف المتأبّي ، المتعفّف ، ليذيق الحبيب ما اذاقه :

وقد استقدتُ من الهوى وأذقته

من عفّتي ما ذقت من بلباله

---

٥٤ــ الديوان جـ١ ص ٢١٤

٥٥ــ الديوان جـ٢ ص ٥١

وقد يظهر المتنبي أبيقورياً ، أو مخزومياً في بعض مواقفه ، منطلقا من فلسفة عميقة شموليّة تطيف نظراتها بالوجود كلّه ، على مسحة من السّوداويّة اليائسة ، وتسلسل منطقي دافع :

إنعم ولذّ فللأمور أواخر
ابداً ، اذا كانت لهن أوائل[٥٦]
ما دمت من أرب الحسان فإنّما
روق الشباب عليك ظلّ زائلُ
للّهو آونة تمرّ كأنّها
قُبَلٌ يزوّدها حبيبٌ راحلُ
جَمح الزمان فما لذيذ خالص
مما يشوب ولا سرور كاملُ

ذلك من قصيدة مدح بها القاضي ابا الفضل الانطاكي ، وأبدى لنا أن أحبّ النساء اليه المتمنّعات « وأحبها قرباً اليّ الباخلُ » ، وأنّهنّ محاربات كالرجال ، شرسات الافتراس :

من طاعني ثُغَر الرجال جآذرٌ
ومن الرماح دمالجٌ وخلاخلُ

* * *

والهجر لون يكاد يصبغ شعر المتنبي كلّه لا غزله وحده ، ومنه هذه السيف دوليّة ، التي قالها سنة ٣٢١ ولم ينشدها ، والابيات التالية تبوح بمكنون قلب الشاعر الذي اوجس من المقدور ، وعبأ وجدانيّاته في الحروف والالفاظ وهي لا تصدر الا عن قلب صادق الحبّ ، معنّاه :

---

٥٦ـ الديوان جـ٢ ص ١٧٨

ليس القبـــاب علـــى الركـــاب وإنمـــا

هـــن الحيـــاة ترحّلـــت بســـــلام[٥٧]

ليـت الـــذي خلـــق النوى جعل الحصى

لخفافهـــــن مفـــاصلـــــي وعظـــــامي

ارواحنـــا انهملـــت وعشـــنا بعـــدها

من بعـــدما قطـــرت علـــــى الأقـــدام

كذلك النّحول الذي هو محور الشعر الغزلي عند المتنبي وسابقيـه ولاحقيه من شعراء العربية .

لعـــل أروع أبياتـــه التـــي ترســـم لنـــا النّحول على اغراق اولع به، بيتاهُ التّاليـــان وهما من شعر الصبا :

روح تـــردّد في مثـــل الخـــلال اذا

أطـــارت الريـــح عنـــه الثوب لم يبن[٥٨]

كفـــى بجسمـــي نحـــولاً أنّنـــي رجـــل

لـــولا مخاطبتـــي إيـــاك لـــم ترنـــي

وقولـــه :

والوجـــد يقوى كمـــا تقوى النوى ابـــداً

والصبـــر ينحل في جسمي كما نحـــلا[٥٩]

الحـــب العميـــق يشتـــد ولا لقاء ، لذلك فالصبر يفعـــل في كيانـــي

---

٥٧ـ الديوان جـ٢ ص ٢٨٩

٥٨ـ الديوان جـ٢ ص ٤٣٤

٥٩ـ الديوان جـ٢ ص ١٢١

ساعة لا اجد الا البعـد الذي يتمادى ، الى أن اصبح الصبر ناحلاً كجسمي الذي اضناه الهجر نحـولا .

منـه :

ولـولا أننـي مـن غيـر نـوم ٍ
لكنـت أظنـني منّـي خيـالا[٦٠]

بجسمـي مـن برتـه فلـو أصارت
وشاحـي ثقّب لؤلؤة لجـالا

مثله على شيء من الطرافة والغرابة والافتراع قوله :

ولـو قلـم ألقيـتُ فـي شقّ رأسـه
مـن السقم ما غيّرت في خط كاتـب[٦١]

إلى صنوه :

حُلْتِ دون المـزار فاليـوم لـو زرت
لحـال النّحـول دون العنـاق[٦٢]

وقد يتجاوز ــ على حسّيّاته الغالبة فـي شعره ــ الريـق ، والشعر ، والعناق ، والهجر ، والنّحول إلى ما كسبه من الثقافة الرياضيّة ، ومنطـق اليونان وعلم الكلام ، فيصـل الى نقطـة الصفر ، والجوهـر الفرد ، والفوات التام فيقول :

وشكيّتـي فقـد السقـام لأنـه
قـد كـان لمّـا لـي أعضـاء[٦٣]

---

٦٠ــ الديوان جـ٢ ص ١٥٩
٦١ــ الديوان جـ١ ص ١٠٧
٦٢ــ الديوان جـ٢ ص ٤٩٧
٦٣ــ الديوان جـ١ ص ١٠

المتنبي يعشق البدينات ، البيضاوات على ملامح سمرة بدويّة ، أخصّها في الشفاه ، كما يتردد في شعره ذكر الشعر الفاحم ، والقدّ الفارع ، والحياء ، والريق ، والتثني ، والساعد ، والخدّ ، ولكنه يكثر الى جانب ذلك من تصوير النعومة في جسد المحبوبة :

حسان التثنّي ينقش الوشي مثله

اذا مِسن في أجسامهنّ النواعم[٦٤]

أما ريق الناعمة الواصلة ساعة يقبلها وتمتزج دموعهما ، فهو قادر على بعث الرمم :

فذقت ماء حياةٍ من مقبّلها

لو صاب ترباً لاحيا سالفه الأمم[٦٥]

أيّام شبابه الطالع من الهوس والمراهقة ، وجنون الجسد :

فما أمرّ برسم لا أسائله

ولا بذات خمارٍ لا تريق دمي

وساعة يقبل خدّها ، وثغرها ، لا يتذكر سوى تفاح لبنان شكلاً ، ونكهة ، ونشوة :

حيث التقى خدّها وتفّاح لبنان

وثغري على حميّاها[٦٦]

وكثيراً ما تأخذه نشوة جماليّة ساميَة ليست في وصال ولا في تعفّف ، ولكنها منطلقة من الجسد العاري الساحر ، الذي يبدو غريباً

---

٦٤ـ الديوان جـ٢ ص ٣٧١

٦٥ـ الديوان جـ٢ ص ٣١٢

٦٦ـ الديوان جـ٢ ص ٥٠١

ككلّ جميل سام يفاجىء مثل غربة المتنبي عن أهله ووطنه ، ويشعرنا بأنه من عالم لم نألفه ، فنحسّ بحنين يتجاوز عالمنا الى المجهول

اما الثّياب فتعرى من محاسنه

اذا نضاها ، ويَكْسى الحسن عريانا[٦٧]

وهكذا كنت في أهلي وفي وطني

ان النفيس غريب حيثما كانا

---

٦٧ـ الديوان جـ٢ ص ٤٥٨

في غزل المتنبي كما فى فخره ، ومدائحه ، وبعض أهاجيــه ، اشارات الى محبوب ليس من لحم ودم ، قضى عمره ينشد الوصول اليه ، ويكافح لاجل امتلاكــه ، وقد سلّط للدنوّ منه طاقاته ، ولهب وجدانه ، ولقي فــي هذا السبيل ما لقي من قلق ، وتشرّد ، وارتحال زئبقيّ ، ورعب غامض ، كان آخر ذلك تلك اللاّمبالاة التي رسمها في كافيته ودّع بهـا شيـراز وكأنه يودّع الحيـاة كلّهـا بلمحـةٍ بقوله :

بأبــي مــن وددتـــه فافتــرقنــا

وقضــى اللـه بعد ذلــك اجتماعــا(٦٨)

فافتــرقنــا حــــولا فلمّا التقينـــا

كـــان تسليمــه علـــيّ وداعـــا

كاد يلتقي بالمحبوب في شيراز ، ولكن اللقاء كان سريعـاً ممزوجاً بالهاجس المخيف ، فشدّ على شفتيــه بيأس ، وأطلق من قلبه آهة ، ولكن ذلــك لم يبــدّد خفافيش الظــلام عن آفــاق صدره :

ومــا انــا غير سهم في هــواء(٦٩)

وايّاً شئــت يــا طرقــي فكــوني

فمن هــو ذلك الحبيب المجهول ؟ وكيف لاح له ثم اختفى ؟

لندعه يبن لنا ملامح جماله :

---

٦٨ـ الديوان جـ١ ص ٤٣٦

٦٩ـ الديوان جـ٢ ص ١٧

يبين لي البدر الذي لا أريده

ويخفين بدراً ما اليه سبيل،[70]

* * *

اذا أردت كميت اللون صافية

وجدتها وحبيب النفس مفقود،[71]

* * *

لم يترك الدهر من قلبي ولا كبدي

شيئاً تتيمه عين ولا جيد

* * *

عذيري من عذارى ، من أمور

سكن جوانحي بدل الخدود[72]

* * *

فقل في حاجة لم أقض منها

على شغفي بها شروى نقير

* * *

طلب ابو نؤاس الجارية ، فالغلام ، فالخمرة فوجد كل ذلك ، واخيراً طلب الله فوجده ، وخيل اليه أن كل ما مضى وهو به شغوف لم يكن الا : « كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء ، حتى اذا جاءه لم يجده

---

٧٠ـ الديوان جـ٢ ص ٧٨

٧١ـ الديوان جـ١ ص ٢٧١

٧٢ـ الديوان جـ١ ص ٣٤٧

شيئاً ووجد الله عنده .[٧٣] »

وعجز ابن الرومي عن اللّحاق بالمرأة ، فالتفت وعوّض عنها بالغصون ، والزهر ، ومفاتن الطبيعة ، لكن المتنبي ، طلب المال ، والمرأة ، والجاه ، فوجد كل ذلك ، لكنه مات وهو يسعى وراء المجد الممثل في السيطرة والحكم فلم يجد منه شروى نقير ، ولم نعرف أنه طلب الله ، ولسنا ندري أنه لو فعل كان سيجده .

٧٣ــ قرآن كريم

# الوصف في شعر المتنبي

١ ــ معنى الوصف ــ المفاجأة والغرابة ــ الاسطرة ــ التشبيه والاستعارة .

٢ ــ منطلقات الوصف في شعره : السهام ــ الرماح ــ العجاجة ــ الخيل السيف .

٣ ــ وصف كلب ــ وصف بحيرة ــ شعب بوّان ــ

٤ ــ من صوره الشعريّة في الجزء الأول

٥ ــ من صوره الشعريّة في الجزء الثاني

* * *

**مراجع :**


١ ــ الديوان بشرح البرقوقيّ

٢ ــ مع المتنبي لطه حسين

٣ ــ كتاب الصناعتين للعسكري

٤ ــ دلائل الاعجاز لعبد القاهر الجرجاني

٥ ــ اسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجاني

٦ ــ يتيمة الدهر ، للثعالبيّ

٧ ــ ابو الطيب ماله وما عليه ، للثعالبيّ

٨ ــ مجلة ابولو ــ ادب الطبيعة في شعر المتنبي للدكتور احمد ابو شادي ١٩٣٣


* * *

( ١ )

أن تقابل ملامح شيء مألوف بمثله ، لا يدخل في بال الأديب الفنان ، لانك ساعتئذ تكون كالمصوّر الفوتوغرافي تعطي الصدى ، والصوت أفضل منه ، والمظهر ، والاصل أقوى في منح الحياة •

لذا ، فكل اثر فنيّ لا يفاجيء ، لا ينقلك الى الغرابة ، فهو ضئيل ، يحمل عياصر فنائه في وجوده •

المفاجأة ولادة جديدة غير متوقّعة حسب مألوف النواميس •

الغرابة حياة ثانية وحشيّة تندجن وتضاف إلينا •

كان اليوناني يحب الابطال ، ويعايشهم ، ويعجب بهم منذ القدم ، وكان الجاهليّ يعتزّ بالفارس الشجاع المتفوق ، ولكن فئة من الابطال تجاوزت الحد الملحوظ ، فعجز عن فهم عظمتها ، فأسند اليها الألوهية ، وأسكنها جبل الأولمب الشاهق ، الجميل ، الصعب المرتقى ، وهكذا فعل الجاهليّ ساعة قصّر عن وعي الفروسية النادرة ، والشجاعة الماردة ، فأحلّها ــ حسب مناخ بيئته ، وطبيعة أرضه ــ ودياناً وعة وفدافد موحشة أسكنها الجنّ مثل عبقر ، ويبرين ، ووبار •

الأولمب في شموخه ، وعبقر في عمقه ، كلاهما ذو مؤدّى واحد بين شعبين اتفقا في الغاية ، واختلفت لديهما الوسيلة ، فهما يلجآن الى الاسطورة لتفسير الواقع ، ومجرى الاقدار في حياة الناس •

* * *

الأسطرة مصنع المفاجأة والغرابة والتصعيد ، لكنها لا تكون بالزمنيات وحدها كما في القدماء وحكاياتهم وكما في الف ليلة وليلة ، وسيرة عنترة ، وسائر اقاصيص الادب الشعبي ، فعصرنا الحاضر ، بعد العقل الارسطيّ ، والمعتزلي ، والداكارتي ، والماركسي ، والفضائي ما عاد يستسيغ أشياء العصور الذاهبة ، قبل الديموقراطية ، والاشتراكية ، وشعور الفرد أنه محور

الجماعة ، وهو الذي يختار طريق الحكم ، بل إن اسطورة التاريخ الماضي كادت تموت ، وبقيت اسطورة الوصف ، بالتشبيه والاستعارة ، وسائر المجازات . فعلى أي شيء تقوم هذه الأسطرة الادبية ؟ تقوم على نشدان التوحيد بين مختلف الموجودات ، واكتشاف تذكاراتها الموغلة في البعد ، والقدم ، آن كانت في مهدها الأول ، وفاضت من ينبوعه .

هذا الاكتشاف بعيده ، او قريبه ، وذلك الربط بين الكثير أو القليل هو مقياس عبقرية الفنان .

* * *

المتنبي عبقري نادر ، برع في رسم الصورة الخاطفة ، الجانبية ، وتجافى عن التفصيل كما فعل ابن الرومي ، ودارت صوره في فلك ذاته ، ومطامحه ، وإيثاره وحقده ، وأروع لوحاته تلك التي رسم فيها جريان الدم ، ورنين السيوف . ولمعان الاسنّة ، وضَبْحَ الخيل ، ورهج الغبار ، في جوّ من المبالغة يفوق جو الاسطورة اليونانية في معظم الاحوال .

فبطله لا يحتاج الى دهن يمسح به جسده ، لينجو من حراب الاعداء ، بل إنّ الرماح نفسها ، بنفسها ، من نفسها تتقاصر عنه ، وسهم فارسه ، أو أيّ رامٍ من ممدوحيه ، يتبع العدو المولي من تلقاء ذاته ، ويصيبه كما تصيب الصواريخ الحديثة اليوم طائرات العدوّ ، بل إن سهم المتنبي واعٍ ، عاقل ، يفهم أين يتجه ، وحيث يجب أن يضرب :

ويميت قبل قتاله ، ويبشّ قبل نواله ، وينيل قبل سؤاله[1]

* * *

(٢)

(ا) السهام

يفارق سهمك الرجل الملاقي

فراق القوس ما لاقى الرجالا[2]

---

١ ـ الديوان جـ٢ ص ٥٤

٢ ـ الديوان جـ٢ ص ١٦٤

فمـــا تقـف النصـال علـى قـــرار

كـأنّ الـــرّيش يطّلـــب النّصـــالا

* * *

يحيـدُ الرمـــح عنـك وفيـه قصـدٌ

ويقصـر أن ينـــال وفيـــه طـول[٣]

فما هو ، ومن هو ذلك الذي يُميت قبل القتال ، إلا ان يكون ماردا خفيا يسكن الاقدار ، ويفعل فعل خالق الليل والنهار ؟ ولكنّه سيف الدولة ، ممدوح المتنبي المتخطّي كـل حـدّ .

وأنت يا بدر بن عمّار ــ وهذا الممدوح الثاني الشبيه بسيف الدولة ، والملائم مزاج الشاعر ــ أنت بلغت من العظمة في الحرب أنّ سهمك يخرق جسم معاركك من جانب الى جانب ، ثم يسعى بسرعة الشهاب ليخرق جسد كـل محارب عدوّ ، فهو في حركة ذرّيّة دائبة ما دام يلقى رجالاً يحاربونك .

بين ريش السهم فى المؤخرة ، ونصل السهم في المقدمة صراع ، فالريش يركض وراء النصل ، والنّصل هارب من الريش ، فهما لا يكفّان عن الاندفاع .

أمّا سهام علي التميمي ، فهي لسرعتها ، وتلاحقها ، تترك فى أخواتها علامات لاحقها في سابقها ، فلو أنها أفرغت لاتّضح ذلك جليّاً ، ولولا أنّ بعضها يكسر في جسد العدوّ ، لرأيتها كأنها قضيب واحد ، متّصل بعضه ببعض :

اذا نكبـــت كناتنـــه استبنّـــا

بأنصُلهـــا لأنصلهـــا نُـدوبـــا

---

٣ ــ الديوان جـ٢ ص ٢٠

يصيب بعضها أفواقَ بعضٍ
فلولا الكسر لاتّصلت قضيبا[4]

* * *

وبعض تلك السهام تطيع « محمد بن سيّار التميمي » لانها تعشقه ، وتزهد في غير أنامله ، وهو يصيب الشيء قبل الرمي ، ويمكنه أن يعيد اليه سهمه ليستخدمه مرةً اخرى ، ويصيب به عقدة الشعر السوداء في الليل :

كأن القسيّ العاصيات تطيعه
هوىً ، أو بها في غير أنمله زهدُ[5]

يكاد يصيب الشيء من قبل رميه
ويمكنه في سهمه المرسل الردُّ

وينفذه في العَقْد وهو مضيّقٌ
من الشعرة السوداء والليل مسودُّ

وسيف الدولة أعظم بطولة من « آخيل » هومير ، هذا الذي يمنعه درعه الذي صنعته أمّه الالهة « ثايتس » لصداقتها مع إله النار « چوف » أو تمتنع الحراب عن لمس جسده لدهن سحريّ دهنت به أم البطل جسد ابنها ، خلا نقطة عرفه « پارس » كيف يرشقها بحربته ، بعد ان دلّته « ڤانوس » على ذلك .

**(ب) الرماح**

إنّ كل رمحٍ يسدّده فارس الى صدر سيف الدولة ، يحيد عنه ، ويفقد فاعليّته ، مهما كان سريعاً ، هادفا ، طويلاً . واذا سألنا الشاعر : « لماذا » ؟ فانّ الجواب يستفاد من بين السطور وفحواه أن هيبة سيف

---

٤ ــ الافواق جمع فوق وهو مكان وضع السهم من القوس
٥ ــ الديوان جـ١ ص ٢٤١

الدولة تتجاوز الفرسان ، الى رماحهم ، فهذه الرماح تخشاه خشية فرسانها .

وهذه الرماح في رهج الغبار ، ما هي الا كواكب سماء ، وذلك الغبار متصاعد الى حيث يغلف الفضاء ، وممدوحه هذه المرّة « محمد ابن اسحق التنوخيّ » الذي مات ، ويأبى الشاعر أن يرثي دون أن يتوسّل الى ذلك بوصف الحرب ، وهي فضيلة سائر ممدوحيه ، لأنها وطن روحه الذي تسكنه جوارحه ، ومطامحه :

يزور الاعادي في سماء عجاجةٍ
أسنّتُه في جانبيها الكواكب[6]

أما رمح « علي التنوخي » فقد صيغ من الهموم ، لأنه لا يخطرُ الا في القلوب :

وقد صغت الأسنّة من هموم
فما يخطرن الا في فؤاد[7]
وعجاجة ترك الحديد سوادهما
زنجاً تبسّمُ أو قذالاً شائبا[8]
فكأنما كسي النهار بها دجى
ليلٍ وأطلعت الرماح كواكبا

* * *

**(ج) العجاجة**

هذه العجاجة ، غبار المعارك ، تشكّل ليلاً عابساً من تكاثف السواد ،

---

٦ ـ الديوان جـ١ ص ٧٨
٧ ـ الديوان جـ١ ص ٢٢٨
٨ ـ الديوان جـ١ ص ٩٢

لذا فالسيوف في ثناياها كأنّها بسمات الزنوج لما بين الليل الاسود والاسنان البيضاء من تلازم ، وكانها مؤخرة الرأس البيضاء بسبب الشيب بينما الرأس لا تزال سوداء الشعر ، وكان النهار كسي بها ظلاماً ، والسيوف في آفاقه كواكب تبدد حلكته . فيا لها من أعوجيّات تملأ المدار على الاعداء من كل الجهات ، فوق ، تحت ، يميناً ، شمالاً .

(د) الخيل

قاد الجياد الى الطعان ولم يقد
إلاّ الى العادات والاوطان[9]

كلّ ابن سابقةٍ يغير بحسنه
في قلب صاحبه على الاحزان

إن خلّيت ربطت بآداب الوغى
فدعاؤها يغني عن الارسان

في جحفلٍ ستر العيون غباره
فكأنما يبصرن بالآذان

فكأنّ ارجلها بتربة منبج
يطرحن أيديها بحصن الرّان

حتى عبرن « بأرسناس » سوابحاً
ينشرن فيه عمائم الفرسان

* * *

في سنة ٣٤٥ مدح المتنبي سيف الدولة بهذه القصيدة ، وأنشده إيّاها في « آمد » بعد معركة روميّة ، ومطلعها :

---

٩ ــ الديوان جـ٢ ص ٤٢٦

الـــرأي قبـــل شجاعـــة الشجعـــان

هـــو أول وهـــي المحـــل الثـــانـــي

ويثبُ بعد المقدمة الى وصفه الخيـل التي بها يغزو أمير حلب بـلاد عدوّه ، فهذه الخيـل لا تسكن وطناً في ارض البشر ، بـل وطناً مصنوعاً من الطعـان ورهـج الحرب ، وكـل حصان فيها يغير في الميـدان وفـي الوقـت ذاتـه كأنـه يغيـر على أحزان صاحبه فيبددها ، وتلك الخيـل تتحلى بالآداب كالبشر،لذلك فهي مُسْتجيبة عندما يدعوها فرسانها دون ان تحتاج إلى أرسان ، وهي تفهم ما يتكلمـون بـه في سمعها لأنهـا مؤدّبـة مروّضـة .

وغبار معاركها كثيف لا تبصر فيـه العيـون ، ولكـن الآذان التـي لا تتوانى عن السمع تحـل محـلّ العيـون فهي تبصـر بسمعها ، وهـي لسرعتها ، ونشاطها كأنما فُصِّلَتْ من مسافات طويلة مديدة ، حيث أرجلها بلدة منبج بضواحي حلـب ، وأيديها بحصن الرّان في أوروبة ، وعندما عبرت « أرسناس » سوابحاً بفرسانها نشرت عمائمهم كأشرعةٍ بيضاء علـى صفحـات النّهـر .

أمّـا سرعتهـا فـهي سهام مطلقة ، وعلى الاعداء أن يحسبوا لذلـك حساباً :

رمى الـدرب بالجرد الجياد الى العـدا

وما علمـوا أنّ السّهـام خيـول(١٠)

شـوائـل تشـوال العقـارب بالقنـا

لهـا مـرح مـن تحتـه وصَهيـلُ

فالصورة التالية للخيـل التي كالسهام ، الخيل التـي تشكـل مـع

---

١٠ــ الديوان جـ٢ ص ٨٠

فرسانها ، ورماحهم المرفوعة صورة عقرب تشيل بذنبها محتدّة ، متأهبة ، ثم تدرك أنها أضيفت الى فرسانها لذلك فهما كيان واحد ، ولها خيلاء ، وصهيل .

وتارةً يعرض الخيل في صورة السّحب ، ولكن مطرها ليس ماءً سكيباً ، بل حديداً صبيباً ، فاذا بالامكنة التي تدور فيها المعارك مغسولة بدماء الاعداء :

سحائب يمطرن الحديد عليهم
فكلّ مكان بالسيوف غسيل[11]

وهذه الخيل الحمدانيّة ، تختلف عن بقية الخيول ، فهي تقنصها كما يقنص الصائد طرائده :

تقنص الخيل خيلُه قَنَصَ الوحش ويستأثر الخميس الرعيلُ

ولها صفة أخرى ساعة يقصد كافوراً ، فتسرع الخيل لانها تعرف أين تقصد ، فأشواقها من أشواق فرسانها ، فهي تتبع الرماح الممدودة بين آذانها كانها تسابقها ، وتنقش الصخور التي تمرّ عليها بحوافرها فتبدو كأنّها رقشاء ، رقطاء ، كصدور البزاة ، وهي ملهمة النظر ، ترى الشخوص كما هي مهما كانت بعيدة ، وفي جوف الليل ، رؤية حقيقية صادقة لا توهّم فيها . وتسمع النجوى كأنها الصوت المدوّي لدقّة ورهافة مسامعها ، واذا اراد لها فرسانها سرعةً قصوى يرسمونها ، فهي تجاذبهم الأعنّة تتماوج بين أخذ وردّ على أعناقها كالافاعي المتماوجة ، وهي لسرعتها المندفعة ، وكأن جسومها تجري في سروجها راكبة عليها ، ساعة تمشي القلوب في أجساد فرسانها :

وجرداً مددنا بين آذانها القنا
فبتن خفافاً يتّبعن العواليا[12]

---

11 ــ الديوان جـ٢ ص ١١٧
12 ــ الديوان جـ٢ ص ٥١٣

تماشي بأيدٍ كلما وافت الصّفا
نقشن به صدر البزاة حوافيا
وتنظر من سود حوادق في الدجى
يرين بعيدات الشخوص كما هيا
وتنصب للجرس الخفيّ سوامعاً
يخلن مناجاة الضمير تناجيا
تجاذب فرسان الصباح أعنّة
كأن على الأعناق منها أفاعيا
بعزم يسير الجسم في السرج راكباً
به ، ويسير القلب في الجسم ماشيا
قواصد كافور توارك غيره
. . . . . . . .

* * *

وله مع الخيل وضع آخر ، ساعة يصرّفها لمآربه القرمطيّة ، ومطامعه في حكم العالم آن كان دم الشباب الذي يزأر في عروقه يرسم له الحرب وسيلة للسيطرة النافذة على ملوك العرب والعجم :

لأتركن وجوه الخيل ساهمة
والحربُ أقوم من ساق على قدم[١٣]
والطعن يحرقها ، والزجر يقلقها
حتى كأن بها ضرباً من اللمم

(١٣) الديوان جـ ٢ ص ٣١٥ .

قــد كلّمتهــا العــوالي فهــي كالحــة"
كانمــا الصــاب معصوب علــى للّجــم

* * *

- هذه الخيـل تدرك أيّـة مهمة خطيرة تقوم بها لصاحبها فوجوههـا لذلك متغيّرة ، وجلـة ، بسبب استعار المعركة ، ساعة الرماح المنصّبة على صدورها تحرقها ، والاصوات التي تتعالى لتزجرها تقلقها ، فتروح وتجيء كانها جنّت ، وهي خيـل تفهم حديث الرماح وتدرك ما هي مدعوّة اليه ، فتكلح مـلامحها وتربد كأنهـا تمتصّ مـُـرّ العلقـم المعصوب على لجمهـا .

- وتارة يشبه السفن التي تحمل فرسان سيف الدولة الى حرب الــروم بالخيـل ، فهـو لا يستطيـع أن يتصور مجداً الا بالحرب ، ولا حربا بدون خيـل مهما كانـت الوسائـل :

حتــى وردن « بسمنيـن » بحيرتهــا
تنشّ بالمــاء فــي اشــداقها اللجـم[١٤]
تجفّــل المــوج عــن لبّــات خيلهــمُ
كمــا تجفـل تحـت الفــارة النّعَـمُ
دهــم فـوارسهـا ركــاب أبطنهــا
مكــدودة وبقــوم لا بهــا الالــمُ
مــن الجيــاد التــي كـدت العــدوّ بهـا
ومـا بهـا خِلـَـق منهــا ولا شيــمُ

* * *

---

١٤ــ الديوان جـ٢ ص ٢٩٨

وفي احدى مدائحه للقائد « دِلّير بن لَشْكرْوَزّ » سنة ٣٥٣ الذي انهزم عدوّه في الكوفة قبل ان يصل اليها ، يصفه خيله أنها اذا مرت بروضة لترعى فهي تأبى الا الصيد لإطعام الفوارس قبل الرعي ، وهذه الخيل طويلة الاعناق كانها النخل الباسقات :

وخيل اذا مرّت بوحش وروضة
أبت رعيها الا ومرجلنا يغلي(١٥)

* * *

وقاد لها « دِلّير » كلّ طمرّة
تُنيف بِخَدّيْها سحوقٌ من النّخل

* * *

على أن خيل سيفه الدولة تختلف عن هذه الخيل « الدّلّيريّة » التي تشبه النخل الباسق ، فهي تباري نجوم السماء التي تنطلق بشهابها، وتطأ الرماح المتكسّرة التي لا تتقوّم ، جُسُوم العدى ، وهي مسرعة في البرّ اكثر من الذئاب ، وتخوض المياه أقوى من الحيتان ، وتطير حائمةً في الجوّ مع العقبان :

تباري نجوم القذف في كل ليلة
نجوم له منهن وردٌ وادهم(١٦)
يطأن من الابطال من لا حملنه
ومن قِصَد المرّان ما لا يقوّمُ

---

١٥ـ الديوان جـ٢ ص ٢٠٩

١٦ـ الديوان جـ٢ ص ٢٥١

فهنّ مع السّيدان في البرّ عسّل
وهن من العقبال في الجوّ حوّم

الى : كأجناسها ، راياتها ، وشعارها
وما لبسته والسلاح المسمّم
وأدّبها طول القتال فطرفه
يشير اليها من بعيد فتفهم
تجاوبه فعلا وما تعرف الوحى
ويُسمعها لحظاً وما يتكلّم
ولو زحمتها(١٧) بالمناكب زحمة
درت أيّ سُوْرَيها الضعيفه المهدّم
على كل طاوٍ ، تحت طاوٍ كأنه
من الدم يسقى ام من اللحم يُطعم
لها في الوغى مثل الفوارس فوقها
فكل حصانٍ دارع متلثّم
وما ذاك بخلاً بالنفوس على القنا
ولكن صدم الشر بالشرّ أحزم

* * *

يصدم بعضها بعضاً في الجوّ ، والحضيض ، في الليل والنهار :

---

١٧ـ زحمت خيله كالسور ، سور «ميافارقين» حيث قبر والد سيف الدولة.

والاعوجيّة ملء الطّرق خلفهم

والمشرفيّة ملء اليوم فوقهم(١٨)

اذا توافقت الضربات صاعدة

توافقت قلل في الجوّ تصطدم

السيف ، الرمح ، العجاجة ، وسائل مباشرة للحرب لكن السيف والخيل من أخطر تلك الوسائل :

وخيلا تغتذي ريح الموامي

ويكفيها من الماء السّراب(١٩)

فاية خيل هذه التي يكفيها من العليق ، والمرعى ريح المفازات ، ومن الماء تلماع السّراب ؟ إنها لا شك خيل المتنبي الجنّيّة ، ومن بعضها ذلك الحصان الأغرّ الذي لعب في ميدان مدحة رائعة من مدائحه في كافور :

ويوم كليل العاشقين كمنْتُه

أُراقب فيه الشمس أيّان تغرب(٢٠)

وعيني إلى أذنَيْ أغرّ كأنّه

من الليل باقٍ بين عينيه كوكبُ

له فضلة عن جسمه في إهابه

تجيء على صدر رحيب وتذهبُ

---

١٨ـ الديوان جـ٢ ص ٣٠٢

١٩ـ الموامي : الفلوات . من الديوان جـ١ ص ٦٠ .

٢٠ـ الديوان جـ١ ص ١٢٤

شققتُ به الظلماء أرخي عنانه
فيطغى وأرخيه مراراً فيلعبُ

وأصرع أيَّ الوحش قفّيتُه به
وأنزل عنه مثله حين أركبُ

* * *

فيا لحصان صبيح ، جسمه يلعب في إهابه ، يشق الظلماء لاعبا لاهياً ، ويتبع الوحش فيلحقه ويسبقه ، وينزل عنه الشاعر الفارس وهو هو جلدٌ ، فارهٌ ، نشيط مثله ساعة ركبه .

ومن احدى مدائحه في الخراساني يصف خيله قائلا :

قائدو كل شطْبَةٍ وحصانٍ
قد براه الإسراج والإلجام[٢١]

يتعثّرن بالرؤوس كما مرّ
بتاءات نطقه التمتام

وهذه الصورة جديدة فارعة ، فخيله نحيلة من كثرة ممارسة الحرب ، وهي تتعثّر برؤوس القتلى كما يتعثر لسان المتأتىء بتاءات الحروف .

— وفي قصيدة « الحمّى » بمصر سنة ٣٤٨ يشبّه نفسه بجواد ربط فأضرّت الراحة بجسمه ، وقد تعوّد الانطلاق الى الحرب ، فيخاطب الطبيب بقوله :

وما في طبّه أنّي جوادٌ
أضر بجسمه طول الجمام[٢٢]

---

٢١ـ الديوان جـ٢ ص ٣٦٠
٢٢ـ الديوان جـ٢ ص ٤٠٢

تعـــوّد أن يغبّــر فــي الســـرايــا
ويدخــل مـــن قتـــامٍ فــي قتــام
فأمســك لا يُطـــال لـــه ليــرعــى
ولا هــو فــي العليـــق ولا اللجـــام

* * *

ومن صفات الخيـل عنـده أنهـا لا تركض عـلى أرض المعركـة وحدها ، بـل تركض فـي نفـوس الاعـداء :

صيـــامٌ بأبــواب القبـــاب جيادهــم
وأشخاصها في قلـب خائفهم تعـدو(٢٣)

لكنها بالنسبة الى حصون الـروم ، المشمخرات في ذرى الجبال ، فهي تطوّقها بقيـادة سيفه الدولة كمـا تطوّق القلائـد الاعناق ، وهـذا معنىً طريـف مفتـرع :

وتضحي الحصون المشمخرّات في الذرى
وخيلــك فــي أعناقهــن قــلائدُ(٢٤)

وعندما يغير سيف الدولة على بني كلاب ، وعقيل ، وقشير والعجلان ، تثيـر تلك الخيـل عجاجاً ، وموتـاً ، وفراراً من جيشه ، ويمنحنا تلـك الصورة الفريدة بقولـه :

عجـــاجـاً تعثــر العقبـــان فيـــه
كـأنّ الجـوّ وعـث أو خبـــارُ(٢٥)

---

٢٣ـ الديوان جـ١ ص ٢٤٨
٢٤ـ الديوان جـ١ ص ١٨٢
٢٥ـ الديون جـ١ ص ٣١٨ . الخبار ارض لينة

وظلّ الطعن في الخيلين خلساً

كأن الموت بينهما اختصارُ

فلزّهم الطراد الى قتالٍ

أحدّ سلاحهم فيه الفرارُ

مضوا متسابقي الاعضاء فيه

لأرؤسهم بأرجلهم عثارُ

— وخيل سيف الدولة مثل فرسانه ، لا تأكل عليقها الا والعلائق مرفوعة فوق الجثث ، ولا تشرب الماء بل الدماء :

تعوّد أن لا تقضم الحَبّ خيله

إذا الهام لم ترفع جُنوب العلائق(٢٦)

ولا تردُ الغدران الا وماؤها

من الدم كالرّيحان تحت الشّقائق

ولحصانه سرعة" تجمع الشرق الى الغرب ، وتترك حوافره في الارض خنادق من قوة وقعها ، فلو ان السماء أمطرت ، لسقت تلك الخنادق الابل العطشى منذ خمسة أيام :

لو سابق الشمس من المشارقِ

جاء الى الغرب مجيء السابق(٢٧)

يترك في حجارة الأبارق

آثار قلع الحلي في المناطق

مشياً وان يَعْدُ فكالخنادق

٢٦ــ الديوان جـ١ ص ٤٧٦
٢٧ــ الديوان جـ١ ص ٤٩١

لــو أوردت غـب سحـاب صـادق

لأحسـبت خـوامس الأيـانـق

* * *

**(هـ) السيف**

وسيف ممدوحه صيـغ مـن رقاد ، لأن رؤوس اعـدائه نسجـت مـن عيـون :

كـأن الهـام فـي المهيجـا عيـون

وقد طبعـت سيـوفك مـن رقـاد[٢٨]

وربمـا فعلـت سيوف بطله فعـل الاقلام التي تكتب وتمحو :

غمـدت صـوارماً ، لـو لـم يتـوبـوا

محوتهـم بهـا محـو المـداد[٢٩]

كذلك فإن نفـوس اعدائـه ، التي قتلها بحديد سيوفـه ، وأصبحت مفلولة من كثـرة القتـل ، فكأنمـا قتـل حديده بتلـك النفوس :

قتلـت نفـوس العـدا بالحـديـد

حتـى قتلـت بهـن الحـديـد[٣٠]

وقد لا يكـون سيفه ممـا تطبع الهند ، بـل مما يطبع لله ، وهـذا السّيف ليس له حـد واحد ، بل كـل وجـه مـن وجـوهه يشكـل حـداً يقتـل بـه عـدوه :

---

٢٨ـ الديوان جـ١ ص ٢٢٨

٢٩ـ الديوان جـ١ ص ٢٣٠

٣٠ـ الديوان جـ١ ص ٢٣٥

سرى السيف مما تطبعُ الهند صاحبي

الى السيف مما يطبع الله لا الهندِ[٣١]

فلما رآني مقبلا هزّ سيفهُ

الـيّ حسامٌ كل صفح له حدُّ

وقد يكون ذلك السيف ذا غمدٍ أحمر ، يختلف عن غمد جلديّ مألوف ، لكثرة ما قتل به ، فجمد عليه الدم ، واصبح غمده الشاهد :

يبس النّجيع عليه وهو مجرّدٌ

من غمده ، وكأنما هو مغمدُ[٣٢]

ولا يظنّن أحدٌ أن سيفه يفتر عن شرب الدم :

ريّان ، لو قذفه الذي أسقيته

لجرى من المهجات بحرٌ مزبدُ

وأحياناً تجد السيوف التي اعتادت القتل بايديهم أن تنتضي شفارها :

وتكاد الظّبا لِما عوّدوها

تنتضي نفسها الى الأعناق[٣٣]

**(و) وصف كلب**

تميّز أبو نؤاس ، قبل المتنبي بوصف أكلب الصيد ، في مجموعة خاصةٍ من شعره ، سبق بها الشعراء قبله وبعده ، فالطرديّات ، قصائد موضوعها الصيد ، متوحّدة الموضوع ، عنيت بكلّ ما أحبّه النؤاسيّ :

---

٣١ـ الديوان جـ١ ص ٥٤٠

٣٢ـ الديوان جـ١ ص ٢١٥

٣٣ـ الديوان جـ١ ص ٥٠٠

من وسائل تلك الرياضة الأرستوقراطيّة ، وقد عُني بدراستها استاذنا المستشرق « شارل پلاّ » رئيس معهد الدراسات الاسلامية بجامعة باريس ، وحضّني على دراسة غزل النّؤاسيّ ، كما حض « المسعديّ »[٣٤] على دراسة الخمريات ، والزبيديّ[٣٥] على درس الزهديات ، توفية لاستكمال دراسة النؤاسيّ .

لعل المتنبي في قصيدته اللاميّة الطرديّة هذه قد تذكر أبا نؤاس في طرديّاته ، فجرى على موضوعها ، ووزنها الراجز ، وصورها المسترجعة ، ساعة أرسل « أبو علي الاوراجيّ » شفيعه لبدر بن عمار ، وأحد كبار العاملين في دولة ابن رائق حليف الأخاشدة على دمشق ، وكان قد أرسل كلبه على ظبي فَصَادَهُ ، فأنشده المتنبي لاميّته ومنها :

يكاد في الوثب من التّفتّل

يجمع بين متنه والكلكل[٣٦]

ذي ذنبٍ أجرد غير أعزل

يخطّ في الأرض حساب الجُمَّل

كأنه من جسمه بمعزل

لو كان يبلي السوطَ تحريك بَلي

نيلُ المنى ، وحكمُ نفس المرسل

وعُقلة الظّبي وحتف التّتفل

كأنه من علمه بالمقتل

علّم بقراط فصادَ الأكحل

* * *

---

٣٤ـ المسعدي محمود وزير معارف تونس

٣٥ـ الزبيدي الدكتور علي استاذ في جامعة بغداد

٣٦ـ الديوان جـ٢ ص ١٤٥

هذا الكلب يكاد في توثّبه الخاطف السريع يوحّد ما بين ظهره وصدره ، وذنبه الأجرد دائم التحرّك ، والذبذبة في الارض كأنه قلم يكتب به حساب الكاتب ( الجمّل ) وكأنه يكاد يسبق جسمه لسرعته فينفرد عنه ، ولو أن السوط يبلى لبلي ذنبه من كثرة الحركة ، وهو يحقق أمنية صاحبه ، وينفّذ حكمه في كل طريدة ، فكأنه قيد للظبي ، ومصرع للثعلب .

**(ز) وصف بحيرة**

أدب البحر قليل في الادب العربيّ ، خلا ومضات جاءت في شعر طرفة[٣٧]،وبعض المعجبين بماء أحواض مأرب ، والصورة الرائعة التي وصف القرآن بها ظلمة البحر ، ونادرة ابن الرومي البائيّة التي مدح بها أحمد بن ثوابة ، ثم سندباديات ألف ليلة وليلة .

غير أنّ المتنبي قلّما يحفل بمظاهر الطّبيعة وسحر جمالها ، فوقته كلّه لطلب المجد ، وتصوير فعل الرماح والسيوف ، والخيل والنجيع والدماء ، وما شعب بوّان الا ضرورة قادته اليها الرحلة ليوطّئ بوصفه لمدح عضد الدولة ، فهل يا ترى وصف المتنبي البحيرة حقّاً ؟ وكيف تراءت له ؟

لولاك لم أترك البحيرة والغورُ
دفيء وماؤها شبم[٣٨]
والموج مثل الفحول مزبدّةً
تهدر فيها وما بها قَطَمُ[٣٩]

---

٣٧ـ وامرىء القيس في مطلع معلقته

٣٨ـ شبم : بارد . الديوان جـ٢ ص ٣٣٦

٣٩ـ قطم : شهوة

والطير فوق الحباب تحسبها
فرسان بلق تخونها اللجم[40]

كأنها والرياح تضربها
جيشا وغى هازم ومنهزم

كأنها في نهارها قمر
حفّ به من جنانها ظُلَمُ

ناعمة الجسم لا عظام لها
لها بنات ومالها رحمُ

يبقر عنهن بطنها أبداً
ولا تشكّى ولا يسيل دمُ

تغنت الطير في جوانبها
وجادت الروض حولها الديمُ

فهي كماوية مطوّقة
جُرّد عنها غشاؤها الأدم[41]

* * *

**(ح) شعب بوان**

ترك المتنبي « إبن العميد » في أرجان بفارس ، وقصد عضد الدولة في شيراز ، فمر بهذه البقعة التي لا يماثلها جمالاً فى بلاد الشرق الا تلك الغابة التي تستقبل المسافر بين اللاذقية وانطاكية ، فتوسل المتنبي بسحر الطبيعة آنذاك ، ليعقد تفضيلا متكلفاً لعضد الدولة ، وولديه أبي الفوارس وأبي دلفه ، على سائر العباد والبلاد ، فهل مرّ المتنبي حقاً « ببوّان » مرور المسّاح الجغرافيّ ، الذي لا تخاطبه جمالات

---

٤٠ــ بلق : جمع أبلق وهو ما لونه بياض على سواد .
٤١ــ ماوية : مرآة . الادم : الجلد .

الطبيعة بأكثر من أقيسة الحساب والهندسة ، كما قرر الدكتور طه حسين في كتابه القيّم « مع المتنبي » ؟ :

مغاني الشعب طيباً في المغاني
بمنزلة الربيع من الزمانِ[٤٢]
ملاعب جِنة لو سار فيها
سُليمانٌ لسار بترجمانِ
طبت فرساننا والخيل حتّى
خَشيت وإن كرمن من الحران
غدونا تنفض الاغصان فيها
على أعرافها مثل الجُمان
فسرت وقد حجبن الشمس عنّي
وجئن من الضياء بما كفاني
والقى الشرق منها في ثيابي
دنانيراً تفرّ من البنان
لها ثمر تشير اليك منه
بأشربة وقفن بلا أوان
وامواه تصلّ بها حصاها
صليل الحلْي في أيدي الغواني
اذا غنى الحمام الورق فيها
أجابته أغانيّ القيان

* * *

٤٢ـ الديوان جـ٢ ص ٤٨١

يقـول بشعـب بـوّانٍ حصانـي

أعـن هـذا يُسـار الى الطعـان ؟

أبـوكـم آدم سـنّ المعـاصـي

وعلمكـم مفـارقـة الجِنـانِ

فقلـت اذا رأيـت أبـا شـجاع

سـلوت عـن العبـاد وذا المكـان

نحمد الله العليّ الأعلى ، والاجلّ الاسنى ، الـذي صرف ذهـن شاعرنا وهو في حضن الطّبيعة مشغول بمباهجها الساحرة عن الضـرب ، والقتـل ، والضّبْحِ والصهيل ، والقرع والصليل ، فبحيرة طبرّية ، لم ير فيها غير الفحول ، والجيوش ، والفرسان ، فما باله هنا ينسى ، أو يتناسى ؟

لقد استطاب الشاعر جمال « بوّان » وعدّه في الامكنة ، كالربيـع من الزمـان ، ثم ألقـى عبء التفصيل ، والشـرح ، والوصـف ، علـى الجنّ كما فعـل النابغة ، والبحتري ، وابن الروميّ قبله ، بل كمـا فعل مؤسطرو اليونان في أولمبياتهم الخالدة .

تلك ارض الجن من جهة سحرها الغامض ، ولغة أهلها الغرباء ، فلـو سار فيهـا اسليمان الخَبير اللدْنيّ ، بكل لغات الارض ، مـن انسان ، وحيوان لاحتاج الى ترجمان نظراً الى بعد هؤلاء عن العربية . هذه البقاع الجميلة سحرت خيلنا الكريمة فشغلتها عن الجري حتى خشيـت مـن أن تَحْرُنَ وهي كريمـة أصيلة ليس ذلك من عادتها ، واشترك الفرسان مع الخيل في الإنشداه ، والتوقف أمام جمالات بوان .

من ملامحها الفاتنة أننا سرنا فيها غدوةً فكانت الاغصان تساقط على أعرافه خيلنا قطرات الندى ، تساقط حبيبات الفضة من كفّ صائغ ، وامتدت تلـك الغصون العاليـة بالخضرة والنضرة فوقنا فحجبت عنا الشمس إلاّ ما يكفي للرؤية من ضياء ، وكان الشرق وهو يترك الاشعة تنزلق على ثيابنا

من فروج الغصون كأنه يرمي بالدنانير الذهبية صوبنا فتتدحرج من بين أنامله • أما ثمرها فهو شراب صافٍ طهور في غشاء رقيق شفيفٍ كأنه عصير خالص وقف، من دون وعاء ، كذلك مياه « بوان » الرقراقة على حصبائه ، توسوس كالحليّ والاساور في ايدي الحسان الغانيات ؛ ولزيادة جمال تلك البقعة رقّت الحمائم على غصونها فغنّت واستجابت لها الحسان المغنيّات بين القصور ، والبيوت •

جمال رائع ، أنطق حصاني الذي أذهله الجمال الجليل وسألني : « كيف تسيرون الى الحرب وتتركون هذا الفردوس أيها البشر ؟ ثم يفطن حصاني المثقّف الأديب ، ويتذكر أن آدم أبا البشر ، غادر الجنّة حيث الحبّ ، والجمال ، والسّلام ، إلى حياة الأرض والكدح ، والخصام ، والتّعب ، فسنّ لكم سنة سيئة ما زلتم تسيرون عليها •

فبماذا أجابه الشاعر ، بعد صبر ، وصمت ، ورويّة ؟

قال له : أيها الحصان المسكين ، الذي أخذ ببعض ما هو جميل ، لو أنك مثلي تقصد ابا شجاع ، لسلوت عن عباد الله كلهم ، وعن فراديس الارض جميعها ، لان عضد الدولة ابا شجاع أجمل ، وأفضل ، وأحبّ من بوّان ، وسائر العباد •

**(٣) من صوره في الجزء الاول**

صفحة

وأسودُ مشفره نصفه
يقال له أنت بدر الدجى ٢٩

* * *

فلمّا أنخنا ركزنا الرماح
فوق مكارمنا والعلى ٣٨

وبتنا نقبّل أسيافنا
ونمسحها من دماء العدا

* * *

كأنها الشمس يُعيي كفّ قابضه
شعاعها ويراه الطرف مقتربا

* * *

قحٌ يكاد صهيل الخيل يقذفه
عن سرجه مرحاً بالغزو أو طربا ٨٧

وبسمن عن برد خشيت أذيبه
من حَرّ أنفاسي فكنت الذّائبا ٨٨

ملك سنان قناته وبنانه
يتباريان دماً وعرفاً ساكبا ٩٠

إن تلقه لم تلق لا قسطلاً
او جحفلا او طاعناً او ضاربا ٩١

او هاربا او طالباً او راغباً
أو راهبا او هالكا او نادبا

واذا نظرت الى الجبال رأيتها
فوق السهول عواسلاً وقواضبا

واذا نظرت الى السهول رأيتها
تحت الجبال فوارساً وجنائبا

* * *

كالبدر من حيث التفتّ رأيته
يهدي الى عينيك نوراً ثاقبا ٩٣

كالبحر يقذف للقريب جواهراً
جوداً ويبعث للبعيد سحائبا

الصفحة

الصفحة

**(٤) من صوره في الجزء الثـاني**

الصفحة

تحاسـدت البلــدان حتّــى لـو انّهـــا
نفـوس لسار الشـرق والغـرب نحـوكا ٧
وأصبـــح مصـر" لا تكـون أميـــره
ولـو أنـه ذو مقلــة وفــم بكـــى

وألبس مــن رضـاه فــي طريقــي
سـلاحا يـذعـر الابطـال شـاكـا ١٧

رمانـــي الـدهـــر بـالارزاء حتـــى
فـؤادي فـي غشـــاء مـــن نبـال ٢٢
فصــرت اذا اصـابتنـي ســـهام
تكسّــرت النصـال علـــى النصـــال

فـان تفـق الأنـام وانـــت منهـــم
فـإن المســك بعــض دم الغـــزال ٣٠

كــأن الجفـــون علـــى مقلتـــي
ثيـــاب شققـــن علـــى ثـاكـــل ٣١

علـــى الفـرات اعاصيـر وفـي حلـب
تـوحّش لملقّـــي النصـــر مقتبــل ٣٩
تتلـو أسـنته الكتـب التــي نفــذت
ويجعـل الخيـل ابـدالا" مــن الـرسل

* * *

مقيـــم مــن الهيجـاء فـي كـل منـزل
كأنـك مــن كلّ الصـوارم فـي أهــل ٤٥

الصفحة

الصفحة

قِف على الدمنتين بالدوّ[43] من ريّا
كخالٍ في وجنةٍ جنب خال ١٣٧

بطلول كأنهن نجوم
في عراص[44] كأنهنّ ليالي

ونؤيٍ[45] كأنهن عليهنّ
خدام[46] خرس بسوق خدال[47]

* * *

نفسه جيشه وتدبيره النّصر
وألحاظه الظّبى والعوالي ١٤١

كأنما قدّها اذا انفتلت
سكران من خمر طرفها ثمل ١٤٩

يجذبها تحت خصرها عجزٌ
كأنه من فراقها وجل ١٤٩

يمنعها أن يصيبها مطر
شدّة ما قد تضايق الأسل ١٥٣

* * *

لبسن الوشي لا متجمّلات
ولكن كي يصنّ به الجمالا ١٥٨

---

٤٣ــ الدور : الصحراء
٤٤ــ عراص : جنبات
٤٥ــ نؤي : جمع نؤي ، حفرة حول الخباء
٤٦ــ خدام : خلاخيل
٤٧ــ خدال : السمان

الصفحة

وضفّـرن الغـدائـر لا لحسـنٍ
ولكـن خفـن فـي الشّعـر الغلالا
* * *
بجسمي من برتـه فلو أحـارت
وشاحـي ثقّب لـؤلـؤةٍ لجـالا ١٥٨

ولـولا أنني مـن غيـر نـوم
لكنـت أظنّنـي منـي خيـالا ١٥٩

بـدت قمراً ومـالت خـوط[٤٨] بـانٍ
وفـاحـت عنبراً ورنـت غـزالا
* * *
رقـت مضاربـه فهـنّ كأنمـا
يبدين من عشق الرقـاب نحـولا ١٦٨

يطـأ الثرى مترفقـاً من تيهـه
فكـأنـه آسٍ يجـسّ عليـلا ١٦٩

للشمس فيـه وللـرياح وللسحـاب
وللبحـار وللأسـود شـمائـل ١٨٠

لـو كنتـم ممّـن يـدبـر أمـره
لما كنتم نسل الذي مـا لـه نسلُ ١٨٦

وليـس جميـلا عرضـه فيصـونـه
وليـس جميـلا ان يكـون جميـلا ١٨٧

ان كنـت تكبـر أن تختـال فـي بشـر
فـان قـدرك فـي الاقـدار يختـال ٢٠٣

---

٤٨ـ خوط : غصن .

الصفحة



---

٤٩ـ مذاكيه : خيله .

٥٠ـ تدأى : تختل .

الصفحة



* * *

وان كنت لا خيراً افدت فإنني
افدت بلحظي مشفريك الملاهيا

ومثلك يؤتى من بلاد بعيدة
ليضحك ربات الحداد البواكيا

* * *

أمضى ارادته ، فسوف له قد"
واستقرب الاقصى فثمّ له هنا ٤٤١

يجد الحديد على بضاضة جلده
ثوبا أخفّ من الحرير وألينا

مُسْتَنْبِطٌ" من علمه ما في غدٍ
فكأن ما سيكون فيه دوّنا

أرج الطّريق فما مررت بموضع
الا أقام به الشذا مستوطنا

* * *

فعجبت حتى ما عجبت من الظّبى
ورأيت حتى ما رأيت من السّنا

## المدمكـة

# عيوب ، مآخذ ، نشاز

## معمارية ، تناغم ، لغـة

(أ) اللفظة في شعر المتنبي ــ العبارة ــ القصيدة ــ المقطوعة .

القافية ــ الروي ــ الحروف ــ الأوزان ــ تقيـد المتنبـي بأوزان الخليل ــ موضوعات ، وفنون تقليدية ــ أين جدّد ــ تفرّد ؟

(ب) مقدار تأثره بأبي تمام ــ النؤاسي ــ مسلم بن الوليد ــ الحسين بن الضحّاك ــ الشعر الفروسي الجاهلي ــ المتنبي والحالـة الشعرية ــ مقدار التعبيـر .

(جـ) مع الصرفيّين ، النحاة ، البلاغيين . مـع الفقهـاء ، والمتكلمين ، والفلاسفة . هو والشعراء .

(د) شعره والمشتقات ، والافعال ــ التشبيـه والاستعارة ــ الصّـورة واللعبة الجماليـة .

(هـ) الطبيعة في شعره ــ المرأة ــ الخيل ــ السلاح ــ المعركة ــ

(و) شعر الصّبا ــ شعره في أرجان وشيراز .

* * *

### مراجع


١ ــ ابو الطيب ماله وما عليه للثعالبي .

٢ ــ مع المتنبي للدكتور طه حسيـن .

٣ ــ الوساطة بين المتنبي وخصومه للجرجاني .

٤ ــ دلائل الاعجــاز
٥ ــ اسرار البلاغة
لعبد القاهر الجرجاني .

٦ ــ الكشف عن مساوىء شعر المتنبي للصاحب بن عباد

٧ ــ ادب الطبيعة فى شعر المتنبي لأحمد زكــي ابو شــادي .

٨ ــ الفن والجمال للدكتور ماهر كامل .

٩ ــ مقدمة الالياذة لسليمان البستاني .

١٠ــ الرسالة الحاتمية للحاتمي ( في السرقات ، والساقط )

١١ــ حصاد الهشيم لابراهيم عبد القادر المازني .

١٢ــ مطالعات في الكتب والحيــاة لعباس محمود العقاد

١٣ــ ساعات بين الكتب لعباس محمود العقاد

١٤ــ وحي الرسالة لاحمد حسن الزيات

١٥ــ الابانة عن سرقات المتنبي لفظا ومعنى للعبيدى .

١٦ــ كتاب الصناعتين لابي هــلال العسكري .

## صحف

١ ــ المقتطف عدد ١٧ صفحة ٣٦١ مناقب المتنبي ومعايبه للسيّد البكري .
المقتطف عدد ٨٩ صفحة ٥١٢ السهولة في شعر المتنبي لوداد سكاكيني .

٢ ــ مجلة المجمع العلمي بدمشق عدد ١٤ صفحة ٤٠٦ سينيّات المتنبــي لمحمــد اسعاف النشاشيبي .

مجلة المجمع العلمي بدمشق عدد ١٤ صفحة ٢٩٤ المتنبي والنحاة لمحمد محيي الدين عبد الحميــد .

مجلة المجمع العلمي بدمشق عدد ١٥ صفحة ٣٧٧ لغة المتنبي لمحمد المبارك .

٣ ـ الكاتب المصري عدد ١ صفحة ١٦٣ التعقيد في شعر المتنبي لمحمد كامل حسين .

٤ ـ الحديث عدد ٩ صفحة ٥١٥ فن المتنبي للدكتور محمد حسين هيكل

٥ ـ مجلة الازهر عدد ٨ صفحة ٤٩٠ علم المتنبي باللغة والادب لمحمد محيي الدين عبد الحميد

٦ ـ المكشوف عدد ٧٢ صفحة ٨ المتنبي والشعر الصافي لفؤاد البستاني

٧ ـ عدد خاص من مجلة الحديث بمناسبة المهرجاني الالفي للمتنبي ـ منه :

ثقافة المتنبي العلمية ـ لسليم الجندي .

نزعة التجديد في شعر المتنبي ـ لنقولا فياض .

فليكن سؤال ، وتلك طريقة معلّم الحضارة القديم سقراط ، ونحن بعده ، بل البشرية كلّها تكاد تعيش على مائدة التعليم اليوناني واسئلته : « هل في شعر المتنبي عيوب ؟ ألا نخشى من أن ينفض تراب قبره اذا كان له قبر أو ترابه ويصيح في وجوهنا : ها قد أتيت من غربتي ، وجوابي على كل سؤال رُمح ، سيف ، سهم ، صواعق ، ألم يسجّل ميعادَ العرب والعجم مرعداً بقوله :

ميعاد كل رقيق الشفرتين غداً

ومن عصى من فلوك العرب والعجم[1] ؟

ألم يضع لنا الجواب على ما نحن فيه ساعة غنّى كافوراً عن دجل ومكر فَلَعْلَعَ بصوته قائلاً :

تجاوز قدر المدح حتى كأنه

بأحسن ما يثنى عليه يعاب[2] ؟

فمن الذي يجرؤ على التفكير في عيب واحد يسنده الى شعر المتنبي ؟ وما دام السؤال موعداً مع الجواب الذي لا يأتي،أو أن بعض الاسئلة أخفت فيها أجوبتها لذلك نوالي هزّ السلسلة :

— هل يقال للحسناء الفاتنة : « فمك أحلى من عينيك ، أو خدك أشهى من نهدك ؟ إذاً لاستخدمت ضدنا مخلفات أبي القاسم البغدادي ؟ وهل تسأل لماذا فعلتِ كذا ولم تفعلي سواه ؟ كل ما يصدر عن الجميل جميل ، حتى العبث اللاّمجدي .

— وماذا نقول للإسكندر ساعة ارتدّ عن صور ؟ وغدر بملك الهند فور ؟

---

١ — الديوان جـ٢ ص ٣١٨

٢ — الديوان جـ١ ص ١٣٦

أو أسرف وهو يصنع الجنس بالشركة ، أو تقول هنيبعل : لماذا لم تزحف الى قلب روما ؟ ولنابليون ، لماذا غامرت الى الروسيا ؟

— وماذا لو أن نيوتن اشتغل في حقل ولم يراقب سقوط التفاحة كالأبله ؟ ولو أنّ ماركوني ، وعلماء الذرة تلهّوْ بحكّ أنوفهم ولم يفجّروا المادة ، ويكشفوا مغالق اسرار الطبيعة ؟

* * *

عيب العبقري لصيق بعبقريته ، وهو من ملازماتها كالقشرة للثمرة ، والشوكة للزهرة ، وإنه لمن أشد الاعابيث إضحاكاً أن يولد شيء اسمه النقد الأدبي ، من الكلام الموهوب على ادّعاء تقديره ، ونصب ميزان له ، فما هذه الطفيلية السمجة ، وهل يحتاج الجماليّ في كلّ شيء وعلى الاخص التعبير الى من يرسم له الخطط ، أو من يضع له المقاييس ؟

صلاة الله ، ورحمته ، وبركاته على معلمنا الجاحظ ، وصديق حضارتنا جول لمتر ، وسيدة السيدات مدام دهستال ، اولئك الذين قرروا أن الادب الجميل لا يشرح ، بل يسمع .

وهذه ملايين الصفحات في نقد الموسيقى والرسم والنحت من يعرفها الا هَرِمو الذّوق والفكر ؟ إن وزنها بإمرار العيون ، والآذان . وسنحات البال المسافر في الجمال ، الى حيث لا مبالاة إلا سكراً بالجمال .

فيا سيدي « احمد بن الحسين الجعفي الكندي الكوفيّ » وأنا لم أقل سيدي الا للشيخ الجليل ، وسيدتي الا للخرعوبة الرعبوبة البهكنة ، وكم دفعت ثمن الشمخة ، والهزّة ، مع أرباب الصّنوج الصخابة ؟ وكم أردّد :

« تمنيت رأسين ، لا واحداً
اذا مست الارض هام الرجالِ
اطأطىء رأساً لمجد النبوغ
وأخفض رأساً لمجد الجمالِ »

ولماذا أطيل وأنا في مساق دراسة عن ابي الطيب ، لأناسٍ من معلمي الادب ومرشدي الجيل ؟

أنا لا اكتب الآن ، بل ابو الطيب هو الذي يكتب ، أليس هو القائل عن شعره وممدوحه :

« لست قائله وحدي » وأن ممدوحه يملي عليه ، ويشركه فيه ؟

عذري في إطالة المقدمة أنني أضحك ممن ينقد المتنبي ، فالمتنبي عبقري، وهو فوق النقد ، وهو مجسد آمال ، وخزّان مارد ، سكب في حروف لغتنا الوطن الاكبر بمالم يملأها سواه بالتفجر ، والشوارد ، كأنما كان يزرع الالفاظ في شعره مارداً ، فريدا ، رائداً ، جنّاً ، غداً ، سماءً ، وبعد كل سماء صورة عن انسان حمل في كل ريشة من جناحيه الهاً يلهو بأعاصير القدر ، ليصل الى مصدر المطلق .

ويا سيدي مرة أخرى ، أنا لست الصاحب بن عباد ، ولا صاحب الوساطة ، ولا عكبريّاً أو واحديّاً ، او تبريزيا ، او يازجيّاً وبرقوقيّاً ، أنا سادن هيكل ، ومحرّك مجمر ، وحسبي من الترتيل في جوانب قبتك السماء، أن اكون إحصائيّاً لبعض ما تركته من نثار معدنك الذي لا تزال النجوم تحلم ببعض بريقه ، لذلك دعني أعوّذ الجمال الجليل في شعرك المجد ، ببعض غبار الكلام :

* * *

**١ ـ تكرار المعاني :**

مدح بدر بن عمار ، وسيف الدولة ، والعجلي ، والاوراجي ، وكافوراً، وابن العميد ، والبويهيّ ، فكاد بمدحهم ، ومدح سواهم أن يرجّع صوراً بعينها ، فهل هذا الترجيع معيب ، ونحن نعرف أنّ « الحالة » الشعرية، والتعبير عنها لا يكون هو هو بذاته كل مرة ، وان البحر ، والليل ، والريح ، والشمس ، أشياء تكرر جميعها نغمة منذ الازل الى الابد واحدةً في الشكل ، فهل هي مملّة ؟ وهل هي ممّا يعاب ؟ ولماذا يرفّ البلبل ، وتهتزّ خضور الغصون ، وتوسوس دمالج السواقي وهي لا تنوّع

سمفونيتها ؟ وهل هي تكرّر برتابةٍ حقّاً ؟

ثم إن التكرار في شعر المعاصرين مما أصبح مذهبا ، فكيف نلوم ؟

٢ ـ التكلف :

من حملق في متحف « الأنقليد » لرودان ، وجد رسومه تقلّ عن منحوتاته،لما فيها من تكلفٍ لا يزرع شهباً في العين ، ولا يمنح ألواناً تشرقط، ولكنها تحمل على التوقف ، والتأمّل .

منه تكرار فعل الأمر في مثل قوله من مدحة في سيف الدولة جـ٢ ص ٧٣ والتي مطلعها :

أجاب دمعي وما الداعي سوى طلل

دعا فلبّاه قلب الركب والابل

فقال :

عشِ ابْقَ اسمُ سُدْ قُدْ جُدْ مُرِ انْهَ رِفِ اسْرِ نَلِ

غِظِ ارمِ صِبِ احْمِ ، اغزُ اسْبِ رُعْ زَعْ دِلِ اثْنِ ثَلِ

* * *

أو تكرار الفعل الماضي في مثل قوله من مدحة بعضد الدولة جـ٢ ص ٢٢٠ ومطلعها :

أثلثْ فإنّا أيّها الطّللُ

نبكي وتُرزم[٣] تحتنا الإبلُ

فقال عن قومه البويهيين

قدرُوا عفوا ، وعدوا وفوا ، سئلوا

أغنوا ، علَوا اعْلوا ، ولوا عدلوا

---

٣ ـ الارزام : جنين الابل

والمتنبي واحد من هؤلاء القلة الذين « قولبوا » التعبيـر عن اسـمى رعشات الحضارة في الدنيا ، أفـلا نسمح له عند غياب الحالة أن يستريح ليستعيد ؟ وهـل يعـاب البركان فـي « سترامبولي » او « ڤازوڤ » على انـه قذف مرةً فأوصـل الحمم الى « ناپولي » ومرةً الـى « كاپري » ثم فتر وسمح لنا بالمرور جنبه ، وفلذاته الجماحة تفقش في العيون والسمع أمامنـا على الشاطىء ؟

٣ ــ الاغـراق :

كما في وصفه ممدوحه بأنـه محض العلم ، ومحض القدرة ، وأنّ عبـداً اسود نصفه شفة قد تجاوز شأو المدح ، وأن المتنبي بـريء مـن الاسلام فيما لو وجد أو أنـه سيوجد مثل ممدوحه ، ومثل هذا كثير فـي شعر المتنبي ، فهل يلام السهم المبعـد على إبعاده ؟ والمسافر الفضائيّ على خـرق حزام الارض ، والسيل الجارفه ان يكـون حربا للمكان العالي كما يقول ابو تمام ؟ وما ذنب الشمس اذا عمّت وشملت ، ان لا تكون نجمـة تضيع فى فلكهـا ؟

٤ ــ التعميـة :

قرأت مختلف شروح الديوان المتنبويّ ، فرأيـت المفسّرين يتهربون من جلاء بعض أبياته ، وهم معذورون ، وربما قيّض لنا أن نسأل المتنبي ذاته عمـا يريد ؟ فلا يرد علينـا بغيـر القهقهة ، أو سـلّ السيف ، أو غمـز جـواده ليطير بـه عنـا .

بماذا أجاب «ڤاليري» مفسّر قصيدته البحريّة : (Ginetiere Marine)

قال : عندما بُحْتُ بهـا كنتَ انا والله ، وقد نسيت ، فاسألوه . »

والذنب ذنب الالفاظ التي لم تأت لتكسو موج الحالة ، وليسأل علم النفس عن هـذا فهل يقدر أن يجيـب ؟

وماذا يبقى من كـل فـنٍّ لو أنـه أتّضح ؟

قل للحلوة الساحرة إن جمالك مؤلف من لون زاهٍ ، وبياض نضـر ،

ودورتك الدموية ناشطة ، والتركيب الفسيلوجي لديك عامر ، فلن تجيبك باكثر من أن يحكم عليك ملك البلاد بالحبس عاماً أو عامين ، وأن يصلبك قبالتها لتتأمل الجمال ، ولا تهرف بما لا تعرف .

من التعمية قوله :

أثلث فإنا ايها الطلل

نبكي وترزم تحتنا الابلُ

وقد سبقت .

ومنها قوله :

أحاد أم سداس في أحاد

لُييلتنا المنوطة بالتنادي[4]

يحمل هذا الرمز بالعدد على أنّه اصطلاح باطني سرّي للقرامطة ، الذين أخذوا بعدديّات « فيثاعورث » و « جابر بن حيان » مثلما أولع بها ، وبالحروف أصحاب مذهب « السوريالية » المعاصرون ، وأن المتنبي قصد بها إلى الأبانة الجانبيّة عن مقاصده للقرامطة فحسب ، ومثل هذا اتّهم به المعري بعده ، ولو قرأ « البرقوقي » شارح ديوانه « الفصل الهام » في مقدمة «ابن خلدون» عن « علم اسرار الحروف » وطلاسم الاعداد المشرقيّة والمغربيّة ، ووقف على شبحيات ، وعدديات « اندره بروتون » معلم السورياليّة ، وهام في « المعري ذلك المجهول » كما هام صديقنا الشيخ العلايليّ ، لا نصرف عن التّشنيع على المتنبي ، وعرف أن لكل فنان حريّته في أن يعبّر بوعيٍ وبلا وعي ، عمّا هو مأخوذ بالبوح به .

٥ ـ مخالفة قوانين الصرف :

الصرفيون والنحاة ، والبلاغيون ، والنقاد ، يعيشون على هامش

---

٤ ـ الديوان جـ١ ص ٢٢٤

الأديب ، فهو الذي يخلق لهم القوانين ، فلتكن هذه المخالفات قوانين جديدة تضاف الى جراب المقعدين :

ولا يبرم الامر الذي هو حالل
ولا يحلل الامر الذي هو مبرم(٥)

يقرر الصرفيون أن لا يجوز حلّ ادغام المضاعف ، فكان عليه أن يقول حالّ بدلاً من حالل ، كذلك فالفعْل المضارع المرفوع لا يفك ادغامه الا اذا جزم ، فلا يقال : لا يحلل ، بل لم يحلل . اما قوله في مدحة ابي علي الاوراجيّ الكاتب الصوفيّ :

لو لم تكن من ذا الورى الّذْ منك هوْ
عقمت بمولد نسلها حواء(٦)

فهذا البيت الخاتم ، على ما فيه من الاغراق ، سكّن « هوْ » بدلا من هوَ محركة الواو ، وحذف ياء الذي ، وهذا لا يجوز ، لأنه يفسد الكون ، ولا تعود تطلع الشمس .

٦ ـ التقدير والتاخير :

قد يصل « شبيرد » أو « تيتوف » الى القمر ، قبل أن يهتدي طالب من جامعاتنا إلى رصف كلمات البيت التالي الذي شغل البلاغيين :

أنّى يكون أبا البرايا آدمٌ
وأبوك والثقلان أنت محمدُ(٧)

وفكّ طلاسمه ، وحلّ معادلته المدماكيّة الهندسيّة يجيء حسب التالي :

---

٥ ـ الديوان جـ٢ ص ٣٥٠

٦ ـ الديوان جـ١ ص ٢١

٧ ـ الديوان جـ١ ص ٢١٧

أنى يكون أبا البرايا[8] آدمٌ

وأبوك محمد ، وأنت الثقلان[9]

من مدحة قالها في « شجاع بن محمد الطائي المنبجي » مطلعها :

اليوم عهدكم فأين الموعد ؟

هيهات ليس ليوم عهدكم غدُ

ان التي سفكت دمي بجفونها

لم تدر أن دمي الذي تتقلدُ

فمضت وقد صبغ الحياء بياضها

لوني كما صبغ اللجينَ العسجدُ

فرأيت قرن الشمس في قمر الدجى

متأوّداً غصن به يتأوّدُ

عدوية بدوية من دونها

سلب النفوس ونار حرب توقدُ

* * *

يلام المتنبي على شيء واحد لقوله هذا البيت ، ولإلقائه ذلك السؤال ، هو أنه لم يسأل حواء ، وسأل عن آدم ، ولماذا لم يَحُلْ « شجاع بن محمد الطائي المنبجي » أحد المنسيين لولا هذا البيت المخلد ، دون خروج أبينا آدم ، وأمنا حواء من الجنة ، وإلصاق تهمة الابوة والامومة ، بهما ، ودمغنا نحن البشر بها ولم يجلس مكانهما « أبوه

---

٨ ـ الرايا : البشر

٩ ـ الثقلان : الانس والجن

محمد » على الأرائك في الجنة ، ويسرح ويمرح ابنه « شجاع » وهو الثقلان في هذه الارض ، فلا يكون أرسطو ،ولا اليونان ، ولا « كانت » وغوته في الالمان ، أو بودلير وبرغسون نيوتن ، فيمكّن لهؤلاء البشر من الاصطياف في الفضاء ، والتنقل على كواكبه ، والإشتاء في الارض ، والإرباع حيث شاءت مفاتن الخضرة والنضرة ؟

٧ ـ القوافي الخشنة :

للمتنبي قصائد قليلة احصيناها في الديوان ، رويّها الذال ، والزاي والضاد ، والشين ، وهذا لم يمل إلى تقفيته الشعراء ، سوى القلة منهم ، نظراً الى أن الشعر يقوم على أربعة ركائز : الفكرة ، العاطفة ، الخيال ، الموسيقى ، والرويّ الصعب ، الوحشيّ ، يقلّل من قدرة التعبير على الإبانة ، ومن هذا القبيل متابعة الالفاظ ذات الحروف الثقيلة التي ينفر منها علماء الفصاحة كما في قوله :

فقلقلت بالهمّ الذي قلقل الحشا

قلاقل عيسٍ كلّهنّ قلاقل،[١٠]

فنقول : لماذا وردت هذه الحروف : ض ، ذ ، ز ، ش في الابجديّة ؟ ساعة نعرف أن الصوت صورة الحادثة ، والحرف صورة الصوت المتطورة ، والكلمة مدينَةٌ الحرف التي تسْلك في مدماك التعبير ، « وأنّ المعاني لو تركت لذاتها لطلبت اليها الالفاظ التي تلائمها » كما يقول الجرجانيّ ، أو الرمزيّون ، ومنهم « ملارميه » نبيّ الإيقاع اللفظيّ ؟ ذلك الذي يحدد

---

١٠ـ الديوان جـ٢ ص ١٣٨

القلقلة : التحريك ، والترجرج .

القلاقل : جمع قلقل وهي الناقة الخفيفة لانها تهتز في مشيها وتسرع - والقلاقل الاخيرة في القافية هي الحركات التي تهزهز ، وترجرج .

المتنبي بهذا البيت مصور ، ولا أبرع من فنان يجيد تصوير الهم المضعضع ، المقلقل .

صياغة الشعر من الالفاظ لا من الافكار !!! وليكون القارىء على بيّنة ، فليعلم أن في الديوان واحدة بقافية الزاي مطلعهـا :

كفرندي فرند سيفي الجراز جـ١ ص ٢٧١

وواحدة شينيـّة ، مطلعها :

فبيتي من دمشق على فراشي جـ١ ص ٣٩١

واثنتين ضاديـّتين مطلعهما :

فعلت بنا فعـل السماء بأرضـه جـ١ ص ٤٠٠

و : « إذا اعتلّ سيف الدولة اعتلّت الارض» جـ١ ص ٣٩٩

ومفردة واحدة ذاليـّة مطلعهـا :

أمساور» أم قـرن شمس هـذا ؟ جـ١ ص ٣٠٣

قالها جميعها في المدح ، والذنب كل الذنب علـى الأبجدية أولاً ، والحالة ثانيا ، وعلى طابع الديوان وناشره ثالثاً ، وعلى الدارسين والمدارس رابعـاً ، وعلى هـذه الدنيا خامساً •

**٨ ــ جعل الكذب مدرسـة :**

وهذا قاله النقاد ــ والله العظيم ــ ولم يستحوا ــ ومن حقـّنا عليهم، وحقهم علينا أن تتصافى ولا تحـلّ بنا لعنة المتنبي المستعارة مـن لعنـة الفراعنة أو الاثـم الكنعانـي ، وخطيئـة أبينـا آدم المميتة التي لما نستطع نحـن البشـر أن نتحلّل منها ، او ينقذنا « شجاع بـن محمد الطائي » ( الثقـلان ) وخاقان البرّين والبحرين والدنيا والآخرة •

**الكذب :**

الكذب يا سادتي الأخلاقيين خبر ، يصحّ أن يتهم صاحبه بمخالفة الواقع ، ومقابلة الصدق الذي يطابـق الواقع ، وهنا نسـأل الاخلاقيين ــ مـع طول البال ــ : مـا هو الواقع ؟ وهل أنتم راضون عنـه ؟ وهل الاخلاق

حقيقة أم أنهـا اصطلاح وتعاقد ؟ وهل الحضارة بنيت من الواقع والصدق فحسـب ؟

يقول البلاغيون والنحويون إن الإنشاء مقابـل الخبر لا يصـح أن يقال لقائله إنه صادق او كاذب فيـه ، لأنه صورة طلب ، وتوخ ، أو أنـه بلغـة العصر اليوم رؤيـة ورؤيا ، والفن جميعه قائـم على الرؤيا المنطلقة من الرؤية ، لذا لا يصلح إطلاق الكذب على الفن ، فكيف نحكـم والحالة هذه على احد النقاد ، او البلاغيين والنحويين ، والاخلاقيين ، ساعة يخلـو الى زوجته ، او حبيبته ، أو يخاطـب ابنه أو صديقـه قائـلاً :

يا جناحي روحـي ، يا مالكة لبّي ، يا قلبي ، يا أعزّ من نفسي ؟ !!!

وما قيمة الزهرة في الحديقة ، ازاء الزهرة بنـت النّوع في اللّوحة؟ والصوت ابن الطبيعة ، قبالة الصوت المنغوم فى المعزوفة او السمفونية ؟ بل ما قيمة حياة الناس كلهم في هـذه الدنيا إن لم يكـن سـراب العزاء في السماء او الجنة التي عرضها السماوات والارض ، تجري من تحتها الانهار وفيها خمر ، وعسـل ، ولبن ، وحور وولدان ، وفيها كما يقول حديـث الرسول العظيـم :

« شجرة سدرة المنتهى ، تلـك التـي يسـير الراكـب في ظـل غصنها مئة الف عام ولا ينتهي » أو شجرة « الزقوم » في القرآن الكريـم ، التي طلعها كأنـه رؤوس الشياطين ، وماذا يحصل لو أحرقنا رسالة الغفران للمعري ، والجحيم البياتريسي لدانتـي ، وملاحـم هومير ، وڤيرجيل ، وڤياسّا ، وڤالميكي ، والفردوسي ، وأساطير الشعوب ؟

بل لماذا لا نحرق بلاد اليونان لانها لم تعد فيها اسبارطة او أثينـا ، وبلاد العرب لانحسار بغداد عن وجودها الفاعـل في التاريخ كما كانت من قبل ؟ ولماذا نوالي طباعة ونشر كتـب التاريخ المكذوذبات ، ولا نسمع من كاهـن العقل هربرت « سپنسر » الذي دعا إلى محق سطور التاريخ لانه زور ، وضلال ؟ وكيف نطرب لقول ابن الفارض الصوفيّ :

عديني بوصلٍ ، وامطلي بنجازه

فمنك وإن عزّ الوفا يحسن المطلُ ؟

إنّ وعود العبقريات في الدين ، والفن ، والنظم ، أحلى واجمل من حسابيّات الواقعيين الجافة القوقعيّة . الصدق في الاخلاق أقل من الكذب في الفن ، وهل سرابيّات الحياة سوى خدعة جميلة لتنساب الحياة في دروب العطش ، والتّعب ، والحرمان الى غايتها ؟

رحم الله المتنبي ، ورحمنا معه ، ونفعنا ببركة شعره الذي نسكن فيه العزّ ، والروعة ، والجلال ، ويعوّضنا عن عصرنا المتهم المرفوض ما عوّض به المتنبي خيله التي رآها :

وخيلاً تغتذي ريح الموامي

ويكفيها من الماء السّراب[11]

* * *

على أنني مضطر الى الالتفات نحو كلام مأثور عن النبي العظيم بصدد الشعر :

(( اعذبه اكذبه ))

فقد فهم علماء المسلمين ، والنقاد كلمة أكذبه كما سجلها القاموس ، وعناها الاخلاقيون ، والمتدينون ، غافلين عن ان الرسول الكريم تمثّل بشعر عبد الله بن رواحة في غزوة الخندق ، وارتجل رجزاً ذاخراً حلواً :

**انا النبي لا كذب**

**انا ابن عبد المطلب**

في احدى غزواته ، فالأكذب لذلك هو الخيالي ، المتلائم مع كل شعر

---

١٢ــ الديوان جـ١ ص ٦٠

في كلام البشر ، وبذا أرسّخ في ذهن القاريء ما قاله ، ڤاليري ، وفلوبير ، وڤان چوخ حول السراب الكاذب وما قاله مالارميه وبودلير من أن الشعر اكثر الامور حقيقة(١٢)

- قال المصوّر ديلاكروا : « إن الشيء الوحيد الذي أعتبره بالنسبة لي اكثر حقيقة هو هذا السّراب الذي ابتدعه في لوحاتي المصوّره، أمّا الباقي فما هو الا بمثابة رمال تتحرّك • »

- ويرسم الفنان ڤان چوخ ما يلي : « إن رغبتي الكبرى في أن اصنع هذه الاخطاء ، وتلك التغيرات والتعديلات في الطبيعة بحيث تخرج منها — أي نعم — أكاذيب إن شئت ، لكنها اكاذيب اكثر حقيقية من الحقيقة المضبوطة • »(١٣)

* * *

بودلير ، الشاعر الرجيم استاذ مدرسة الرمزيين التي وصلت الى قمتها بڤاليري ، ومالارميه ، حيث قيل عنه : « بودلير ذلك الاله ••• » يؤكد علميّة الشعر ، والعرب قديما قالوا : « الشعر علم العرب • »

ڤان چوخ ، وديلاكروا ، مصوّران انطباعيّان في الصف الاول من مبدعي اللوحات في الزمان ، يسميان السراب الخيالي كذباً ، والكذب هنا يخرج من معناه المعجمي الى مؤدّاه الفني ، فاذا به اثمن من الصدق الواقعيّ بكثير ، ومبالغات المتنبي سرابيات أروع من حكم العقلانيين الكبار •

* * *

---

١٢— علم الجمال ص ٤٠٥ لجان برتليمي

١٣— علم الجمال ص ٤٠٥ لجان برتليمي

معمارية ، تناغم ، لغة •

سبق المتنبي بمعماريّين جماليين على مدّ التاريخ الأدبيّ عند العرب• فالنّابغة الذّبيانيّ شيخ المحكّكين ، أو عبيد الشعر ، أو أصحاب الحوليّات، سنّ القواعد بشيء من المنطق ، والتّجاوب الرّصفي ، مجلّياً على « أوس بن حجر » ، وتلاميذ مدرسته •

على أنّ القرآن الكريم وضع الخطوط المشرقة للبيان العربيّ ، وجاء بعده الفرزدق يقبس ، ويشيّد ويملي ، خلا أنّ « بشّار بن برد بن يرجوخ العقيليّ ولاءً ، بدا كشجرة فارعة بين أصحاب البناء الشعري للقصيدة العربيّة حتى مطالّ العصر العباسيّ •

لامرية في أن أبا نؤاس والذين داروا في فلكه من مسلم بن الوليد ، فالحسين بن الضحّاك ، ومعظم أفراد « عصابة السوء » كانوا معلمي هندسة بناء القصيدة ، استفادوا من التّراث ، وحضارة العصر ، الى أن أطلّ سيدهم أبو تمّام ، عند عصر لمع فيه نجم الجاحظ والتّوحيديّ في النثر ، ليختم صناعتهم جميعاً ابن العميد ، ولتأخذ الشكليّة المقاميّة بعد ذلك طريقها ، متوقفّة عند المعرّي في غفرانه ، وسقط زنده ولزوميّاته ، متجاوزةً زخرفيّات ابن المعتزّ ، وبديعيّي عصره •

المتنبي موطّئ للمعريّ ، لم يلتفت الى كل من عرفه بلاط سيف الدولة من التّصنيعيّين ، الناسجين على منوال ابن المعتز السابق مثل الثالوث : كشاجم ، والسّريّ الرفّاء ، والصّنوبريّ ، فخَيلُ هؤلاء لا تلحق بغبار حصان المتنبي القحّام •

المتنبي ورث تركةً هائلة من الحصيل الخزين ، وهو قد وعى شؤون الثقافة في عصره من لغويّة ، وبلاغيّة ، ونقديّة ، وفلسفية ، وعلميّة ، ولاهوتيّة ، فكيف عبّر عن ذاته وشؤون عصره والكون ؟

**اللفظة :**

المفردة في شعر أبي الطيّب مختارة ، قصدها بالذّات ورضي عنها، وترك للتاريخ المجال الرحب للحكم عليها ، وربّما راق لبعض الأدباء أن يصرفنا عن الوقوف عند المفردة اللّغوية ، التي هي حجر المدماك ، رغبة منه في حملنا على الإطلالة من على مشارف الاثر كلّه ، ونحن الذين وعينا قانون الفصاحة عند البلاغيّين وهو يدور حول اللفظة المفردة ، حروفها ، وصرفها ، وموسيقاها ، ومأنوسها ، وملاءمتها ، مثلما يدور حول التركيب في خطّه البلاغيّ .

لم تعد المفردة حروفاً ترمز الى حوادث ، اجتمعت لتعيين حالة ، ولا هي نتيجة أصوات تألفت في نطاق ، بل إنّ هذه المفردة أصبحت اليوم عالماً شفيفاً مِنْ عَوالم ، واطياف ، واشباح ، ورؤيات ورؤيويّات .

لقد سبقنا علماء التجّويد المسلمون الى تبيان وزنة الحروف ، بأجسادها ومخارجها .

واهتمّ اهتمامنا علماء فقه اللّغة ، وزاد علينا الرمزيّون بجعل المفردة مادة الشعر الاصيلة ، وقماقمه السحريّة ، وأربى عليهم السورياليّون بتجاوز كلّ مألوف .

فكلمة نجوم الى جانب أختها آجرّ ، مسلوكتين في هذا البيت من مدحة في كافور الذي شيّد دارته :

مستقلٌّ لك الديار ولو كا
ن نجوماً آجُرُّ هذا البناء(1)

ممّا تضعنا في جو الغرابة ، والمفاجأة ، تلك التي رسم لنا خطوطها النقّاد المعاصرون .

إن لفظة نجوم صالحة للشعر اكثر من كلمة آجرّ ، على الرغم من أنّ

---

1 ـ الديوان جـ 1 ص21

الناقد الحديث يجد كلّ الكلمات صالحة للشعر ، بيد أنّ اقترانها بين لبنات هذا البيت جعلها رائعة .

ولفظة « التّوى »[٢] فصيحة ، وموسيقيّة ، ولكنّها غير مألوفة ، فأرضخها المتنبي للاستعمال وأحياها فجاءت حلوةً معبّرة :

ومن يك قلب كقلبي له

يشقّ الى العزّ قلب التّوى[٣]

وأما كلمات : الخويدم ، مشفره ، الكركدن[٤] فهي معبّرة عن احتقار الشاعر لمهجوّه ، وسخريته منه ، وتصويره أشكالاً مسخيّة ، عن حقدٍ وكراهية .

**واما قوله عن الخيل :**

وخيلا تغتذي ريح الموامي

ويكفيها من الماء السراب[٥]

فالتوقف عند كلمتي الموامي والسراب ، ممّا يملأ آفاق البيت بالصور ، والاطياف التي تتجاوز مدلول اللفظتين المباشر .

لقد كان في مكنة المتنبي العالم اللغويّ ، وشاغل بال الصرفيّين والنحاة ، أن يضع كلمة الفيافي موضع الموامي ، ولكن الشاعر الخبير بمعاني الحروف ، وأسرار الالفاظ يدرك ما لتتابع الميمين بينهما حرف صوتيّ من الدلالة ، فالميم حرف إطباق ، وشدّة ، وتملّك . والحرف الصّوتيّ للمدى . الى جانب ذلك ما للميم من موسيقيةٍ خاصّة ،

---

٢ ـ التوى : الهلاك

٣ ـ الديوان جـ١ ص ٢٨

٤ ـ الديوان جـ٢٨ + ٢٩

٥ ـ الديوان جـ١ ص ٦٠

وتكرارها في المفرد موماة ، والجمع موامي ، تكرار لمعناها ورمزها ، مضافاً اليها الريـح التي تبعث الحياة ، والحركة ، زيادة على ما في كلمة موامـي ونداءاتهـا .

وتارة يستخدم المتنبي ألفاظا أعجميّة ، يرضخها للاسلوب العربيّ ، وهذا مباح متاح في مثل قوله :

بيـاض وجـه يريـك الشمس حالكـةً

ودرُّ لفـظٍ يريـك الـدرّ مخْشلبا[٦]

فكلمة مخشلب ساميّة نبطيّة معناها نوع من الخرز الأبيض ، ومن ذلك استعمال لفظة « الجرشّى » مكان لفظة النفس ، لأن معاصريه كانـوا يطربون لمثل هذه الغـرائب « كريم الجرشّى شـريفه النسـب[٦أ] . » ولنتوقف قليلاً عند هـذه الصفة المشبهة قـحّ ، في البيت التالي :

قـحٌ يكـاد صهيـل الخيـل يقذفـه

عـن سرجـه مرحـاً بالغـزو أو طربا[٧]

فلو وضعت مكانها أيّة لفظة أخرى ما كانـت لتؤدي هذه الصورة التي هـي الأصالة والخلوص ، ولها من الايحاء الصوتيّ ما لا يعطيـه سواها في هـذا الموضـع .

وإليـك لفظـة الخنزوانة في بيته التالي :

شـديـد الخنزوانـة لا يبالـي

أصـابَ إذا تنمّـر أم أصيبـا[٨]

فالخُنزوانة حشرة مولعة بدخول أنف البعيـر فيشمخ لها تقزّزاً ، أو

---

٦ ــ الديوان جـ١ ص ٨٣
٦أ ــ الديوان جـ١ ص ٧١
٧ ــ الديوان جـ١ ص ٨٧
٨ ــ الديوان جـ١ ص ٩٩

نفـرة ، ثم نقلت للدلالة على الكبرياء ، وهي وحدها بحروفها ، وعددها ، ذات دلالة كافية على مقصد الشاعر ، خاصة انها تبدأ بحرفي الخاء ، والنون ، وكلاهما شديد الصلة بالأنف ، والخيشوم ، ناهيك بما في الزّاي من حركة حادّة ، وفي الحرف الصوتي من تمـادٍ ، وامتداد .

من هذا القبيل الألفاظ التّالية من الجزء الاول :

تطرية ( ١١٦ ) العراقيب ( ١١٧ ) تطلّس ( ١١٩ ) السّراحيب ( ١٢١ ) ذملان ( ١٣٣ ) الطرطبّة ( ١٤١ ) سراويلاتها ( ١٥٥ ) سويداواتها ( ١٥٧ ) المتسخرات ( ١٨٣ ) .

وفي الجزء الثاني الفاظ طماعية ( ٣٠ ) تقلقل ( ٣٨ ) خيـرة ( ٤١ ) حلواء البنين ( ٤٩ ) هـُجـول ( ٨٤ ) ضـِبـْني ( ٩٣ ) يتفارَسْن ( ١١١ ) العـُطبول ( ١١٤ ) تغَشْمرت ( ١٢٥ ) للدياميم ( ١٣٩ ) الكيذبان ( ١٩٢ ) تشجـره ( ١٩٣ ) الفقاهـة ( ١٩٤ ) النـال ( ٢٠٢ ) فتحلولـي ( ٢٠٧ ) فتَيْشلـة ( ٣٨٤ ) يلمعيّات ( ٤٦٤ ) .

فى ديوانه مفردات كثيرة سوى ما ذكرت ، توخّيت هنا أن اختار تلك التـي تصوّر حالـة ، وتوحـي بكيانها ، بجسدها ، جـوّاً خاصّاً فـي التّعبير ، كمـا توحـي الموجة العارمة بأشياء البحر ، والذروة بالسفوح ، والشجرة الفارعة تضفي أفياءها على ما حولها ، وقصدي من ذلك أن هذه الكلمات التي لـم تؤْلَف ، تشير إلك إحساس الشاعر بما جال في خاطره ، مقروناً بمماثله في الطبيعة ، مرسوماً بحروف لها شبه ما تصوّره .

ثمّ ألا نشعر بـأن لفظـة « تقلقل » تعكس لنـا حالـة التّضعضع ، والاضطراب ، وان كلمة « حلواء » نحس بهـا حلاوة الحسن ، والطعـم ؟ وأن « الكيذبان » وحدها بيت من الشعر قيـل في رجـل خفيف الظـلّ ، دعابيّ ، وان الشاعر لم يبلـغ بـه درجة التّحقير ، أو الكرم ، وأن حروف الكلمة صدى لما قام في نفس الشاعر ؟

ثم تأمّل لفظة « ديامِيم » التـي هي المفازة في الفلاة ، تخلـو مـن

الماء ، وتذكّر لفظةً تقاربها « دوّيّة » وتعرّف الى ما يُوحيه مقطع « ميم » من الشدّة ، والاتّساع ، ولا تبعد عن لفظة « تغشمرت » في قوله :

أنكحت صمّ حصاها خفّ يعملةٍ

تغشمرت بي اليك السّهل والجبلا

وما في كلمة أنكحت من الولوج ، والالتصاق ، وما في « يعملة » من دلالة لا تمنحها كلمة ناقة . أما فعل « تغشمرت » بما لديها من تناسب الغين والشين ، وما تصوّره من سيرٍ مضنٍ ، معتسفه ، على هبوط وصعود ، ومدى طويل ، فذلك ما يضمن للشاعر المكتشف مكانه الدقيق في الاختيار ، والرهيف في الشعور ، والإدراك الموفق للفوارق والمناسب بين الاشياء ، عن موهبةٍ وتجربة .

**الالفاظ الغريبة :**

يخطيء من ظنّ أن المتنبي كالفرزدق مولع بالغريب ، النّادر ، فليس هو الشّنفرى المصحر ، ولا المعريّ المتستّر ، بل شاعر يتناغم مع الناس ، سهل القوافي ، والسيّاق ، لكنّه أحيانا لا يجد كلمة مأنوسة تصلح مكان غريبة ، فيضعها في مدماك التعبير مطمئناً الى حسن موقعها ، ملتفتاً الى بعض اللغويين ، وفقهاء اللّغة الذين يهتمون لمثل غريب المتنبي ، واشتقاقه ، وهو لا يقلّ عنهم روايةً للغريب النادر ، ولا بصراً بمذاهب الكوفيين ، والبصريين ، والبغداديين ، ففي الجزء الاول من الديوان الفاظ :

التّوى ( ٢٨ ) الخنزوانة ( ٩٩ ) غلبّة ( ١٤١ )

وفي الجزء الثاني : اللّكاك ( ١٤ ) المداك ( ١٥ ) الكدريّ ( ٦٩ ) يلل ( ٢١٧ ) الخنانيص ( ٢٢٥ ) الدمال ( ٢٢٥ ) طاسمه ( ٢٣٣ ) جرشّى ، وسواها مما لا يستعاض عنها ببديل .

**الافعال :**

يمكننا أن ندرك مقدار تميّز المتنبي بمعرفة الدلالات التي تستفاد من

استخدام فعل أمر ، او مضارع ، او ماض ، من وقوفنا على غنى ثقافته اللّغويّة ، ولكنّ ذلك تعميم يقتضي تخصيصاً ، ثم تمثيلاً لتوفير الثّقة ، والاطمئنان ، فمن ذلك فعل ترعرع من الجزء الاول من ( ١١٨ ) على وزن تفعلل ، وما فيه من التدرج الزمني ، والتكامل الكياني ، ومثلها لفظة تطلّس ( ١١٩ ) ودلالتها على المحو بعد الظّهور ، محواً معطّلاً لا ماحقاً .

ومن الجزء الثاني قوله : « انسفكا » لتقرير المطاوعة في صيغة « انفعل » ليثبت مقدار ممدوحه من البطولة ، واستجابة النصر لإرادته :

رب نجيع بسيف الدولة انسفكا ( ٢ ) وتلاعبه المِفَنّ بفعلي انبعثن ، وابتعثن (٤) وما في الاولى من طواعية الظهور ، والثانية من التعدّي والفعل فانبعث لازم على وزن انفعل الذي هو للمطاوعة ، وابتعث على وزن افتعل المتعدّي ، وقوله :

« تبيّن من بكى ممّن تباكى ( ١٦ ) على وزني فعل وتفاعل ، ودلالتهما على فعل البكاء العفويّ وتصنّع البكاء الدّجليّ .

ثم اختياره للأفعال بصيغة الماضي والتي لها جسد خاصّ مشعّ موح ، كما في تتابع مواضيه :

لولا الجهالة ما دلفت الى

قوم غرقت وانما تَعَلّتُواْ (٢٢٠)

ومن أبرع صياغاته الماضي المزيد فعل « اثّار » من ثأر ، على وزن افتعل للدلالة على الاقتصاص لا الانتقام ( جـ٢ ص ٨٠ )

**المضارع :**

يقول النحاة إن الفعل المضارع يشبه اسم الفاعل لاحتوائه على الآنيّة ، والذاتيّة ، وانه وحده معرب خلافا للماضي والامر ، ما لم يعرض له محوّل الى البناء ، وانه يشير الى الراهن ما لم يلحق به جازم يرميه للماضي أو ناصب يلقيه للمستقبل ، ولا ادري لماذا أشارك المتنبي قوله :

وما طربي لمّا رأيتك بدعةً

لقد كنت أرجو ان اراك فأطربُ (١٣١)

وكيف تمثلت لي براعته في فعل أطرب بعد المصدر طربي ، وكيف تتمثّل حالة الحضور الشاهد ، والتفاعل المرّ فى قوله :

تطاردني عن كونه وأطاردُ (١٧٩)

وصيغة المجهول في المضارعين التاليين ، وقيمتها الوافرة بدلا من صيغة المعلوم :

وما الدهر أهلٌ أن تؤمّل عنده

حياة وأن يُشتاق فيه الى النسل

الى تتابع المضارعين في البيت التالي :

وقد عرفتك الليالي فما بالها

تراك تراها ولا تنزلُ (٦٣)

اما مضارع يتفارسن ( ١١١ ) فهو دليل البراعة في تصوير الافتراس المشارك ، المتفاعل فى الحاضر ، لكن المتنبي يبلغ عندي قمةً منيفة في تقدير الزّمنيّة عند قوله :

نحن أدرى وقد سألنا بنجدٍ

أقصير طريقنا أم يطولُ (١١٤)

« أقصير » استفهام بالصفة المشبهة التي تفيد التلازم ، وترسم مقدار قصر الطريق ، تمهيداً لفعل يطول بدلا من طويل التي هي صفة مشبهة ايضاً •

ففعل يطول يفيدنا تصوير حالة الشاعر ، وقلقه النفسي ، كما يصوّر كيف يطول الطريق بحركة زمنيّة ، بينما لا تفيد ذلك كلمة طويل •

والمضارع في قوله :

فمــا تقــف النّصــال علــى قــرار
كــأنّ الــريش يطلّــب النّصــالا (١٦٤)

أوردها على صيغة « يفعّل » وهي تفيد المضاعفة ، والتكرار ، والتّعدية، الى جانــب التمادي .

مثله فعــل « تشجره » ( ١٩٣ ) لمشابهة الرماح وتشابكها ، وتداخلها ، كغصون الشجر التي تتطاول وتتشابــك .

والاحلى من ذلك مضارع « يفقر » في قوله : الجود يفقر والاقــدام قتّــال ( ٢٠٤ ) وكون الجود يفقر الى فترة ، ولكنه لا يشكّل فقــراً نهائيّاً، فالجوّاد يتاح له أن يستعيــد ماله ، بينمــا الذي يُقتل في الاقدام لشجاعته يقتل مرة واحدة ، فتأمل مقدار عبقرية هذا البنّاء الماهر !!!

* * *

فعــل الامر :

قد يخرجُ فعل الأمر عن معنى الإستعلاء ، وطلب الفعل ، إلى التوسل ، والرجاء ،وذلك ما يقرّره البلاغيّون ،والنّحاة ، وربما كان المتنبي ممن سنوا طريقة بناء البيت من افعال الامر المتلاحقة مما رسم لاصحاب المقامات خطّاً أسرفوا في الاسترسال على دروبه :

أقِلْ ، أقطَع احملْ ، عِلّ ، سَلّ أعِــدْ
زدْ ،هِشّ ،بشّ ،تفضّلْ أدنِ سُرّ صِلِ (٧١)

أنشغل الناس ، الشّاهدون ، بِعَدّ الفاظه الأمريّة ، وكــان المتنبي مشغولاً بالضحك عليهم ، ولمّا رآهم مشدوهين ببراعته في رصف هــذه الأفعال زادهم فقــال :

عشِ ، ابقَ ،اسْمُ ، سُدْ ، قُدْ ،جُدْ ، مُرِ انْهَ ، رِفِ ، اسْرِ نَلْ
غِظِ ارْمِ ، صِبِ احْمِ ، اغْزُ اسْبِ رعْ ، زعْ دلِ اثْنِ نُلِ
(٧٣)

وهذا كما ترى نوع من التّلهي والعبث ، قصد به تحدّي سامعيه ، والهزء بهم ، كما أنه شفع البيت الاخير بالدّعاء للمدوح ، صديقه سيف الدولة :

وهذا دعاء لو سكتّ كفيته

لأنّيّ سألت الله فيك وقد فعلْ (٧٤)

* * *

**المشتقات :**

أبو الطيب من أبرع الشعراء ، بل الكتاب ، في توليد المعاني من المشتق ، والتصرف به تصرف الحاذق الصيرفه ، فالألفاظ تقتطع من مقلع اللغة ، وهذا الاقتطاع بذاته عنوان على القدرة الفنيّة للتشكيل ، والوضع ، والهندمة .

**المصادر :**

فمن المصادر المنمازة التي جاء بها على وزن افتعال من افتعل ، قوله : أمن ازديارك في الدجى الرقباء (جـ١ ص : ٩) حيث جوّز الصرفيون قلب ثاء الافتعال الى دال لقرب المخرج ، ولتناغمها مع ما يحيط بها من حروف .

استعمل المتنبي مصدر زورة[٩] من الاصل ذاته لمصدر ازديار في موضع آخر ، ولكنه اختار صيغة المزيد هنا للدلالة على ما في الازديار من استجابة وقبول ، ومثله مصدر ابتراك (جـ٢ ص ١٢ سطر ٤)

---

٩ ـ كم زورة لك في الاعراب خافية ... جـ١ ص ١١٥

أمّا مصدر تطرية جـ١ ص ١١٦ في بيته المشهور : « حسن الحضارة مجلوب بتطرية » فهو معين على تصوّر الممارسة ، والإمرار ، والتكرار ، فالحسناء التي تحاول تجميل وجهها بالادهان والاصباغ إنمّا تعيد ، وتبدأ مرات متعدّدة ، ولا أدلّ على ذلك من صيغة فعّل ، التي مصدرها التّفعيل والتّفعلة ، والزيادة فيها تفيد التّعدية والتّرداد .

ومن هذه الصيغة قال الحديث النبويّ : « العلم بالتعلّم ، والحلم بالتحلّم » ومنه كلمة التّربية ، والتعبئة ، والتدفئة .

**ومثله قوله في رثاء أم سيف الدولة :**

وما التّأنيث لاسم الشمس عيب

وما التذكير فخر للهلال[١٠]

فالناس يرددون اسمي الشمس والقمر مرات ومرات في العربيّة بتأنيث هذه وتذكير ذاك .

ومنه قوله عن كافور : مكتهلا قبل اكتهال أديبا قبل تأديب ( جـ١ ص ١١٨ ) لبيان أنّ العقل فيه لدنيّ لاكسبيّ بالتّجربة .

وعلى صيغة الفِعال من فَاعَلَ ، جاءت لفظة « غلابا » جـ٢ ص ١١٢ وافيةً وافرة في موقعها ، فالمفاعلة تقتضي المشاركة ومثلها الفعال .

وفي قصيدته الشابة المراهقة ( جـ٢ ص ٣١٣ ) جاء المصدران التعلل والإقلال ، على وزني التفعّل والإفعال من تفعّلَ وأفعل دالين على المعاودة والتعدية ، ففي الأولى والثانية حالة من يقنع ، ويزهد ، ويحمل نفسه على موقف المنحاز عن مزاحمة الحياة وصراعها ، أملاً في النجاة ، او طلباً للثواب ، لكن المتنبي لم يشأ أن يركب هذا المركب السهل ، فاختار ما يدل على المحاولة والاقتحام ، والكسب والإكثار .

---

١٠ـ الديوان جـ٢ ص ٢٨

اسم الفاعل وسواه :

يكاد يكون اسم الفاعل مساوياً للفعل المضارع في الدلالة عند الصرفيّين فهو الفعل والفاعل معاً : والمتنبي تتفاوت قصائده إكثاراً وإقلالا من استخدام اسم الفاعل ، لكنه في اللاّميّة التي مدح بها « أبا وائل العدوي» ( جـ٢ ص ٣٠ ) جاءت متخمة باسماء الفاعل . ولم تخرج في رويّها عن صيغته الثلاثية المجردة في عدد أبياتها البالغ اثنين وخمسين بيتاً بقوافه ذات الاثنين والخمسين رويّاً لاميّاً ، والتي مطلعها :

إلام طــواعيـــــة العـــــاذل
ولا رَأْيَ فــي الحــبّ للعـاقــل

وقريباً منها فى الاكثار من اسـم الفاعـل الثلاثي لامية أخرى قالها في سيف الدولة ( جـ٢ ص ٩٠ ) يتخللها اسم فاعل من المزيد .

وفي ( جـ٢ ص ٧٠ ) جاء اسـم الفاعـل من غير الثلاثي رائع التناغـم مع اسـم المفعـول في قوله :

يا غير منتحِلٍ فــي غيــر منتَحَلِ

كما جاء التناغم بديعـاً بين صيغة المبالغة وهي من اسم الفاعل وبيـن المصدر في قولـه :

ربّ أمر أتــاك لا تَحمــد الفعّال فيــه وتحمــد الافعالا (١١)

وقد يتابع اسم الفاعل من المزيد من نسق إيقاعيّ لطيف في مثل قوله :

بكلّ منصلــتٍ ، مــا زال منتظـري (١٢)

مثله فــي الشـطر الثــاني مــن مطلــع مدحتــه في الخراسانيّ : مدربٍ أو محارب لا ينام (١٣)

---

١١ـ الديوان جـ٢ ص ١٠٦
١٢ـ الديوان جـ٢ ص ٣١٥
١٣ـ الديوان جـ٢ ص ٣٥٦

وقد جاءت الصفة المشبهة باسم الفاعل وفيرة في قصيدته الحمدانيّة اللاّميّة التي مطلعها :

ليالـيّ بعد الظّاعنين شكول

طوال وليل العاشقين طويل[١٤]

ففيها ما يزيد على العشرين صفة مشبهة ، للدلالة على ملازمة الصفة للموصوف .

يقول الصرفيون إن الصفة المشبهة سميت بذلك لدلالة معناها على ما يدل عليه اسم الفاعل الا انها لا تصاغ الا من الفعل اللازم غالبا ، وتشتبه بأمثلة المبالغة اذا جاءت على فعيل ، وفعول .

ولاسم المفعول مواقع هامة في شعر أبي الطيّب ، دلالة على معماريّة استاذيّة في مثل قوله :

لقد تصبّرت حتى لات مصطبرٍ

فالآن أقحم حتى لات مقتَحمٍ[١٥]

لكن توافق المشتق صفة مشبهة ، واسم فاعل ، واسم مفعول ، ما جاء في تعبير شعريّ ايقاعيّاً حلوا كما جاء في قوله :

انت الحبيب ولكني أعوذ به

من أكون محبا غير محبوب[١٦]

ومثله افعل التفضيل في مطلعه :

أغالب فيك الشوق والشوق أغلبُ

واعجب من ذا الهجر والوصل أعجبُ[١٧]

---

١٤ـ الديوان جـ٢ ص٧٧
١٥ـ الديوان جـ٢ ص ٣١٥
١٦ـ الديوان جـ٢ ص١٢٣
١٧ـ الديوان جـ١ ص ١٢٣

**المبهمـات :**

المبهم من الاسماء نكرة كان او اسم استفهام ، او موصول ، او إشارة او شرط ، يقصد بـه أن تذهب النفس في فهمه مذاهبها ، وربما هدف بـه الـى التّعيين ، أو التّعظيم ، أو الغرابة ، أو التّحبّب او التّحقير :

**فالتعظيم في مثل قوله :**

واشجـع منـي كـلّ يـوم سلامتـي

وما ثبتت إلاّ وفـي نفسـها أمـرُ[18]

هذا الأمر فيـه غرابة ، وعجائب ، وهول ، ولندع المتنبي يحدّد هذا بقوله :

ولكنـه يـأتـي بكـلّ غـريبـةٍ

تـروقُ علـى استغرابهـا وتهـولُ[19]

**ومنه ببيته في الكافيـة العضدية :**

وأيّاً شئـت يـا طـرقـي فكـونـي

أذاةً او نجـاةً او هـلاكـا[20]

وقوله : فـلا هجمـت بهـا الا علـى ظفـر

ولا وصلت بهـا الا الـى أمـل[21]

**وللاستهانة بمثل قولـه :**

ولي مـن نداك ريفٌ ونيـلُ[22]

---

١٨ـ الديوان جـ١ ص ٣٥٢
١٩ـ الديوان جـ٢ ص ٨٠
٢٠ـ الديوان جـ٢ ص ١٧
٢١ـ الديوان جـ٢ ص ٤٣
٢٢ـ الديوان جـ٢ ص ١١٩

وقد يأتي بها بصيغة المؤنث السالم للتّقليل ، والاحتقار :

ففي الناس بوقات لها وطبول[٢٣]

ومن صياغاته الرائعة تتابع المبهمات « ما » في بيت واحد مثل قوله :

يقولون لي : ما أنت في كلّ بلدةٍ

وما تبتغي ؟ ما ابتغي جل أن يُسمى[٢٤]

ما الأولى استفهاميّة ، سئل بها وهي لغير العاقل عن الانسان العاقل تبياناً لخطره وإنزاله منزلة المارد او الدّاهية ، أو الشنآن . وما الثانية سئل بها عن مراده ، اما الثالثة فهي موصوليّة ، جوابيّة ، أشارت الى فخامة وضخامة أمره ، وأنه اعظم من أن يصل لسان الى تسميته .

وقد يتصرّف باسم الموصول « الّذي » تصرّفاً غير مألوفه ، ويفرضه على الصرفيّين الذين تجوّزوه ، ذلك في مثل قوله :

فوا أسفا أن لا أكبّ مقبلا

لرأسك والصدر ، اللّذيْ مُلئا حزما[٢٥]

فحذفَ نون المثنى ، او الملحق بالمثنى لمدمكة البيت ، ومنه تسكين الضمير « هو » وحذف ياء الذي في مثل قوله :

لو لم تكن من ذا الورى الّذْ منك هوْ

عقمت بمولد نسلها حوّاءُ[٢٦]

---

٢٣- الديوان جـ٢ ص ٨٧

٢٤- الديوان جـ٢ ص ٣٦٨

٢٥- الديوان جـ٢ ص ٣٦٧

٢٦- الديوان جـ١ ص ٢١

أمّا اسم الاشارة هذا فقد أورده للتفخيم في مثل قوله :

أمساور ام قرن شمس هذا ؟(٢٧)

او للتعادل كما في بيته التالـي :

وكـم دون الثّـويّة مـن حـزيـنٍ

يقـول لـه قدومـي ذا بذاكـا(٢٨)

مع العلم ان « ذاكا » تزيد على ذا بالبُعـد ، وكلاهما يشيران الـى حالتـي الشاعر من الحزن والفرح .

**الزخـارف :**

نقصد بالزّخارف ما تعمدّه الشاعر من عبث لفظيّ لتجميل الشّكل ، او ما جاء عفـواً ، او ما قصد إليـه من إيقـاع مثل تناسب العمـود مـع الزاوية ، والقنطرة ، والمدماك ، في العمارة ، وشبه تآلف الألوان ، والانغام في اللوحة أو المعزوفة .

والعربُ أولعوا منذ جاهليتهم بجمال التركيـب ، وزادهم القـرآن مدرسيّةً ، إلى أن طلع في آفاقهم أبو نؤاس الجمالي ، والحسين بن الضحاك المعماريّ ، ومسلم بن الوليد التّوقيعيّ ، متوّجِينَ بأبـي تمّام سـيد المدمكين في الشعر العباسيّ .

ولا ننس أن التّحكيك ، والتنقيح ، ومرور الزمن حوليّاً من أشـياء الجاهليّة ، التي تعدّ توطئة للزخرف لانها صنعة ، كما لا يجب أن ننسـى كيف زاد ابن المعتزّ زيادة مرموقةً في الزخرف الشعريّ ، وتبعه لذلـك كثيرون ، ولا نبرىء المتنبي ، ومن بعده المعريّ من الالتفات إليه ، ذاكرين أن النثر كان في عصر المتنبي اكثر إيغالا في الزخرف الذي نسّق أنماطه ابـن العميد ، المنطلق من استاذية مدرسةٍ قعّد أصولها الجاحظ والتوحيديّ ،

---

٢٧ــ الديوان جـ١ ص ٣٠٣

٢٨ــ الديوان جـ٢ ص ١٣

واسرفت اسرافها في المقامات ، وخرجت عن أصولها في نثر « القاضي الفاضل » ومن دار في فلكه •

بقي أن نلفت النظر الى موقفين هامين : الأول أثر المنطق اليوناني ، والموسيقى ، والغناء ، والملبس ، والمآكل ، وسائر أمور العيش في العرب العباسيين وأدبهم ، الثاني نسق الادب الفارسي ، والمدنيّة الفارسيّة ، وكل ذلك كان من الاسباب الكثيرة التي اشاعت فن الزخرف في التعبير العربي شعره ونثره ، كما اشاعته في سائر الفنون العربيّة الاخرى كالخط ، والنقش ، والتعمير ، والرقص ، والغناء ، والعزف ، والمقتنيات ، والبرك ، حتى والاحاديث ، ومختلف شؤون المعاطاة بين الناس ، لهندمة قضايا العيش والحياة ؟

بعد هذه التقدمة ، نجدنا ملزمين بتبيان نوع الزخرف ، أو ما شهر بأسم البديع في شعرنا العربي ، ومقدار حصيلة « أبي تمام » استاذ المتنبي منه ، ووزنات المتنبي من هذه الغلال •

- اخطر ما عرف به أبو تمام من أنواع الإبداع استعاراته التّبعيّة ، والأصليّه اللاّمحة ، التي تبعد الخاطرة عن نسق التشبيه المألوف •
- المقابلات المتوفّرة في الطباق والمقابلة •
- الجدلية ، وقضايا المنطق والبرهان •
- **الجناس بأنواعه** •
- اختيار الفاظ بعينها ، وتراكيب بخصوصها •
- التلاعب البارع بالجسور والمواصل بين الالفاظ ، كاسماء الاستفهام ، والموصول ، والشرط ، والنكرات ، والاشارة •

* * *

كل هذا مارسه المتنبي واوغل فيه ، خاصّة الطباق والجناس ، وزاد بالاكثار من التجاوز ، والتّجوز ، واحيانا يعمد الى التعمية عمداً إن من

جهة النحو ، أو الصرف ، أو البلاغة او سواه .

بقي الوزن الشعري ، وهو عنـدي من صميم الزخرف والإيقاع ، ولا يمحى من سمع البال ما أنشده عضد الدولة فى أخريات أيامه ، وبعد انتصار عضد الدولة على « وهشوذان » :

أزائر يا خيـال أم عائـد(٢٩)

لا استطيع أن اتصور المتنبي عند تذكر هذه القصيدة ، ووزنها ورويّها، الا انني أمام مزركش طيلسان ، أو ناقش واجهة لقصر .

لاحظ معي ما في هذا البيت من السهولة ، والتـوقيع ، والجنـاس السمح اللطيف :

لا تعـذل المشـتاق فـي اشـواقـه

حتـى يكـون حشـاك فـي احشائه(٣٠)

والى هـذه التّورية في بيته التالي :

مثلـت عَيْنَكِ فـي حشـاي جراحـةً

فتشابهـا كلتاهمـا نجـلاء(٣١)

والمقابلات الطباقية في مثل قوله :

اذا استقبلـت نفس الكريـم مصابهـا

بخبـثٍ ، ثنـت فاستدبرتـه بطيـب(٣٢)

* * *

٢٩ـ الديوان جـ١ ص ٢٩٤

٣٠ـ الديوان جـ١ ص٥

٣١ـ الديوان جـ١ ص ١٠

٣٢ـ الديوان جـ١ ص ٣٩

وحب الجبان النفس اورده التّقى

وحب الشجاع النفس أورده الحربا[٣٣]

* * *

فمسّاهم وبسطهم حرير

وصبّحهم وبسطهم تراب[٣٤]

أزورهم وسواد الليل يشفع لي

وانثني وبياض الصبح يغري بي[٣٥]

* * *

وهذا الترصيع الراقص ، والترصيع في الشعْر ، كالسجع في النثر ، مع المطابقات الموطئة :

ناءيته فدنا ، أدنيته فنأى

جمّشته فنبا ، قبلته فأبى[٣٦]

فنحن في جذل والروم في وجلٍ

والبرّ في شغل ، والبحر في خجل[٣٧]

الى التقطيع الموسق :

جاءت بأشجع من يسمى ، وأسمح من

أعطى ، وأبلغ من أملى ومن كتبا[٣٨]

---

٣٣ـ الديوان جـ١ ص ٤٦
٣٤ـ الديوان جـ١ ص ٦١
٣٥ـ الديوان جـ١ ص ١١٥
٣٦ـ الديوان جـ١ ص ٨٠
٣٧ـ الديوان جـ١ ص ٦٧
٣٨ـ الديوان جـ١ ص ٨٢

**ومثلـه :**

فالمـوت اعذر لـي ، والصبر أجمل بـي

والبـر اوسـع والدنيـا لمـن غلبـا[٣٩]

* * *

تفـك العنـاة ، وتغنـي العفـاة

وتغفـر للمـذنـب الجاهـل[٤٠]

* * *

ويميـت قبـل قتالـه ، ويبـش قبـل

نـواله ، وينيـل قبـل سؤالـه[٤١]

**والجناس في قولـه :**

وعزمـة بعثتهـا همـة زحـل

مـن تحتهـا بمكان التـرب من زحل[٤٢]

* * *

مطاعـة اللحـظ في الالحـاظ مالكـة

لمقلتيهـا عظيـم الملـك فـي المقل[٤٣]

* * *

---

٣٩ـ الديوان جـ١ ص ٨٧

٤٠ـ الديوان جـ٢ ص ٣٧

٤١ـ الديوان جـ٢ ص ٥٤

٤٢ـ الديوان جـ٢ ص ٣٨

٤٣ـ الديوان جـ٢ ص ٦٥

وقد اراني الشباب الروح في بدني

وقد أراني المشيبُ الروح فى بدلي(٤٤)

**وقد يستخدم النحو لغرض بياني ، فلسفي في مثل قوله :**

اذا كان ما تنويه فعلاً مضارعاً

مضى قبل أن تُلقى عليه الجوازمُ(٤٥)

معنى ذلك أنّ الفعل المضارع يدلّ على الحاضر ، والمستقبل ، غير أنّ اقترانه بلم الجازمة يعيّنه للماضي تحويلاً ، واقترانه بلن النّاصبة يثبّته في المستقبل .

أو يتلاعب بالوصف تلاعباً بارعاً بعيد المرمى في مثل بيته التالي :

وليس جميلاً عرضه فيصونه

وليس جميلاً أن يكون جميلا(٤٦)

* * *

**مثله قوله :**

أُسْدٌ فرائسها الاسود يقودها

أسدٌ تصير له الاسود ثعالبا(٤٧)

**من كناياته**

لما رأت وجهه خيولهم

أقسم بالله ما رأت كفله(٤٨)

---

٤٤ــ الديوان جـ٢ ص ٦٦

٤٥ــ الديوان جـ٢ ص ٢٧١

٤٦ــ الديوان جـ٢ ص ١٨٧

٤٧ــ الديوان جـ١ ص ٩٢

٤٨ــ الديوان جـ٢ ص ١٩٣

بليت بلى الاطلال إن لم أقف بها

وقوف شحيح ضاع في التّرب خاتمه[٤٩]

* * *

سحاب من العقبان يزحف تحتها

سحاب اذا استسقت سقتها صوارمه[٥٠]

* * *

بها عسكرا خيل وطير اذا رمى

بها عسكراً لم يبق الا جماجمه[٥١]

* * *

قد زرته وسيوف الهند مغمدة

وقد نظرت اليه والسيوف دم[٥٢]

* * *

تمر بك الابطال كلمى هزيمة

ووجهك وضاح وثغرك باسم[٥٣]

* * *

---

٤٩ـ الديوان جـ٢ ص ٢٣٤.

٥٠ـ الديوان جـ٢ ص ٢٤١

٥١ـ الديوان جـ٢ ص٢٤٠

٥٢ـ الديوان جـ٢ ص ٢٥٩

٥٣ـ الديوان جـ٢ ص ٢٧٤

يستخشن الخزّ حين يلمسه

وكان يُبرى بظفره القلم[٥٤]

* * *

وكيف لا يُحسد امرؤٌ علمٌ

له على كل هامة قدمُ[٥٥]

* * *

**ومن التفاتاته المحترسة قوله :**

فان تفق الانام وانت منهم

فانّ المسك بعض دم الغزال[٥٦]

**يذكرنا بقول ابي تمام**

لا تنكري عطل الكريم من الغنى

فالسيل حرب للمكان العالي

وهذه الالتفاتات البديعة المحترسة ، أكثر من الحديث عنها البلاغيون ، وما اكثرها في شعر ابن اوس ، وابن حمدان !!!

**الايقاع :**

الإيقاع وهو مظهر للموسيقى ، والسهولة ، والترّفه ، التّعبيريّ ، شائع في شعر المتنبي شيوعه في شعر ابي تمام قبله ، وفى نثر الجاحظ والتوحيديّ .

الإيقاع منطق رياضيّ ، موسيقيّ ، معماريّ ، غايته الجماليّة اللاّهية

---

٥٤ـ الديوان جـ٢ ص ٣٣٠
٥٥ـ الديوان جـ٢ ص ٣٣١
٥٦ـ الديوان جـ٢ ص ٣٠

وغاية غايتها ، اندغام ، وتناغم ، مع السّيرورة الكونيّة ، حيث الوجود كلّه وحدة نغميّة كبرى •

**شواهد هذا التناسب المعماري ، النغمي فيما يلي :**

الشمس من حسّاده ، والنصر من
قرنائه ، والسّيف من أسمائه(٥٧)

وتاليه :

ومن واهب جزْلاً ، ومن زاجر هلاً
ومن هاتك درعا ، ومن ناثر قصبا(٥٨)

وقوله :

حنانيك مسؤولاً ، ولبيك داعيا
وحسبي موهوبا وحسبك واهبا(٥٩)

و :

يزور الاعادي في سماء عجاجة
أسنّته في جانبيها الكواكب(٦٠)

و :

ان تلقه لا تلق إلاّ قسطلا
أو جحفلا او طاعنا او ضاربا(٦١)

---

٥٧- الديوان ج١ ص ٢
٥٨- الديوان ج١ ص ٤٣
٥٩- الديوان ج١ ص ٥١
٦٠- الديوان ج١ ص ٧٨
٦١- الديوان ج١ ص ٩٢

او هاربـــا او طـالبــــا او راغبـــاً

او راهبـــا او هــالكـــاً او نـــادبـــا

* * *

**او توشيح الاستعارة بتوازن متناغم :**

حملـت اليـه مـن لسـانـي حديقــةً

سقاها الحجـى سقي الرياض السحائب(٦٢)

**او جناس مورّى كقوله :**

حتـى وصلـت الـى نفـس محجّبـةٍ

تلقى النفوس بفضـلٍ غيـر محجـوب(٦٣)

أو كالجناس المألوف :

يعطي فتعطى مـــن لُهى يـــده اللهـى

وتـــرى بـــرؤيـــة رأيـــه الآراء(٦٤)

**او مطابقــة :**

امـا تغلـط الايـــام فـــيّ بـأن أرى

بغيضـاً تنـائـي او حبيبـاً تقـرّبُ(٦٥)

أو مزج الترصيع بالمقابلات الطباقيّه ، والتشبيه الشّكليّ :

فـي النّـاس أمثلـة تـدور حياتهـا

كمماتهـا ومماتهـا كحياتهـا(٦٦)

---

٦٢ـ الديوان جـ١ ص ١١٤
٦٣ـ الديوان جـ١ ص ١٢٢
٦٤ـ الديوان جـ١ ص ١٦
٦٥ـ الديوان جـ١ ص ١٢٣
٦٦ـ الديوان جـ١ ص ١٦٠

**او مثل قوله الرائع :**

فغدا النجاح وراح في إخفاقه

وغدا المِراح وراح في إرقاله[٦٧]

وقوله :

الجيش جيشك غير انك جيشه

في قلبه ويمينه وشماله[٦٨]

ومنه :

وما صبابة مشتاق على أملٍ

من اللقاء كمشتاق بلا أمل[٦٩]

وردّ بعض القنا بعضاً مقارعةً

كأنه من نفوس القوم في جدل[٧٠]

* * *

وأبصر منك الرزق والرزق مطمع

وأبصر منه الموت والموت هائل[٧١]

* * *

---

٦٧ـ الديوان جـ٢ ص ٥٣

٦٨ـ الديوان جـ٢ ص ٥٧

٦٩ـ الديوان جـ٢ ص ٦٤

٧٠ـ الديوان جـ٢ ص ٧٣

٧١ـ الديوان جـ٢ ص ٩١

يقوّم تقويم السماطين مشيه
اليك اذا ما عوّجته الأفاكل[72]

* * *

وأتعب من ناداك مَن لا تجيبه
وأغيظ مَن عاداك من لا تشاكل[73]

* * *

قد بلوت الخطوب مرّاً وحلوا
وسلكت الأيام حزناً وسهلا[74]

* * *

فطعم الموت في أمر صغير
كطعم الموت في أمر عظيم[75]

* * *

قليل عائدي ، سقم فؤادي
كثير حاسدي صعب مرامي[76]

**تضمين الامثال :**

**أكثر الادباء العرب من تَضمين كلامهم أمثالاً يَقوى بها منطق الكلام،**

---

72ـ الديوان جـ2 ص 90

73ـ الديوان جـ2 ص 93

74ـ الديوان جـ2 ص 97

75ـ الديوان جـ2 ص 78

76ـ الديوان جـ2 ص 400

ويتمكن الاقتناع من نفوس السامعين ، جرى ذلك في الجاهلية على ألسنة الكهان ، والخطباء ، والشعراء ، خاصة اتباع مدرسة « اوس بن حجر » كزهير ، والحطيئة ، كما عني به القرآن وحديث النبي (ص) .

وفي العصر العباسي أشاع ابو نؤاس تضمين الامثال ، ومأثور الكلام القديم ، ومشهوره في شعره إما دعابة او تمكيناً للجو ، ولم يتخل عنه أبو تمام .

عندما خطب زياد خطبته البتراء ، وجاء فيها « كذبة الامير بلقاء مشهورة » أي أنها فضاحة ، تناول المتنبي هذا التعبير المثلي بقوله :

وكم لك من خَبَر شائع
له شِيةُ الأبلق الجائل(٧٧)

* * *

لأن حلمك حلم لا تكلّفه
ليس التكحّل في العينين كالكحل(٧٨)

* * *

ولقد رامك العداة كما رامَ
فلم يجرحوا لشخصك ظلا(٧٩)

* * *

ما لمن ينصب الحبائل في الارض
ومرجاه أن يصيد الهلالا(٨٠)

* * *

---

٧٧- الديوان جـ٢ ص ٣٧
٧٨- الديوان جـ٢ ص ٧٢
٧٩- الديوان جـ٢ ص ١٠٠
٨٠- الديوان جـ٢ ص ١١٠

تريدين لقيان المعالي رخيصة

ولا بد دون الشهد من إبر النحل[81]

* * *

لو كنت تنطق قلت معتذراً

بي غير ما بك أيها الرجل[82]

* * *

وما ذاك بخلاً بالنفوس على القنا

ولكن صدم الشر بالشر أحزم[83]

* * *

أرضيت « وهشوذان » ما حكمت

أم تستزيد « لأمك الهبل »[84]

**الوزن والقافية :**

راعى المتنبي جو الحالة الشعرية ، التي كانت تطيف بكيانه ، وتطوفه في فضاء ذاته ، واختار لها بوعي قاصد ، وبلا شعور الوزن الذي يلائمها ، واستجابت له القافية المناسبة ، والروي المتمم ذلك التناغم بين الحالة والتعبير .

والمستقرىء ديوانه يجد أن الاوزان الرحبة كالطويل والبسيط تغلب ومثيلاتهما أكثر من سواها ، وتقل الاوزان الخفيفة الراقصة الا

---

٨١ـ الديوان جـ٢ ص ٢٠٦

٨٢ـ الديوان جـ٢ ص ٢١٣

٨٣ـ الديوان جـ٢ ص ٢٥٧

٨٤ـ الديوان جـ٢ ص ٢١٨

في الحالات النادرة حيث يكون الشاعر في وفاق مع نفسه والوجود كتلك الداليّة التي قالها في ابن العميد[٨٥] والثانية في عضد الدولة[٨٦] ، وكلتاهما قيلتا في أواخر ايامه ، وخارج بلاد العرب ، أما الدّالية الرشيقة الثالثة فقد نظمها في صباه ، ليمدح بها « محمد العلوي المشطّب » ومطلعها :

أهلاً بدارٍ سباك أغيدها
أبْعدُ ما بانَ عنك خرّدها[٨٧]

والظاهر أن قافية الدال ، ورويّها الهاء مما يساعد على المرح ، والاختيال ، والتطرب .

أما قافية الالف اللّينة ، المقصورة فله فيها واحدة بعد خروجه من مصر ، عندما أحسّ بالخلاص والنجاة ، فانطلق يترنم :

الا كلّ ماشية الخيزلى
فدا كل ماشية الهيدبى[٨٨]

الى :

فلما أنخْنا ركزنا الرما
ح فوق مكارمنا والعلا

* * *

وربما كان حرف الباء ، والدال ، والميم ، والراء ، واللام أكثر

---

٨٥ــ الديوان جـ١ ص ٢٩٤

٨٦ــ الديوان جـ١ ص ٢٧٦

٨٧ــ الديوان جـ١ ص ١٩٥

٨٨ــ الديوان جـ١ ص ٢٤

الحروف وروداً في قوافيه ، لما فيها من ملاءمة للصخب ، والضجيج ، والشدّة ، وذلك من مزاج الشاعر .

واقل قوافيه وروداً كما سجلنا عند الحديث عن ديوانه ، الضاد ، والزاي ، والشين ، والجيم ، والياء .

كذلك وجدنا أن الرجز ضئيل في ديوان المتنبي ، الا ما اقتضاه الموضوع كوصفه كلب ، أو صيد ، التفاتاً الى ارجاز ابي نؤاسى الطّرديّة ، وربّما عدّ العروضيّون أنّ بحر الرجز أدنى البحور ، وأقلها لياقةً بالشاعر الفحل ، الاّ من اختص بذلك كرؤبة والعجاج .

على أنّ المتنبي ردّ على كتاب ابن العميد بأرجوزة داليّة ( جـ١ ص ٢٨٣ ) لكنها من خمسة ابيات فقط ، والظاهر أنه كان يخبّ على جواده ، أو تهتزّ به ناقته وهو اكثر ما يكون انشراحاً ، واطمئنانا بين الكوفة وأرجّان .

* * *

جماع القول ، أنّ شعر المتنبي متين الحبكة ، مختار الالفاظ ، قليل الغريب ، موّار بالمشتقات البارعة الاخذ ، والافعال الماهرة التناول ، غير مسرف في العناية بالبديعيّات ، وان كانت من مقتضيات عصره ، وثقافته ، وعبثه الفنيّ ، وأنّ التّعقيد ، والخروج على مقاييس النّحاة ، والصرفيّين ، والبلاغيّين كان يقصده قصداً لإشغالهم ، أو العبث بهم ، ليريهم أنه اعلم منهم بدقائق اللّغة وتجوّزاتها ، وأن الشاعر مباح له أن يجتاز ، ويفترع ، ويعمّي .

وان هذا الشعر تغلب عليه السّهولة والجزالة ، ويقلّ فيه التكلّف ويندر فيه التّعقيد .

اما المواقف التي اقتضته أن يقول فيها شعراً لم ينبع من ذاته عن طواعية فقد كان يخلق له الحالة ، كمن يفتح للينبوع منفذاً آخر لم يجر فيه بطبيعته لكنه تدفق ، فامرع وخضّر ونضّر .

كان المتنبي معمارياً هائل الأنامل ، مارد الكفّين ، مستطيل الذّراعين .

مقالعه الفلك ، واحجاره النّجيمات ، ومدماكه بين الغيوب والمشاهد ، ولنا الحق ان نستعير منه بيته القائـــل :

مستقـــل لـــك الدّيـــار ولـــوكـــا
ن نجـــومـــاً آجـــرّ هـــذا البنـــاء[89]

لنحوّله اليه على مذهب القائـــل :

كالبحـــر ، يمـــطره السّحـــاب ومالـــه
فضـــل عليـــه لأنـــه مـــن مائـــه .

* * *

المتنبي شاعر كلماته فرسان . تأسر الزمان .

89ـ الديوان جـ1 ص 21

# الفهارس

## ١ـ فهرس الاعلام

## حرف البـاء



## حرف التـاء

**حرف الخاء**



**حرف الدال**



**حرف الذال**



**حرف الراء**



**حرف الزاي**



**حرف السين**

## حرف الشين



## حرف الصاد



## حرف الضاد



## حرف الظاء

## حرف العين



## حرف الغين



## حرف الفاء

## حرف القاف



## حرف الكاف



## حرف اللام



## حرف الميمـم

## حرف النون



## حرف الهاء



## حوف الواو



## حرف الياء

## ٢ ـ فهرس المصادر والمراجع


ـ **ديوان المتنبي** ـ شرح البرقوقي

ـ **ديوان المتنبي ـ شرح العكبري**

ـ **ديوان المتنبي** ـ شرح الواحدي

ـ **ديوان المتنبي** ـ شرح اليازجي

القديمة

ـ **الابانة عن سرقات المتنبي ( لفظا ومعنى ) للشيخ ابو سعيد العبيدي** ـ نشر نخلة قلفاط ـ بيروت.

ـ **ارشاد الاريب الى معرفة الاديب** ـ ( معجم الادباء ) لياقوت الحموي .

ـ **الانساب** ـ للسمعاني

ـ **تاريخ بغداد** ـ للخطيب البغدادي .

ـ **خزانة الادب** ـ للبغدادي

ـ **الرسالة الحاتمية في سرقات المتنبي ، وساقط شعره ، ونوارد المعاني بينه وبين (( ارسطو )) ـ للحاتمي**

ـ **رسالة في كفريات المتنبي** ـ لحسام زاده الرومي .

ـ **شذرات الذهب** ـ لابن العماد الحنبلي

ـ **شرح الاربلي** | عنهما
ـ **شرح التبريزي** |

ـ **شرح مرهف بن اسامة بن منقذ** .

ـ **شرح المشكل من ديوان المتنبي** ـ شرح ابن سيده ـ القاهرة

ـ **الصبح المنبي ، عن حيثية المتنبي** ـ الشيخ يوسف البديعي

ـ **ابو الطيب ما له وما عليه** ـ للثعالبي

- كتاب التجني، على ابن جني ـ شرح ابن فورجة البرجرودي
- كتاب الصناعتين ـ لابي هلال العسكري
- كتاب الفتح علي ابي الفتح ـ شرح ابن فورجة البرجرودي
- الكشف عن مساويء المتنبي ـ الصاحب بن عباد الطالقاني
- معجم الشعراء ـ للمرزباني
- الموشح ـ للمرزباني
- نزهة الالباء، في طبقات الادباء ـ لابن الانباري .
- النهضة الزاهرة ـ لابن تغري بردي
- الوساطة بين المتنبي وخصومه ـ تاليف القاضي الجرجاني . تحقيق الشيخ عارف الزين ـ صيدا سنة ١٩١٢
- وفيات الاعيان ـ لابن خلكان
- يتيمة الدهر ـ للثعالبي

الحديثة

- الادب المربي في حياة المتنبي ـ حسين حسين .
- الاعلام ـ خير الدين الزركلي
- امثال المتنبي وحياته بين الامل والالم ـ احمد سعيد البغدادي
- تاريخ الادب العربي ـ احمد حسن الزيات
- تاريخ التمدن الاسلامي ـ جرجي زيدان
- حصاد الهشيم ـ ابراهيم عبد القادر المازني
- حياة المتنبي ـ محمد محيي الدين عبد الحميد
- دائرة المعارف ـ فؤاد افرام البستاني
- ذكرى ابي الطيب ـ عبد الوهاب عزام
- الرؤوس ـ مارون عبود
- الروائع عدد ١١ و ١٢ ـ فؤاد افرام البستاني
- الزمان الوجودي ـ عبد الرحمن بدوي

ـ **ساعات بين الكتب** ـ عباس محمود العقاد

ـ **الشعر في بغداد** ـ احمد عبد الستار الجواري

ـ **شوبنهور** ـ عبد الرحمن بدوي

ـ **فخر ابي نواس وابي الطيب** ـ عبد الغني باحقني

ـ **فيض الخاطر** ـ احمد امين

ـ **المتنبي** ـ الدكتور زكي المحاسني

ـ **مطالعات في الكتب والحياة** ـ عباس محمود العقاد

ـ **مع المتنبي** ـ طه حسين

ـ **النهج العربي الى شرح حكم المتنبي** ـ ابراهيم عبد الخالق

ـ **وحي الرسالة** ـ احمد حسن الزيات


مراجع أجنبية :


ـ **تاريخ الادب العربي** ـ كارل بروكلمن ( ترجمة حجار ) نشر دار العلم للملايين بيروت

ـ **دائرة المعارف الاسلامية الفرنسية**

ـ **دراسات لجوفروا ده موممبين ، وكنار ، وسواهما**

— ABU T. TAYYIB AL-MUTANABBI — R. Blachère

— LITTERATURE ARABE — C. Huart

# ٣ ـ فهرس الموضوعات

رقم الايداع في المكتبة الـوطنية ببغداد ٦٤٥ لسنة ١٩٧٨

مطبعة الشعب ـ بغداد ( ٤٠٥٠ ) نسخة ١٩٧٨/٦/٢٠